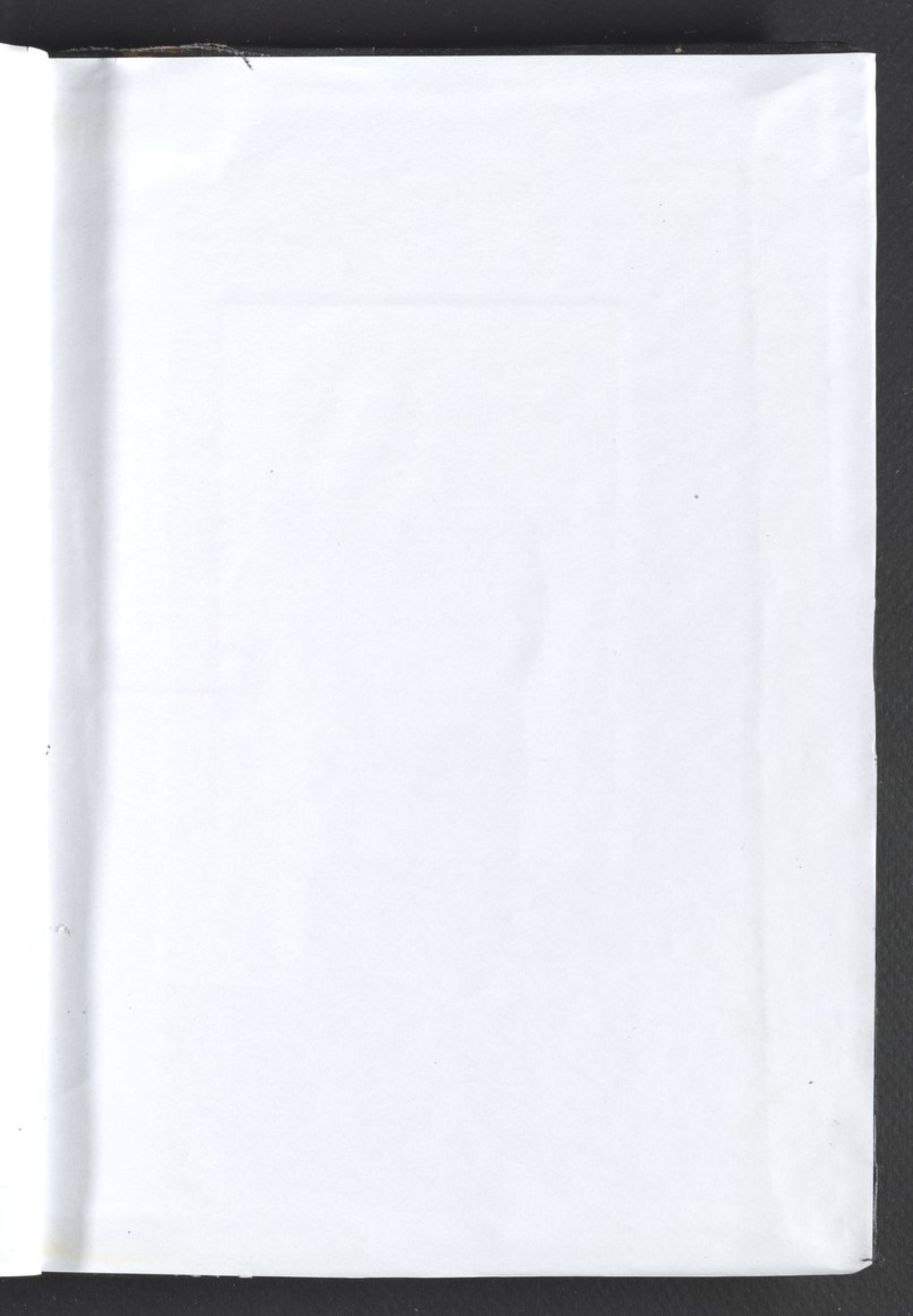
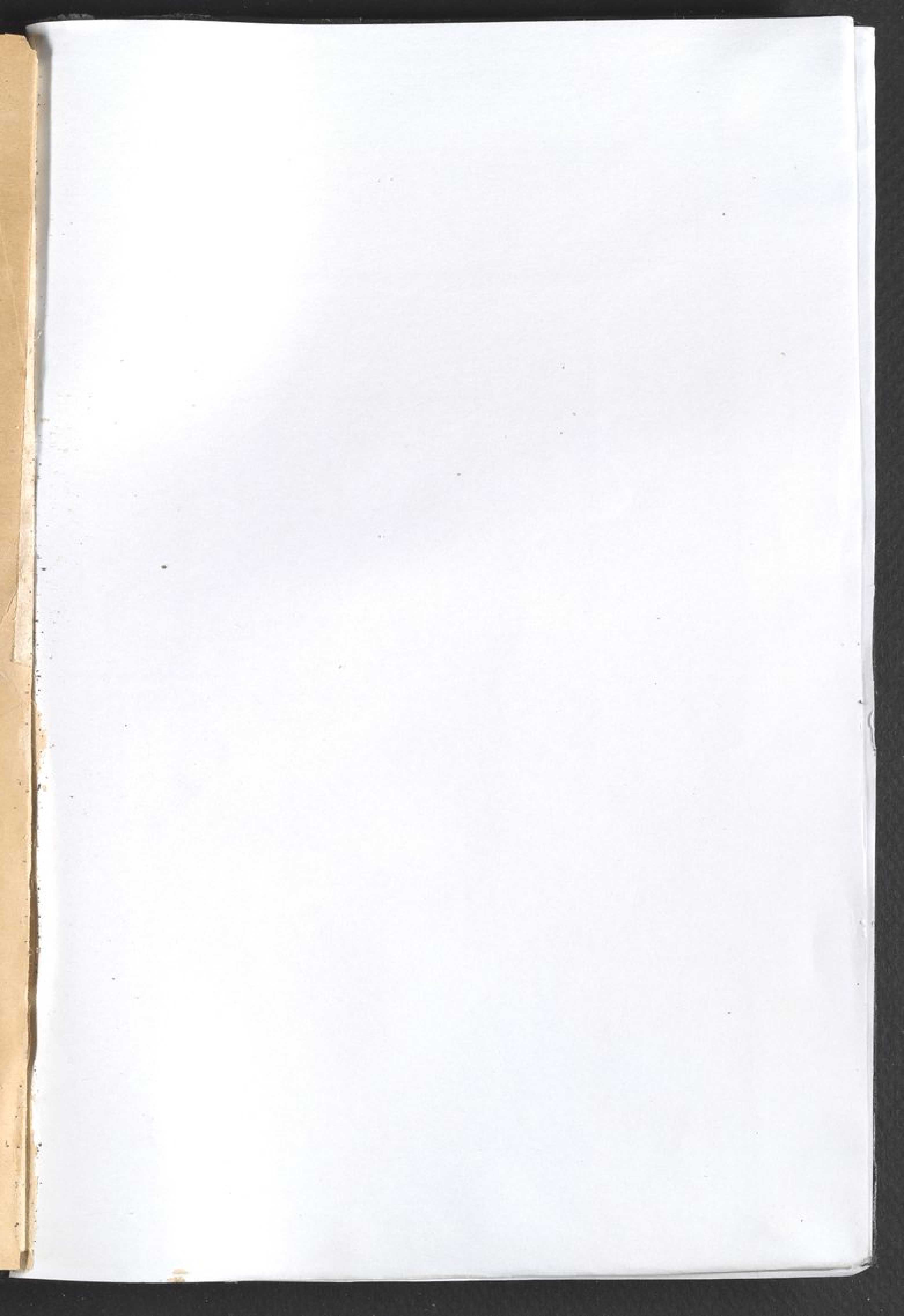

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01815 0312







شفيق جبري

دراسة الأغاني

مطبعة الجامعة السورية

دمشق ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م

١ صـ٢ فاتحة القول ٢ - ٧
صـ٨ مقدمة الأغاني ٨ - ١١ مع تحديد تقدمة
صـ١٦ موضوعات الأغاني من أول هذه الموضوعات
١٦ - ١٩ مع حياتنا الماضية .
صـ٤٧ نستخرج من كل ما تقدم - كتاب كذا ...

فاتحة القول

موضوعي : كتاب الأغاني، لست أدري لماذا اخترت هـذا الموضوع ، فأنا لم أختره بعد إمعان في التفكير ، وإنما الخاطر خطر ببالي ارتجالا ، أذكر أني اقتنيت هذا الكتاب من ثلاثين سنة ، وكنت في خلال هذه الثلاثين السنة أنظر في بعض ورقه نظراً ، وربما قرأت الورقة الواحدة مرات كثيرة ، ثم أطوي الجزء ثم أعود اليه بعد أسبوع أو بعد شهر فأرجع الى الورقة نفسها ، أو الى ورقة غيرها فأقف على أبيات من الشعر أو على خبر من الأخبار، ثم أطوي الجزء ثم أعود اليه بعد أسبوع أو بعد شهر أو بعد سنة فأحبس ذهني على شعر أو على خبر ، وهكذا مرت علي ثلاثون سنة وأنا لم أقرأ كتاب الأغاني من أوله الى آخره ، ولا قرأت أكثره ، ولا قرأت أقله ، وانما قرأت أوراقا منه ، فلم تمهد لي قراءة من هذا الشكل سبيلا الى الإحاطة بكتاب الأغاني ، غير أني كنت أعلم أنه يشتمل على شيء من الشعر أو من الأخبار ليس إلا ، وأنه كتاب جليل القدر .



وفي صيف من الأصياف وقع في نفسي أن أقرأ كتاب الأغاني من أوله الى آخره ، ففعلت ، وكنت في أثناء قراءتي له أدوّن بعض الخواطر ، فلم ازدد إمعانا في القراءة وفي التدوين الا ازددت شعوراً بأني في أفق جديد لاعهد لي به من قبل فقد انكشف لي نمط من الحياة لم ينكشف لي في كتاب من كتب الأدب، واجتمع لي كنز من المعرفة لم يجتمع لي نظيره ، فقلت في نفسي : اذا كنا لانقرأ كتاب الأغاني الا للوقوف على بعض الشعر أو على بعض الأخبار فقد ضاع الكتاب بين أيدينا ، واذا كنا نقرأه للوقوف على شيء أكثر من الشعر وأبعد من الأخبار فقد ضعنا في هذا الكتاب لأن الحياة التي أذاع لنا أسرارها مديدة الآفاق ،

مختلفة الوجوه ، تتصل بعصور وقصور وبدول وخلفاء وملوك وأمراء وعمال وأشباه هذا كله .

وقد عزمت بعد أن اهتديت الى هذه النتائج على أن أجعل كتاب الأغاني موضوعا أتفرغ له وأظن انه جدير بالكلام عليه .

وأنا أحب قبل أن أشرع في هذا الكلام أن أعرف كيف كان رأي المتقدمين في كتاب الأغاني .

قال أبو محمد المهلبي : سألت أبا الفرج في كم جمعت هذا الكتاب ، فقال : في خمسين سنة ، وأنه كتبه مرة واحدة في عمره ، وهي النسخة التي أهداها الى سيف الدولة بن حمدان ، فأعطاه ألف دينار ، وبلغ ذلك الصاحب بن عباد فقال : لقد قصّر سيف الدولة ، وانه ليستحق أضعافها ، اذ كان مشحونا بالمحاسن المنتخبة ، والفقر الغريبة ، فهو للزاهد فكاهة ، وللعالم مادة وزيادة ، وللكاتب والمتأدب بضاعة وتجارة وللبطل رُجْلَة وشجاعة وللمتظرف رياضة وصناعة ، وللملك طيبة ولذاذة ، ولقد اشتملت خزانتي على مائة الف وسبعة عشر ألف مجلد ، مافيها سميري غيره ، ولقد عنيت بامتحانه في أخبار العرب وغيرهم فوجدت جميع مايعز[1] عن أسماع من قرفه بذلك قد أورده العلماء في كتبهم ، ففاز بالسبق في جمعه وحسن وضعه وتأليفه .

ان شهادة مثل شهادة الصاحب بن عباد عظيمة الشأن ، فهي تدل على أن أئمة الأدب كانوا يقدرون قيمة كتاب الأغاني حق قدرها ، ومع هذا كله لم نجد في شهادة الصاحب مايشير الى حقيقة هذا الكتاب ، فان الصاحب بن عباد نظر الى محاسن « الأغاني » وفقره وفكاهته ومادته ونحو ذلك ، انه نظر الى الكتاب من من حيث الظواهر ، وسنجد أن البواطن التي اشتمل عليها أعظم .

---

(١) قال الأساتذة الذين أشرفوا على طبع كتاب الأغاني في دار الكتب المصرية : ولعلها يعزب بمعنى يغيب ويخفى .

(ومثل هذا القول ماقاله أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة :
لم يكن كتاب الأغاني يفارق عضد الدولة في سفره ولا حضره ، وانه كان جليسه الذي يأنس اليه وخدينه الذي يرتاح نحوه)

نستنبط من هذا كله أنهم كانوا يجدون في مطالعة كتاب الأغاني لذة منقطعة النظير ، كان هذا الكتاب يرضي ذوقهم وشعورهم وعاطفتهم ، وكم كنت أحب أن أجد في أقوالهم مايدل على اهتدائهم الى الناحية الباطنة فيه .

أما الثعالبي فانه لما تكلم على أبي الفرج الأصبهاني قال: والذي رأيته من كتبه كتاب القيان وكتاب الأغاني، فلم يقل في كتاب الأغاني كلمة ، لاجليلة ولادقيقة .

وهذا رأي نسبه الصابىء الى الوزير المهلبي في كتاب الأغاني، فقد قال فيه : وقد أورد فيه مادل به على اتساع علمه وكثرة حفظه .

ولا يخرج عن هذا الرأي ماقاله ياقوت في معجم الأدباء : لعمري ، ان هذا الكتاب لجليل القدر ، شائع الذكر ، جم الفوائد وعظيم العلم ، جامع بين الجد البحت والهزل النحت وقد تأملت هذا الكتاب، وعنيت به وطالعته مرارا وكتبت منه نسخة بخطي في عشر مجلدات ونقلت منه كتابي الموسوم بأخبار الشعراء فأكثرت وجمعت تراجمه .

فهذه شهادة نضيفها الى شهادات الصاحب وعضد الدولة والوزير المهلبي ، فلا يختلف رأي ياقوت في الأغاني عن آراء الذين ذكرتهم، فليس في هذا الكتاب في مذهبهم الا الجد والهزل ، والا العلم والحفظ وما شابه ذلك .

(فلنبعد عن عصور اولئك الأئمة ، ولنقرب من ابن خلدون ومقدمته تكاد تكون دائرة معارف ، قال ابن خلدون :

وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصبهاني،وهو ما هو ، كتابه في الأغاني ،جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم ، وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشيد ، فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه . ولعمري أنه ديوان العرب ، وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن

من فنون الشعر والتأريخ والغناء وسائر الأحوال ، ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه ، وهو الغاية التي يسمو اليها الأديب ويقف عندها وأنّى له بها .)

فابن خلدون لم ير في الأغاني الأخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم ثم امتد نظره فرأى فيه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتأريخ والغناء وسائر الأحوال ، واني أجد في كلمة : وسائر الأحوال ، ما يدل على شيء من حقيقة ما يتضمنه كتاب الأغاني ، على الرغم من أن هذا الشيء غامض ، ثم نظر ابن خلدون الى قدر هذا الكتاب فعرف هذا القدر فقال : ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه ، وهو الغاية التي يسمو اليها الأديب ويقف عندها ، وانّى له بها .

وكيف كانت الاشارة الخفية التي أشار اليها ابن خلدون في مقدمته ، فقد بقيت النواحي التي صورها كتاب الأغاني مخبوءة، غير مكشوفة،لأن العصر الذي عاش فيه ابن خلدون لم يك عصر دراسة للكتب على نحو الدراسة في عصرنا هذا.

واذا أحببت التبسط في هذا الباب امتد بي نَفَس الكلام ، فحسبي ما ذكرته من الآراء والشهادات ولم أرم من ورائها الى الاستدلال بها على قيمة كتاب الاغاني أو على مقادير محتوياته ، وأنما أردت أن أعرف كيف نظر المتقدمون الى هذا الكتاب ، حتى أقايس بين نظرهم اليه وبين نظرنا في هذا العصر ، وهذه المقايسة وحدها هي التي تبين لنا الفرق بين عصر وعصر ، أو بين طور وطور .

فهل اختلف رأي المتأخرين في كتاب الأغاني عن رأي المتقدمين .

طبع كتاب الأغاني في مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، وقد نقل الأساتذة الذين تولوا طبعه جملة من مقدمة الأغاني ، ثم قالوا في تصديرهم:

«غير أن هذا الكتاب الجليل القدر الذي يعتبر مصدراً للأدب العربي وينبوعا يغترف منه كل متأدب ولا يستغني عنه أديب . . . »

فالذي نجده أن هؤلاء الأساتذة رأوا في كتاب الأغاني مصدراً للأدب العربي وينبوعاً يغترف منه كل متأدب ، ولا يستغني عنه أديب ، ولكني أرى أن كتاب

الأغاني قد يكون مصدرا لتصوير حياة بحذافيرها .

وقد أحببت أن أسأل استاذاً عظيم القدر من أساتذة هذا العصر عن رأيه في كتاب الأغاني ، ومعاذ الله أن يكون سوآلي إياه على سبيل الامتحان ، فما كان رأيه فيه يشذ عن رأيي لما كنت أقرأ منه أوراقاً متقطعة ، أي لم يجد فيه الا أشعارا وأخبارا ،ورأى أنه حفظ لنا أشياء كثيرة ، ولولاه لضاعت علينا هذه الأشياء .

وهل علي من حرج إن ذكرت أني اجتمعت في بيروت[1] الى إمام الأدب الدكتور طه حسين ، فسألني عن عملي في كلية الآداب ، فقلت له : دراسة كتاب الأغاني ، فتبين الارتياح في وجهه ، ثم أخذت أصف له النواحي التي جمعتها وانقطعت الى الكلام عليها وكنت أشعر بأني كلما ذكرت له ناحية منها ازداد اهتزازا وارتياحا حتى قال : هذا عمل لم يعمله غيرك ، ثم طلب الي حفظه الله ان أجيء الى مصر في الشتاء وأن أحاضر بكتاب الأغاني محاضرتين أوثلاث محاضرات .

توخيت من هذا الشيء الذي ذكرته التنبيه على جلالة قدر الأغاني في نظر أئمة هذا العصر ، على أننا لم نقرأ كتاب الأغاني كما يجب أن نقرأه ، فقد أهملناه إهمالاً لا ينبغي ان يطول أكثر من ذلك ، ولست أرى في الذي أقدمت عليه من دراسة كتاب الأغاني شيئاً من الفخر ، فكل واحد يستطيع أن يقرأ هذا الكتاب ، فينشأ له في قراءته رأي ، ولكن كل واحد ينظر اليه من وجه وأرجو ان تكون الوجوه التي نظرت اليه منها صحيحة ، هذا كل ما أتمناه ، وهذا كل ما أجهد فيه .

---

(١) سنة ١٩٤٨ وذلك لما دعي الدكتور الى القاء محاضرة في « الاونيسكو »

مقدمة الأغاني

على أي شيء يشتمل كتاب الأغاني ، هذا ما نريد أن نبحث عنه في هذا الفصل . —

إذا أردنا أن نعرف الموضوعات التي يحتوي عليها كتاب الأغاني لزمنا قبل كل شيء أن نرجع الى مقدمة الكتاب ، وسنجد في هذه المقدمة أشياء غير محتويات الأغاني ، سنجد فيها الغاية من تأليف الكتاب ، ورأي صاحبه في فائدة الكتاب وطبيعته وصحة أخباره ، ونهجه في تصنيفه ، والباعث على تأليفه ، والمشقة التي احتملها ، ثم نجد في خاتمة المقدمة شيئاً يدل على ورع المؤلف . —

يقول أبو الفرج في صدر المقدمة :(١)

هذا كتاب ألفه علي بن الحسين بن محمد القرشي ، الكاتب المعروف بالأصبهاني ، وجمع فيه ما حضره وأمكنه جمعه من الأغاني العربية ، قديمها وحديثها ، ونسب كل ما ذكره منها الى قائل شعره ، وصانع لحنه وطريقته من ايقاعه وإصبعه التي ينسب إليها من طريقته ، واشتراك إن كان بين المغنين ، على شرح لذلك وتلخيص ، وتفسير للمشكل من غريبه ، وما لا غنى عن علمه من علل إعرابه وأعاريض شعره التي توصل الى معرفة تجزئته وقسمة ألحانه . —

ولم يستوعب كل ما غني به في هذا الكتاب ولا أتى بجميعه ، اذ كان قد أفرد لذلك كتاباً مجرّداً من الأخبار ومحتويا على جميع الغناء المتقدم والمتأخر ، واعتمد في هذا الباب على ما وجد لشاعره أو مغنيه أو السبب الذي من أجله قيل الشعر أو صُنع اللحنُ خبراً يستفاد ويحسن بذكره ذكر الصوت معه على أقصر ما أمكنه

---

(١) اعتمدت في دراسة الأغاني على النسخة التي طبعت في مطبعة التقدم بمصر وصححها الأستاذ الشيخ أحمد الشنقيطي . —

وأبعده من الحشو والتكثير بما تقل الفائدة فيه ، وأتى في كل فصل من ذلك بنتف تشاكله ، ولمع تليق به ، وفِقر اذا تأملها قارئها لم يزل متنقلاً بها من فائدة الى مثلها ، ومتصرفا فيها بين جد وهزل ، وآثار وأخبار ، وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة وأخبارها المأثورة ، وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الاسلام ، تجمل بالمتأدبين معرفتها وتحتاج الأحداث الى دراستها ، ولا يرتفع من فوقهم من الكهول عن الاقتباس منها . اذ كانت مُنتخلة من غرر الأخبار ، ومنتقاةً من عيونها ومأخوذةً من مظانها ومنقولة عن أهل الخبرة بها . —

هذا ما قاله أبو الفرج في صدر مقدمته ، وهو كلام واضح لا غموض فيه ، فأبو الفرج ألف كتابه ليجمع فيه الأغاني العربية ، قديمها وحديثها ، فالغرض الأول من تأليف الكتاب جمع الأغاني ، وقد تخلل هذا الجمع ما أشار اليه من جد وهزل ، وآثار وأخبار ، وسير وأشعار ، متصلة بأيام العرب المشهورة ، وأخبارها المأثورة ، وقصص الملوك في الجاهلية ، والخلفاء في الاسلام . —

وبعد أن أتى على ذكر غايته من تأليف الكتاب أعرب عن رأيه في فائدة ما تخلله من قصص وأخبار وأيام وأشعار وسير وآثار وجد وهزل فقال :

تجمل بالمتأدبين معرفتها وتحتاج الأحداث الى دراستها ، ولا يرتفع من فوقهم من الكهول عن الاقتباس منها . —

ثم أشار إشارة خفيةً الى طبيعة هذه المحتويات وصحتها فقال :

إذ كانت منتخلة من غررها ، ومنتقاةً من عيونها ومأخوذة من مظانها ومنقولة عن أهل الخبرة بها . —

ولما كان الغرض الأول من تأليف كتاب الأغاني جمع الأغاني العربية ، قديمها وحديثها ، لزمنا أن نعرف هذه الأغاني التي جمعها حتى لا يفوتنا شيء مما ذكره في مقدمته ، قال أبو الفرج : فصدّر كتابه هذا ، وبدأ فيه بذكر المائة الصوت المختارة لأمير المؤمنين الرشيد رحمه الله تعالى ، وهي التي كان أمر إبراهيم الموصلي وإسماعيل بن جامع وفليحَ بن العوراء باختيارها له من الغناء كله ، ثم رُفعت الى

الواثق بالله ، رحمة الله عليه ، فأمر إسحق بن إبراهيم بأن يختار له منها ما رأى أنه أفضلُ مما كان اختير متقدما ، ويُبدل ما لم يكن على هذه الصفة بما هو أعلى منه وأولى بالاختيار ، ففعل ذلك ، واتبعَ هذه القطعة بما اختاره غيرُ هؤلاء من متقدمي المغنين وأهل العلم بهذه الصناعة من الأغاني ، وبالأصوات التي تجمع النغم العشر المشتملةَ على سائر نغم الأغاني والملاهي ، وبالأرمال الثلاثة المختارة ، وما أشبه ذلك من الأصوات التي تتقدم غيرها في الشهرة كمدن معبد ، وهي سبعة أصوات ، والسبعة التي جعلت بازائها من صنعة ابن سُريج وخير بينها فيها ، وكأصوات معبد المعروفة بألقابها ، وزيانب يونُس الكاتب ، فان هذه الأصوات من صدور الغناء وأوائله وما لا يحسن تقديم غيره أمامه ، واتبعَ ذلك بأغاني الخلفاء وأولادهم ، ثم بسائر الغناء الذي عرَف له قصة تُستفاد وحديثاً يستحسن اذ ليس لكل الأغاني خبر نعرفه ولا في كل ماله خبر فائدة ولا لكل ما فيه بعض الفائدة رونق يروق الناظر ويلهي السامع .

ووقّع على أول كل شعر فيه غناء صوتاً ليكون علامة ودَلالةً عليه يتبين بها ما فيه صنعة من غيره ، وربما أتى في خلال هذه الأصوات وأخبارها أشعار قيلت في تلك المعانى وغُني بها ، وليست من الأغاني المختارة ، ولا من هذه الأجناس المرتبة ، فلا يوجد من ذكرها معها بد، لأنها اذا أفردت عنها كانت إما منقطعة الأخبار، غير مشاكلة لنظائرها أو معادةً أخبارُها ، وفي كلتا الحالتين خلاف لما يجيء به هذا الكتاب ، وقد يأتي أيضاً منها الشيء الذي تطول أخباره وتكثر قصص شاعره مع غيره من الأصوات والأخبار ، فلا يمكن شرحها جمعاء في ذلك الموضع لئلا تنقطعَ الأخبار المذكورة بدخوله بينها ، فيؤخرَ ذكرُه الى مواضع يحسن فيها ، ونظائر له يضاف اليها ، غير قاطع اتساق غيره منها ولا مفرد للقرائن بتوسطه لها ، ويكون ذكره على هذه الحال أشكل وأليق . —

لقد عرفنا حتى الان الغاية من تأليف كتاب الأغاني ، ورأي صاحبه في فائدة محتوياته وفي طبيعتها وصحتها ، وعرفنا الأغاني التي جمعها، فنحن اذا سئلنا عن كتاب

الأغاني استطعنا أن نصفه بحسب ما وضحه لنا صاحبه في مقدمته من حيث غرضه وفائدته وطبيعته وصحة أخباره ، أو من حيث أغانيه .

لزمنا بعد هذا كله أن نعرف أبواب الكتاب ، كيف صنف أبو الفرج الأصبهاني هذه الأبواب ، فلنسمع ما قاله في هذا المعنى :

ولعل من يتصفح ذلك ينكر تركنا تصنيفه أبواباً على طرائق الغناء أو على طبقات المغنين في أزمانهم ومراتبهم أو على ما غُني به من شعر شاعره .

نستخرج من هذه الأسطر أن أبا الفرج ترك تصنيف كتابه أبوابا ، فالموضوعات فيه يركب بعضها بعضا من غير ترتيب ، ولكن لماذا ترك هذا التصنيف ، هل نسي ذلك نسيانا ، أم تعمده تعمداً .

لقد بيَّن هذا كله فقال :

والمانع من ذلك والباعث على ما نحوناه علل ، منها :

انا لما جعلنا ابتداءه الثلاثة الأصوات المختارة ، كان شعراؤها من المهاجرين والأنصار ، وأولهم أبو قطيفة ، وليس من الشعراء المعدودين ولا الفحول ، ثم عمر بن أبي ربيعة ، ثم نصيب ، فلما جرى أول الكتاب هذا المجرى ، ولم يكن ترتيب الشعراء فيه ألحق آخرُه بأوله ، وجعل على حسب ماحضر ذكره ، وكذلك سائر المائة الصوت المختارة ، فانها جارية على غير ترتيب الشعراء والمغنين وليس المغزى في الكتاب ترتيب الطبقات وانما المغزى فيه ماضمنه من ذكر الأغاني بأخبارها ، وليس هذا مما يضر بها .

ومنها : ان الأغاني قلما يأتي منها شيء ليس فيه اشتراك بين المغنين في طرائقَ مختلفة ، لايمكن معها ترتيبها على الطرائق ، اذ ليس بعضُ الطرائق ولا بعض المغنين أولى بنسبة الصوت اليه من الآخر .

ومنها : ان ذلك لو لم يكن كما ذكرنا لم يخلُ فيها ، اذا أتينا بغناء رجل وأخباره وما صنف إسحاق وغيره ، من أن تأتي بكل ما أتى به المصنِّفون والرواة

منها على كثرة حشوه وقلة فائدته ، وفي هذا نقض ما شرطناه من إلغاء الحشو وأن نأتي ببعض ذلك ، فينسبَ الكتابُ الى قصور عن مدى غيره ، وكذلك تجري أخبار الشعراء فلو أتينا بما غني به في شعر شاعر منهم ولم نتجاوزه حتى نفرغ منه لجرى هـذا المجرى ، وكانت للنفس عنه نَبوة ، وللقلب منه ملَّة ، وفي طباع البشر محبة الانتقال من شيء الى شيء ، والاستراحة من معهود الى مُستجد ، وكل منتقل إليه أشهى الى النفس من المنتقل عنه ، والمنتظر أغلب على القلب من الموجود .

واذا كان هذا هكذا فما رتبناه أحلى وأحسن ، ليكونَ القارئُ له بانتقاله من خبرٍ الى غيره ، ومن قصة الى سواها ، ومن أخبار قديمة الى محدثة ، ومليك الى سوقة ، وجد الى هزل ، أنشط لقراءته ، وأشهى لتصفح فنونه ، لاسيما والذي ضمناه إياه أحسنُ جنسه ، وصفو ما ألف في بابه ، ولبابُ ماجمع في معناه .

هذه هي العلل الثلاث التي بعثت أبا الفرج على أن يترك تصنيف كتابه أبوابا ولعل العبارة التي تستميل نظرنا أكثر من غيرها انما هي قوله في العلة الاولى : وليس المغزى في الكتاب ترتيب الطبقات، وانما المغزى فيه ماضمنه من ذكر الأغاني بأخبارها ، وليس هذا مما يُضر بها .

لم يرم أبو الفرج في كتابه الى ترتيب طبقات المغنين والشعراء وانما رمى الى ذكر الأغاني بأخبارها، فإذا كان هذا هو غرضه فانه يرى أنه لو أتى بأخبار الشعراء والمغنين مسلسلة بحيث لايقطع أخبار كل واحد منهم حتى يفرغ منها لكانت للنفس عن هذا الطراز من الترتيب نبوة وللقلب منه ملة ، ولمَّا كان واقفا على طباع البشر وعارفا بما تنبو عنه هذه الطباع وبما تمل منه وجد أن في هذه الطباع محبة الانتقال من شيء الى شيء ، والاستراحة من معهود الى مستجد ، وان كل منتقل اليه أشهى الى النفس من المنتقل عنه ، والمنتظر أغلب على القلب من الموجود ، واذا كان هذا هكذا فهو يعتقد أن ترتيب كتابه على الشكل الذي رتبه عليه احسن وأحلى ،

ليكون القارىء له بانتقاله من خبر إلى غيره ومن قصة الى سواها ومن أخبار قديمة إلى محدثة ومليك الى سوقة وجد الى هزل أنشط لقراءته، وأشهى لتصفح فنونه .

من هذا الكلام ندرك الفرق بين العصور، فالمحاسن التي يراها أبو الفرج في كتابه نراها نحن مساوىء؛ فنحن نضجر في كتاب الأغاني في عصرنا هذا من الشيء الذي يستأنس به صاحبه، نحن نرى أن الكتاب لو رتبت فيه طبقات الشعراء والمغنين لكان أشد مناسبة لروح العصر، لأن أسلوب التأليف قد اختلف عما كان عليه في العصور المتقدمة، وما نجهد هذا المجهود في قراءة كتاب الأغاني ودراسته الا الوقوف على هذه الأشياء المبعثرة في أضعافه حتى نستطيع ان نؤلف بين الأخبار المتشاكلة، فاذا وجدنا الى هذا التأليف سبيلا أحطنا بأنواع الحياة التي صورها أبو الفرج، فلو صنف كتابه أبوابا اتمت لنا هذه الاحاطة دون شيء من التعب .

ولم يبق لنا بعد هذا كله الا ان نعرف من الذي بعث صاحب كتاب الأغاني على تأليف كتابه، فكما أن أبا الفرج لم يهمل في مقدمته ذكر الغاية من تأليف كتابه وفائدة هذا الكتاب وطبيعة أخباره وصحتها، وكما انه لم يغفل عن ذكر الأغاني العربية قديمها وحديثها والأسباب التي من أجلها ترك تصنيف كتابه أبوابا فكذلك لم يغفل عن ذكر الذي بعثه على تأليف هذا الكتاب، فقال :

والذي بعثني على تأليفه أن رئيسا من رؤسائنا كلفني جمعه له وعرفني أنه بلغه ان الكتاب المنسوب الى إسحق مدفوع أن يكون من تأليفه، وهو مع ذلك قليل الفائدة وانه شاك في نسبته، لأن اكثر أصحاب إسحق ينكرونه، ولأن إبنه حمادا أعظم الناس إنكارا لذلك، وقد لعمري صدق فيما ذكره، وأصاب فيما أنكره.

فاذا عرفنا الباعث لأبي الفرج على تأليف الأغاني فلنقرأ أخيرا هذا الكلام الذي ختم به مقدمته :

فتكلفت ذلك له على مشقة احتملتها منه، وكراهة ان يؤثر عني مابقي على

الايام مخلدا ، وإلي على تطاولها منسوباً وان كان مشوباً بفوائد جمة ومعان من الآداب شريفة .

فكأنه يحاسب نفسه على أن يكون كتاب الأغاني منسوبا اليه على تطاول الأيام على الرغم من اشتماله على فوائد جمة ، ومعان من الآداب شريفة ، فما وسعه في مثل هذه المحاسبة وفي مثل هذا الورع الا أن يستغفر الله فيقول :

ونعوذ بالله مما أسخطه من قول أو عمل ونستغفره من كل موبقة وخطيئة وقول لايوافق رضاه ، وهو ولي العصمة والتوفيق ، وعليه نتوكل واليه ننيب .

هذا مايشتمل عليه كتاب الأغانى بحسب مقدمته ، واذا أردنا أن نلخص هذه المشتملات وجدناها تنحصر في الأغاني العربية ، قديمها وحديثها ، وفي شيء من جدل القول وهزله ، وفي جملة من الآثار والأخبار والسير والأشعار وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الاسلام ، وتراجم بعض المغنين والشعراء .

ونحن نجد أن أبا الفرج اهتم في مقدمته بالاشارة الى الأغاني ، ولم يبال بشيء مبالاته بذكرها ، ويكاد ذكر الأغاني يستغرق المقدمة كلها ، على اننا اذا اطرحنا من الكتاب الأشعار التي فيها غناء ، بقي الكتاب على حاله من حيث محتوياته ، فان ماضمنه إياه من جد وهزل وآثار وأخبار وسير وأشعار وقصص الملوك والخلفاء ، لايؤثر فيه اطراح الأغاني .

امّا هذه الأغاني العربية ، فما أنا منها في قليل ولا كثير ، ولهذا فاني لا أتكلم في هذا الكتاب على الغناء ، لأني لا أحذق أصوله ولا أمهر في قواعده ولا أتمكن من أسراره ، فالذين يهمهم غناء العرب وأطواره يجدون في تتبع الأصوات التي ذكرها أبو الفرج مجالا واسعا لمعرفة هذه الاطوار ، وفي كل حال اني اذا تخطيت الكلام على الغناء وجدت في كتاب الأغاني مجالا أوسع للكلام على أمور غير الغناء .

اني أجد في كتاب الأغاني ميدانا أمضي القول فيه ، ميدان الشعر وميدان النثر ، اما الشعر فقد أجلت الكلام عليه الى حين الفراغ من هذا الكتاب ، فسأفرد للشعر أبوابا أصف فيها موضوعاته وأطواره ونحو ذلك .

لا أتكلم في هذا الكتاب إلا على النثر وحده ، وأعني بالنثر ما أشار اليه أبو الفرج من جد وهزل وآثار وأخبار وسير وقصص وغير ذلك ، ولكني لا أنظر الى هذه الأمور نظرة أبي الفرج اليها ، اني أنظر اليها بحسب روح العصر ، فقد أستخرج من هذه القصص والسير وهذه الأخبار والآثار المفرقة في أضعاف الكتاب من غير ترتيب ولا تصنيف مايصور أنماطا من الحياة بحذافيرها وسأوضح هذا كله في الفصل الآتي .

❀❀❀

موضوعات الأغاني

ذكرت في الفصل الماضي ما اشتمل عليه كتاب الأغاني من الموضوعات بحسب ما أشار الى هذه الموضوعات صاحب الكتاب نفسه في المقدمة .

ولكني أنظر الى كتاب الأغاني غير النظرة التي ينظرها اليه مؤلفه ، اني أرى في هذا الكتاب الجليل ضروباً من الموضوعات لم يشأ أبو الفرج أن يذكرها بأسمائها وقبل أن ألخص هذه الموضوعات لا أرى بأساً بأن أتكلم في الفصل الآتي على صاحب الأغاني من حيث ثقافته وطبائعه وأخلاقه وتشيعه .

فاذا فرغت من هذا كله انتقلت الى الكلام على أسلوبه في الحديث والرواية .

أما الثقة بأخبار أبي الفرج فلا نشعر بها الا في خلال البحث عن تحقيقه ،فاذا وضحت هذا التحقيق استطعت أن أخوض في طائفة من الموضوعات التي يحتوي عليها كتاب الأغاني .

أول هذه الموضوعات التراجم ، من خصائص التراجم في كتاب الأغاني وصف هيآت أصحابها وملابسهم ومآكلهم ومشاربهم ونحو ذلك .

وسأشرع بعد الكلام على التراجم في الكلام على العامة ، من بعد هذا الفصل فصل العامة أو العوام ، نبدأ بادراك الحياة الاجتماعية التي وصفها أبو الفرج في كتاب الأغاني ، من هذه الحياة ، في تلك الأيام الكتاتيب ، كيف كان المعلمون يعاملون الطلاّب في الكتاتيب ، وهل كانت الجواري يختلفن الى الكتّاب أو المكتب ، وهل كان الصبيان يدرسون في المساجد ، وكيف كانت مكافأة النابغين من الطلاب في تلك العصور ، هذا ما سنطلع عليه في فصل الكتاتيب ، وسنشهد مجلساً من مجالس الطلاب ونرى أسلوباً من دراستهم ونمطاً من هزلهم .

واذا خرجنا من الكتاتيب دخلنا ملاهي القوم ، فرأينا كيف كانوا يقضون

لهوهم ، وشهدنا أجناس شرابهم وأنواع زينتهم وهيآت جواريهم .

ولكننا لانقتصر على شهود الملاهي وحدها، فسندخل دور الناس ونرى موائدهم وأوانيهم وفرشهم وثيابهم .

إلاّ أنا لانكتفي بهذا كله ، فقد مهد لنا أبو الفرج سبيلا الى دخول قصور الخلفاء فصوّر لنا فن البناء في الحجاز والشام والعراق حتى اطلعنا على هـذا كله في كتابه .

غير أنا لانهتدي الى الحياة الاجتماعية الا اذا تغلغلنا الى أندية تلك العصور ومطاعمها وخاناتها وسمعنا قصّاصها ورأينا مصوريها.

فاذا فرغنا من مشاهد هذه الحياة اطلعنا على خصائص بعض الأقطار كالحجاز والشام والعراق .

وهكذا ننتقل من مشهد الى مشهد ، ومن معرفة الى معرفـة حتى نصل الى عادات المتقدمين في أفراحهم وأحزانهم ، فنطلع على تقاليدنا في قديم العصور .

أما الميدان الفسيح الذي جال فيه أبو الفرج فهو ميدان المرأة، فلا يخفى علينا شيء من حرية المرأة في الزواج ، وتفكيرها في حرية الطلاق ، ولا يخفى علينا شيء من تحدثها الى الرجال ومن حجابها أو سفورها ومن مجالسها ومن ثقافتها الأدبية.

ولم يكن مجاله في الكلام على حريات الناس بأقل من مجاله في الكلام على حرية المرأة ، فسنشهد حرية الناس في مقامات الخلفاء والأمراء والعمال ، في الدولتين الأموية والعباسية كما سنشهد حريتهم في المعتقدات والاستخفاف بمقدسات الأمور وحريتهم في التربية والقضاء .

وكما نعم الناس في القديم بحلاوة الحرية فكذلك شقوا بمرارة العبودية وقـد عرض علينا أبو الفرج نماذج من هذه العبودية في أيام بني أمية وبني العباس .

غير أن الموضوع الذي تبسط في نواحيه كل التبسط انما هو موضوع اللهو والتبذير وسنشهد في هذا الفصل غرائب الأمور وعجائبها .

وقد يكون الفصل الذي سميته : الغناء في القصور، تتمة فصل اللهو والتبذير

فقد فصّل لنا أبو الفرج في أغانيه ميل بعض الخلفاء الى الغناء وعمل هذا الغناء في قلوبهم ، ثم تكلم على ضعف ذوق أهل الشام في الغناء .

وقد تكون أخبار الحج التي رواها أبو الفرج من غرائب الأخبار .

وبعد هذه الفصول كلها لابد من التعرض لشيء من محاكمات التاريخ فأوازن بين دفاع ابن خلدون عن الرشيد والمأمون وبين أخبار أبي الفرج في معاقرتها للخمر .

ثم اختم هذه الفصول كلها بالكلام على شيء من النقد الأدبي في كتاب الأغاني وعلى لغة صاحبه وفنه ، وقد تجلى لنا عبقرية أبي الفرج في هذه اللغة وهذا الفن .

❀❀❀

هذه جملة الموضوعات التي تخيرت الاشارة اليها في هذا الكتاب . اني لا أرمي الى تلخيص كتاب الأغاني ولا الى تنسيقه وانما عمدت الى طائفة من الأخبار ، فجمعت شتيتها وألفت بينها حتى أستخرج منها نمطاً من الحياة في أيام بني أمية وبني العباس ، ولم أتوخ في هذا كله شيئاً من الاستقصاء فقد تفوتني موضوعات لم أشر اليها ولا أرى بأساً بذلك ، لأن غايتي التنبيه على قدر كتاب الأغاني والحث على الشعور بمحاسنه فاذا أدركت بعض هذه الغاية فقد بلغت الى ما أريد .

ان دراسة الأغاني على هذا الوجه تهيء لنا مادة غزيرة نستعين بها على تنسيق تاريخنا لأن هذا التاريخ لا يزال فوضى، فاذا رجعنا الى مصادره الكبيرة أمثال تاريخ الطبري أو ابن الأثير أو المسعودي أوغير ذلك فانّا نجد المؤرخين لم يكشفوا لنا من حياة الخلفاء والأمراء والعمال الا ماله صلة بحوادث النهار فقد صوروا لنا فتوحاتهم ومغازيهم وسياستهم ولكنهم سكتوا عن حياة الليل ، فلم نعرف شيئاً عما كان يجري في قصورهم . أما أبو الفرج فقد دخل عليهم قصورهم في الليل فوصف كل مااتصل به علمه في هذه القصور وعلى هذا الشكل مهد لنا سبيلا الى وصل حياتهم في النهار بحياتهم في الليل . وكل من هذين النوعين يتمم الآخر .

فاذا جعلنا كتاب الأغاني موضوع دراساتنا فلا غرابة في ذلك فليس همنا

تلخيص أخباره على اختلاف موضوعاتها وانما همنا أن نستخرج منها مادة نستعين بها على فهم حياتنا في الماضي .

لقد اطلعنا على أشياء كثيرة في هذا الكتاب ولكنا لا نزال حائرين في أمره ، أصحيح أنّ أبا الفرج لم يرم في تأليف كتابه الا الى جمع ما حضره وأمكنه جمعه من الأغاني العربية قديمها وحديثها ، فما هذه الآثار والأخبار والسير والأشعار المتصلة بأيام العرب المشهورة وأخبارها المأثورة وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الاسلام ، فهل تستر بجمع الأغاني تستراً حتى يبلغ الى ما بلغ اليه من كشف الغطاء عن أنماط من الحياة لولا معرفتنا اياها لفاتنا كثير من تأريخنا ، ولكن لماذا هذا التستر ، فلو كانت الأذواق في عصره لاتألف هذا النحو من الأخبار التي رواها لوصل الينا شيء من استنكارها ، فالذي نراه أن أبا الفرج ألف كتابه في عصر كانت روحه مناسبة لروح تأليف هذا الكتاب ولو وقع شيء من تنافر الروحين لتناهى الينا أمره .

ولكن لماذا روى أبو الفرج أخباره ولم يعلق عليها ، لماذا روى هذه الأخبار وترك للقارىء حرية تدبرها ، أفكان يخشى شيئاً من صولة السلطان .

هذه أمور نمر بها ولا نرى لها ايضاحا ، لقد عمد أبو الفرج الى أنواع من الأخبار لم يعمد اليها غيره ، انه لما تكلم على لهو بعض الخلفاء وتبذيرهم وترفهم تكلم على أشياء مخفية فكان همه أن يدخل قصور الخلفاء ويسمع بأذنيه مايتساقطونه من الأحاديث ويرى بعينيه منازل الجواري والقيان والمغنيات من قلوبهم فكأن له نزعة خاصة الى أشباه هذه الأخبار حتى يُعلم الناس بما يجري في قصور خلفائهم وأمرائهم وعمالهم وحتى يُطلعهم على أمور تذهب بكل هيبة وبكل حرمة ، فاذا كانت غايته ما أشرت اليه فلا شك في أن فضله عظيم ، فقد نبه الأذهان على أمور كانت غافلة عنها ، والخلاصة اذا رمى في تأليف كتابه الى بعض ما ذكرته فكأنه أراد أن يستثير العصور على شكل من الحياة ، وقد آن لنا أن نعرف مرامي أبي الفرج وأن

نبحث عنها ولم يقتصر في « أغانيه » على أخبار الخلفاء وحدهم وانما كان اذا روى أخباراً لها صلة بحرية الناس وعبوديتهم روى من هذه الأخبار ما يقوي الميل الى هذه الحرية والنفرة من هذه العبودية وقد اطلعنا على مظاهر الحرية وعلى مظاهر العبودية فوجدنا من هذه الحرية ما لا نجده في أعرق الامم فيها عصرنا هذا ، ووجدنا من هذه العبودية ما لا نجده في أشد الامم نزعة الى الاستعباد وكذلك كان اذا وصف لنا مواكب الحج فكأنه كان يريد أن يقول لنا اذا حج الناس فلا يحج كلهم مرضاة لله تعالى وانما كانت تجري أمور في مواسم الحج لا تجري في غير المواسم ، كان همه في كل ذلك أن يدلنا على حقيقة الحياة في تلك العصور حتى نراها بأعيننا ونسمعها بآذاننا ونلمسها بأيدينا .

❀❀❀

أبو الفرج الأصبهاني

أرى قبل أن أخوض في الكلام على كتاب الأغاني ان أتكلم على صاحب الأغاني نفسه، إلا أني لا أريد ان أرجع الى الكتب التي اشتملت على ترجمة أبي الفرج الأصبهاني ، ولا سيما كتاب معجم الأدباء ، وانما أريد ان أستخرج من كتاب الأغاني نماذج من ثقافة الأسرة التي نشأ فيها أبو الفرج ، ومن طبائعه وأخلاقه ، وأختم هـذا كله ببعض القول في التشيع الذي ينسب اليه وفي الشعوبية التي يُتهم بها .

نشأ أبو الفرج في بيت يذوق أهله الأدب ويجعلونه أحاديثهم فقد روى بيتين من الشعر لأبي نجدة واسمه لجيم بن سعد ، شاعر من بني عجل وهما :(١)

يابن الذين سما كسرى لجمعهم ... فجللوا وجهه قاراً بذي قار

دوخ خراسان بالجرد العتاق وبالـ ... ـبيض الرقاق بأيدي كل مسعار

ثم قال : وكان أبو نجدة هذا مع أحمد بن عبد العزيز بن دلف بن أبي دلف منقطعاً اليه وكان سبب قوله هذا الشعر أن قائداً من قواد أحمد بن عبد العزيز التجأ الى عمرو بن الليث وهو يومئذ بخراسان فغم ذلك أحمد وأقلقه فدخل عليه أبو نجدة فأنشده هذين البيتين وبعدهما :

يامن تيمم عمراً يستجير به ... أما سمعت ببيت فيه سيار

المستجير بعمرو عند كربته ... كالمستجير من الرمضاء بالنار

فسر أحمد بذلك وسري عنه وأمر لأبي نجدة بجائزة وختم هـذا الخبر بقوله: سمعت أبا علي محمد بن المرزبان يحدث أبي رحمه الله بهذا على سبيل المذاكرة وكانت بيننا وبين آل المرزبان مودة قديمة وصهر .

(١) الجزء ٢٠ الصفحة ١٣١

ثم روى خبراً آخر فقال(١) .

أخبرني عمي قال : حدثني أبي قال : سمعت محمد بن عبد الملك الزيات يقول : أشعر الناس طرا الذي يقول :

وما أبالي وخير القول أصدقه حقنت لي ماء وجهي أو حقنت دمي

فأحببت ان أستثبت إبراهيم بن العباس وكان في نفسي أعلمَ من محمد وآدب ، فجلست اليه وكنت أجري عنده مجرى الولد ، فقلت له : من أشعر أهل زماننا هذا ، فقال : الذي يقول

مطر أبوك أبو أهلة وائل ملأ البسيطة عدة وعديدا

نسب كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عمودا

ورثوا الأبوّة والحظوظ فأصبحوا جمعوا جدوداً في العلى وجدودا

فاتفقا على أن أبا تمام أشعر أهل زمانه .

في هذين الخبرين الصغيرين مايدل على نوع من الأحاديث التي كان يتساقطها أهل أبي الفرج في بيتهم ، وهي أحاديث تتصل بالأدب .

١) وكما نشأ في بيت يتصل أهله بالأدب ، فقد نشأ في بيت يتصل أهله بالغناء ، قال في أخبار جميلة(٢) .

وحدثتني عمتي ، وكانت أسنّ من أبي ، وعمرت بعده ، قالت : كان السبب في طلب أبيك الغناء والمواظبة عليه لحناً سمعه لجميلة في منزل يونس بن محمد الكاتب ، فانصرف وهو كئيب حزين مغموم ، لم يطعم ولم يقبل علينا بوجهه كما كان يفعل ، فسألته عن السبب ، فأمسك ، فألححت عليه ، فانتهرني وكان لي مكرما ، فغضبت وقمت من ذلك المجلس الى بيت آخر ، فتبعني وترضاني وقال لي أحدثك ولا كتمان منك ، عشقت صوتاً لامرأة قد ماتت ، فأنا بها وبصوتها هائم إن لم يتداركني الله

(١) الجزء ١٥ الصفحة ٩٦

(٢) الجزء ٧ الصفحة ١٣٣

منه برحمته ، فقالت: أتظن أن الله يُحيي لك ميتا ، قال : بل لا أشك ، قالت : فما تعليقك قلبك بما لا يعطاه الا نبي ، ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، وأما عشقك الصوت فهو أن تحذقه وتغنيه عشر مرار ، فتمله ويذهب عشقك له ، فكأنه ارعوى ورجع الى نفسه ، وقام فقبل رأسي ويدي ورجلي ، وقال لي : فرّجت عني ما كنت فيه من الكرب والغم ، ثم تمثل : حبك الشيء يعمي ويصم ، ولزم بيت يونس حتى حذق الصوت ولم يمكث الا زمنا يسيراً حتى مات يونس وانضم الى سياطٍ وكان من أحذق أهل زمانه بالغناء وأحسنهم أداءً عمن مضى .

ففي هذا الخبر اشارة الى معرفة والد أبي الفرج بالغناء وفي تتمته اشارة الى ذوق عمته في الغناء ، وهذه هي التتمة :

قالت عمتي : فقلت لابراهيم : وما الصوت ، فأنشدني الشعر ولم يحسن اداء الغناء

من البَكَرات عراقية | تُسمَّى سُبَيْعَةَ أطريتها
من آل أبي بَكْرة الأكرمين | خَصَصْتُ بودي فأصفيتُها
ومن حبّها زرتُ أهلَ العراق | وأسخطتُ أهلي وأرضيتها
أموت إذا شَحَطَتْ دارُها | وأحيا إذا أنا لاقيتُها
فأقسِمُ لوْ أنّ مابي بها | وكنتُ الطبيبَ لداويتها

قالت عمتي : هذا شعر حسن، فكيف به إذا قُطِّع ومُدِّد تمديد الأطربة وضرب عليها بقُضبان الدِفلى على بطون المِعْزى .

فان قولاً مثل هذا القول يفصح عن ذوق في الشعر والموسيقى معاً .

أمّا طول باع أبي الفرج في الغناء فهذا أمر يؤيّده تأليفه فيه؛ من ذلك رسالته إلى بعض إخوانه في علل النغم . وقد أشار اليها في الأغاني[1]، ولا أحِبُّ أن أذكر شيئاً غير ما ذكر في الأغاني ، ومن ذلك دخوله في المناظرات والمجادلات والمراسلات والمشافهات التي كانت تجري بين أئمة المغنين ، وآراؤه في هذا المعنى مبثوثة في أضعاف كتاب الأغاني .

---

(١) الجزء ٨ الصفحة ٢٥

هذا شيء من أحاديث الأسرة التي ترعرع فيها أبو الفرج الأصبهاني ، ومن طلب بعضها الغناء والمواظبة عليه ، فاذا كان أبو الفرج إماماً في الأدب والغناء ، فلم يك بيته غريباً عنهما .

أما ظَرْفه وميله إلى النوادر فهذا أمر مشهور ، ونجد الهزل مستفيضاً في كتاب الأغاني من البدء إلى النهاية ، وما أظن أن بي حاجة إلى التنبيه على آثار هذا الهزل ، فكتاب الأغاني مملوء بالنوادر .

وإذا انتقلت من الكلام على ظرفه الى الكلام على بعض أخلاقه وجدنا في هذه الأخلاق كثيراً من المسامحة والانصاف وأدب النفس وغير ذلك ، وقد تهمنا معرفة هذه الأخلاق لصلتها القوية برواياته ، لأنّ كتاب الأغاني مبني على الروايات والأسانيد .

فمن أخلاقه انه لا يجعل لأخلاق أهل الفن صلة بنقد فنهم ، فاذا ذكر طائفة سيئة من أخلاق بعض الشعراء فانه يفصلها عن شعرهم ولا يجعل لها تأثيراً في نقد هذا الشعر .

من هذا النحو رواية خبر في كلامه على الأحوص ، فقد روى هذا الخبر بأسانيده فقال(١) :

بعث يزيد بن عبد الملك حين قتل يزيد بن المهلب في الشعراء ، فأمر بهجاء يزيد بن المهلب ، منهم الفرزدق و كثيّر والأحوص ، فقال الفرزدق : لقد امتدحت بني المهلب بمدائح ما امتدحت بمثلها أحداً ، وإنه لقبيح بمثلي أن يكذب نفسه على كبر السن ، فليعفني أمير المؤمنين ، قال فأعفاه ، وقال كثيّر : إني أكره أن أعرض نفسي لشعراء أهل العراق إن هجوت بني المهلب ، وأما الأحوص فانه هجاهم ، ثم بعث به يزيد بن عبد الملك إلى الجراح بن عبد الله الحكمي وهو بأذربيجان وقد كان بلغ الجراح هجاء الأحوص بني المهلب ، فبعث اليه بزق من خمر ، فأدخل منزل الأحوص ثم بعث اليه خيلا فدخلت منزله ، فصبّوا الخمر على رأسه ، ثم

---

(١) الجزء ٤ الصفحة ٥٢

أخرجوه على رؤوس الناس فأتوا به الجراح فأمر بحلق رأسه ولحيته وضربه الحد بين أوجه الرجال وهو يقول : ليس هكذا تضرب الحدود ، فجعل الجراح يقول : أجل ، ولكن لما تعلم! ثم كتب الى يزيد بن عبد الملك يعتذر ، فأغضى له عليها .

قال أبو الفرج بعد رواية هذا الخبر :

وليس ماجرى من ذكر الأحوص ارادة للغض منه في شعره ، ولكنا ذكرنا من كل مايؤثر عنه ماتعرف به حاله من تقدم وتأخر ، وفضيلة ونقص ، فأما تفضيله وتقدمه في الشعر فمتعالم مشهور ، وشعره ينبئ عن نفسه ، ويدل على فضله فيه وتقدمه وحسن رونقه وتهذبه وصفائه .

هذا كلام غاية في نزاهة النقد ، يكاد يكون المثل الأعلى في هذا الباب وخاصة في عصر مثل عصرنا ، تعوّد اكثر الناس فيه أن يكون حكمهم على رجل من رجال الفن مبنياً على قدر محبتهم اياه ، أو بغضهم له ، ينظرون الى من قال لا الى ماقيل فيطمسون الحسنات ، وينقّبون عن السيئات ، يذكر أبو الفرج ماروى عن الشاعر مما يعتقده الناس تأخراً ونقصاً ، ثم لايغفل في هذا كله عن الشهادة له بحسن رونق شعره وصفائه اذا كان جديراً بمثل هذه الشهادة ، فلا يجعل للنقص سبيلا الى الغض من فضيلة الشعر .

ولم يكن أبو الفرج أقل انصافاً لأبي تمام منه للأحوص لما قال :(١) وفي عصرنا هذا من يتعصب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف ، وأقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ، ويستعملون القحة والمكابرة في ذلك ، ليقول الجاهل بهم انهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزه الا بأدب فاضل وعلم ثاقب وهذا مما يتكسب به كثير من أهل هذا الدهر . ويجعلونه وما جرى مجراه من ثلب الناس وطلب معايبهم سبباً للترفع وطلباً للرياسة .

هذا هو الانصاف في النقد ، وقد كان يجب علي أن أؤجل هذا الكلام الى

---

(١) الجزء ١٥ الصفحة ٩٦

حين الكلام على نقده الأدبي أو على مناقشاته في رواياته، ولكني اضطررت الى ذكره في مثل هذا المقام لدلالته على بعض أخلاقه، ففي هذا النمط من الكلام منتهى الانصاف، فأبو الفرج ناقد نزيه يقف في حكمه موقفاً وسطاً لايتعصب على أحد ولا يتعصب لأحد، ولكنه يتوخى الحق، وقوله هذا الذي ذكرته دليل على أنه عالم نفسي، يراقب الناس في أخلاقهم، ثم يشرحها ويبسطها ويبين العلل والأسباب فيها، فاذا ثلب ناس ناساً وطلبوا معايبهم فانما يفعلون هذا وأشباهه طلباً للرياسة وسبباً للترفع.

وقد استمرّ في هذه الاخلاق لما تولّى الدفاع عن ابن المعتز، فقال:(١)

ولكن قوماً أرادوا أن يرفعوا أنفسهم الوضيعة ويُشيدوا بذكرهم الخامل، ويعلوا أقدارهم الساقطة بالطعن على أهل الفضل والقدح فيهم، فلا يزدادون بذلك الاّ ضعة ولا يزداد الآخر إلا إرتفاعاً ألا ترى الى ابن المعتز قد قتل أسوأ قتلة ودرج، فلم يبق له خلف يقرظه ولا عقب يرفع منه، وما يزداد بأدبه وشعره وفضله وحسن أخباره وتصرفه في كل فن من العلوم الا رفعةً وعلواً ولا نظر الى أضداده كلما ازدادوا في طعنه وتقريظ أنفسهم وأسلافهم الذين كانوا مثلهم في ثلبه والطعن عليه الا ازدادوا سقوطاً وضعة وكلما وصفوا أشعارهم وقرظوا آدابهم إزدادوا بها ثقلاً ومقتاً، فاذا وقع عليهم المحصل الموافق عدلوا عن ثلبه في الآداب الى التشنيع عليه بأمر الدين وهجاء آل أبي طالب، وهم أول من فعل ذلك وشنّع به على آل أبي طالب عند المكتفي حتى نهاهم عنه فعدلوا عن عيب أنفسهم بذلك الى عيبه وارتكبوا أكثر منه.

واذا تمنّيت شيئاً في هذا الدفاع فاني أتمنى أن يخلو من صفات قد تكون جافية مثل هذه الصفات: أنفسهم الوضيعة وأقدارهم الساقطة.

الاّ أن دفاعه عن ابن المعتز لم يمنعه عن الاشارة الى تحامل من يحكي عنه ابن المعتز في بعض الأحيان، فكأنه طبع على التجرد والانصاف، يأخذ الحق أين يلتقطه ويبحث عنه في مظانّه.

---

(١) الجزء ٩ الصفحة ١٣٤

فأنه لما تكلم على عريب المغنية(١) ذكر الذين قالوا فيها ان غناءها ألف صوت في معنى واحد ، فهي بمنزلة صوت واحد ، وأرادوا بهذا القول الطعن عليها ، فقال أبو الفرج في الدفاع عنها :

وحكى أيضاً هذه الحكاية عنه ابن المعتز ، وهذا تحامل لايحل ، ولعمري ان في صنعتها لأشياء مرذولة ليّنة ، وليس ذلك مما يضعها ولا عري كبير أحد من المغنين القدماء والمتأخرين من أن يكون في صنعته النادر والمتوسط ، سوى قوم معدودين ، مثل ابن مُحْرِز ومعبد في القدماء ومثل إسحق وحده في المتأخرين وقد عيب بمثل هذا ابن سريج في محله فبلغه ان المغنين يقولون : إنما يغني ابن سريج الأرمال والخفاف ، وغناؤه يصلح للأعراس والولائم فبلغه ذلك فتغنى بقوله:

لقد حببت نُعم الينا بوجهها   مساكن مابين الوتائر فالنقع

ثم تُوفّي بعدها ، وغناؤه يجري مجرى المعيب عليه ، وهذا اسحق يقول في أبيه على عظيم محله في هذه الصناعة ، وماكان إسحق يُشيد به من ذكره وتفضيله على ابن جامع وغيره : لأبي ستمائة صوت ، منها مائتان تُشبه فيها بالقديم وأتى بها في نهاية من الجودة ، ومائتان غناء وسط ، مثل أغاني سائر الناس ، ومائتان فلسية وددت انه لم يظهرها وينسبها لنفسه ، فأسترَها عليه ، فاذا كان هذاقول اسحق في أبيه فمن يعتذر بعده من أن يكون له جيد ورديء ، وماعري أحد في صناعة من الصناعات من حال ينقصه عن الغاية لأن الكمال شيء تفرد الله العظيم به ، والنقصان جبلة طبع بنو آدم عليها وليس ذلك اذا وجد في بعض أغاني عريب مما يدعو الى اسقاط سائرها ويلزمه اسم الضعف واللين .

وبلغ من انصافه انه لما ذكر كعب بن الأشرف لم يخسه حقه على يهوديته وعلى عداوته للنبي صلى الله عليه وسلم فقال :(٢)

وكان شاعراً فارساً وله مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره في الحروب التي كانت بين الأوس والخزرج تذكر في مواضعها ان شاء الله تعالى وهو شاعر من

(١) الجزء ١٨ الصفحه ١٧٦
(٢) الجزء ١٩ الصفحة ١٠٦

شعراء اليهود فحل فصيح وكان عدواً للنبي صلى الله عليه وسلم يهجو أصحابه ويخذل منه العرب فبعث النبي صلى الله عليه وسلم نفراً من أصحابه فقتلوه في داره.

فلا ريب في أن الاشادة بفحولة شعره وبفصاحته دليل على نزاهته وانصافه.

وآخر ما أستشهد به في هذا الباب كلام له على جحظة، فانه لما تكلم على أحمد النُّصيبي صاحب الأنصاب وأول من غنى بها قال: (١)

وذكره جحظة في كتاب الطنبوريين، فأتى من ذكره بشيء ليس من جنس أخباره ولا زمانه، وثلبه فيما ذكره، وكان مذهبه، عفا الله عنا وعنه، في هذا الكتاب، ان يثلب جميع من ذكره من أهل صناعته بأقبح ما قدر عليه، وكان يجب عليه ضد هذا لأن من انتسب الى صناعة ثم ذكر متقدمي أهلها كان الأجمل به أن يذكر محاسن أخبارهم وظريف قصصهم ومليح ما عرفه منهم لا أن يثلبهم بما لا يعلم وما يعلم.

لقد أحطنا بيسير من أخلاق أبي الفرج في الانصاف والنزاهة والتجرد وأدب النفس ونحوها.

بقيت مسئلة تشيعه، وهذه مسئلة جليلة اصلتها بصحة رواياته، ليست غايتي الكلام على الشيعة فقد أفاض في هذا الكلام صاحب الملل والنحل، وفصله تفصيلاً، وذكر فِرقَ الشيعة، فليس لهذا كله صلة بالموضوع الذي أعالجه في هذا المقام، وإنما إذا تعرضت لتشيع أبي الفرج في كتاب الأغاني فانما أتعرض له للبحث عن آثار هذا التشيع وعواقبه في أخباره ورواياته وأحاديثه وما شابه ذلك، فان الذين ينسبون التشيع اليه لا يقتصرون على مشايعته لعلي رضي الله تعالى عنه أو لذريته وإنما يريدون بذلك أنه غير ثقة في الأخبار التي يرويها عن الذين انحرفوا عن علي وحزبه وقاتلوهم كبني أمية مثلاً أو كبني العباس الذين قاتلوا الطالبيين.

فاذا كان هذا هو المراد بتشيع أبي الفرج وكنت لا أجد في رواياته أثر التعصب في هذا التشيع فقد لزمني أن أفتش في كتاب الأغاني عن المواطن التي ظهر فيها تجرد أبي الفرج في نقل أخبار طائفة من خلفاء بني أمية ولاسيما يزيد بن معاوية،

---

(١) الجزء الخامس الصفحة ١٥٣.

فان تشيع أبي الفرج يقتضيه التحامل عليه أو الغض منه ومن حسناته أو الغلو في ذكر سيئاته ، فاذا كان أبو الفرج متجرداً في رواياته المتعلقة ببعض خلفاء بني أمية فلا شك في أن تشيعه الذي نسب اليه لم يؤثر في هذه الروايات ولا طوى من حسنات المنحرفين عن علي ولا زوّر سيئات عليهم ، معنى هذا كله أنه كان ثقةً في أخباره يحاسب ضميره ووجدانه ، يقول الحق على جماعته وعلى عدوه على السواء .

وهذا كل مايعنينا من أمره ، أما تشيعه فانّا لا نحاسبه على معتقداته فالمرء حر في آرائه على شرط واحد ، على أن لا تدخل هذه الحرية الضيم على أخباره ورواياته وأحاديثه .

لقد اطلعت على أخبار رواها أبو الفرج في أغانيه لا تدل على شيء من التعصب على خصوم علي ، وحسبي ذكر هذه الأخبار فاني أرى فيها حجة لنزاهته وإنصافه في التشيع ، كيف ننسب إلى التعصب في التشيع رجلاً يروي عن عبيد الله بن زياد أحسن الأخبار فيقول[1] :

أخبرني محمد بن يحيى قال: حدثنا محمد بن زكريا قال : حدثنا محمد بن معاوية الزيادي عن القحذمي قال : كان حارثة بن بدر فصيحاً بليغاً عارفاً بأخبار الناس وأيامهم حلواً شاعراً ذا فكاهة ، فكان زياد يأنس به طول حياته فلما مات وولي عبيد الله ابنه كان يجفوه ، فدخل اليه في جمهور الناس فجلس متوارياً منه حتى خف الناس ثم قام فأذكره بحقوقه على زياد وانسه به فقال له : ما أعرفني بما قلت، غير أن أبي كان قد عرفه الناس وعرفوا سيرته فلم يكن يلصق به من أهل الريبة مثل ما يلحقني مع الشباب وقرب العهد بالأمارة فأما إن قلت ما قلت فاختر مجالستي إن شئت ليلاً وإن شئت نهاراً فقال : الليل أحب إلي ، فكان يدعوه ليلاً فيسامره فلما عرفه استحلاه فغلب عليه ليله ونهاره حتى كان يغيب فيبعث من يحضره فجاء ليلةً وبوجهه آثار فقال له : ما هذا ياحار ، قال : ركبت فرسي الأشقر فلجّج

---

(١) الجزء ٢١ الصفحة ٢٥

بي مضيقاً فسحجني ، قال : لكنك لو ركبت أحد الأشهبين لم يصبك شيء من هذا ، يعني اللبن والماء !

ثم يروي خبراً آخر عنه فيقول(١) :

أخبرني الحسين بن يحيى عن حماد عن أبيه عن أبي عبيدة أن عبيد الله بن زياد استعمل حارثة بن بدر على نيسابور فغاب عنه أشهراً ثم قدم فدخل عليه فقال له : ما جاء بك ولم أكتب اليك ، قال : استنظفت خراجك وجئت به وليس لي عمل ، فما مقامي ، قال : أو بذلك أمرتك ، إرجع فاردد عليهم الخراج وخذه منه نجوماً حتى تنقضي السنة وقد فرغت من ذلك فانه أرفق بالرعية وبك وأحذر أن تحملهم على بيع غلاّتهم ومواشيهم ولا التعنيف عليهم ، فرجع فردّ الخراج عليهم وأقام يستخرجه منهم نجوماً حتى مضت السنة .

ثم يثبت شعراً في مدح زياد قاله حارثة بن بدر(٢) :

إن الرزية في قبر بمنزلة	تجري عليها بظهر الكوفة المور
أدت اليه قريش نعش سيدها	ففيه ضافي الندى والحزم مقبور
أبا المغيرة ، والدنيا مغيِّرة	وإن من غرّ بالدنيا لمغرور
قد كان عندك للمعروف معرفة	وكان عندك للنكراء تنكير
وكنت تؤتى فتعطي الخير عن سعة	فاليوم بابك دون الهجر مهجور
ولا تلين إذا عوسرت مقتسراً	وكل أمرك ما يوسرت ميسور

ثم يروي مدح أبي صخر الهذلي لبني أمية وقد منعه ابن الزبير عطاءه وقال له: عليك بني أمية ! فاطلب عندهم عطاءك ، فقال أبو صخر(٣) :

إذاً أجدهم سباطاً أكفهم ، سمحة أنفسهم ، بذلاء لأموالهم ، وهابين لمجتديهم

---

(١) الجزء ٢١ الصفحة ٢٧

(٢) الجزء ٢١ الصفحة ١٩

(٣) الجزء ٢١ الصفحة ٩٤

كريمة أعراقهم ، شريفة أصولهم ، زاكية فروعهم ، قريباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم نسبهم وسببهم ، ليسوا إذا نسبوا بأذناب ولا وسائط ولا أتباع ، ولا هم في قريش كفقعة القاع ، لهم السؤدد في الجاهلية والملك في الاسلام، لا كمن لا يعد في عيرها ولا نفيرها ولا حكم أباؤه في نقيرها ولا قطميرها ، ليس من أحلافها المطيبين ولا من ساداتها المطعمين ولا من جودائها الوهابين ولا من هاشمها المنتخبين ولا عبد شمسها المسودين وكيف تقاتل الرؤوس بالأذناب وأين النصل من الجفن والسنان من الزج والذنابى من القدامى وكيف يفضل الشحيح على الجواد والسوقة على الملك والجامع بخلاً على المطعم فضلاً ، فغضب ابن الزبير حتى ارتعدت فرائصه وعرق جبينه واهتز من قرنه إلى قدمه وامتقع لونه .

إن من يروي أخباراً من هذا القبيل تصور عقل عبيد الله بن زياد الراجح وتصف رفقه بالرعية وتفصح عن فضائل أبيه زياد وتضع بني أمية في هـذا الموضع الرفيع ، إن من يعف هذه العفة في رواية أخباره لا يقال فيه أنه متعصب في تشيعه .

ولم يقتصر أبو الفرج على الاشارة إلى محاسن عبيد الله بن زياد والاشادة بمكارم بنى أمية على وجهٍ عام ، وإنما خصَّص بعد التعميم فقال في فضل يزيد بن معاوية(١) :

أخبرني الحسين بن يحيى عن حماد عن أبيه قال : حدثني غير واحد من الرواة عن صالح بن حسان قال : أخبرني نافع مولى عبد الله بن جعفر وما رأيت أحداً قط كان أشكل ظرفاً ولا أزين في مجلس ولا أحسن غناءً منه ، قال: قدمنا مع عبدالله ابن جعفر مرة على معاوية ، فأرسل إليَّ يزيد يدعوني ليلا ، فقلت : أكره أن يعلم أمير المؤمنين مكاني عندك فيشكوني إلى ابن جعفر قال : فأمهلْ حتى إذا سمر أمير المؤمنين فان ابن جعفر يكون معه فلا يفتقدك ونخلو نحن بما نريد قبل قيامها

---

(١) الجزء ٧ الصفحة ٩٨

فأتيته فغنيته فوالله ما رأيت فتىً أشرف أريحيةً منه ، والله لا ألقى عليَّ من الكُسا الخز والوشي وغيره ما لم أستطع حمله ، ثم أمر لي بخمسمائة دينار ، قال وذهب بنا الحديث وما كنا فيه حتى قام معاوية ونهض ابن جعفر معه وكان باب يزيد في سقيفة معاوية فسمع صوتي ، فقال لابن جعفر : ماهذا يا ابن جعفر ، قال : هذا والله صوت نافع فدخل علينا فلما أحس به يزيد تناوم ، فقال له معاوية : مالك يابني ! قال: صُدّعت فرجوت أن يسكن عني بصوت هذا ، قال : فتبسم معاوية وقال : يا نافع ! ما كان أغنانا عن قدومك ، فقال له ابن جعفر : ياأمير المؤمنين، إن هذا في بعض الأحايين يذكر القلب ، قال : فضحك معاوية وانصرف، فقال لي ابن جعفر : ويلك ، هل شرب شيئاً ، قلت : لا والله ، قال : والله إني لأرجو أن يكون من فتيان عبد مناف الذين يُنتفع بهم .

فهل نستطيع بعد أن حكى أبو الفرج عن رجل مثل ابن جعفر خبراً مثل هذا الخبر يتعلق بفضل يزيد بن معاوية أن نقول إن أبا الفرج تحامل على خصوم علي .

وكما روى أخباراً تتصل بمحاسن يزيد بن معاوية فقد روى أخباراً تتصل بمحاسن هشام ، فانه لما تكلم على حماد الراوية(١) ذكر ان هشاماً أمر بدعوة حماد الى دمشق فلما جاء دمشق وحضر مجلس هشام أمر هشام جارية بأن تسقي حماداً في مجلسه ثم ذكر خبراً آخر يدل على انه لم يسق شيئاً ، فقال أبو الفرج بعد هاتين الروايتين :

وهذا هو الصحيح ، أي لم يسق هشام حماداً شيئاً ،لأن هشاماً لم يكن يشرب ولا يسقي أحداً بحضرته مسكراً وكان ينكر ذلك ويعيبه ويعاقب عليه .

فلو كان أبو الفرج متحاملا على خصوم علي لا قتصر على الرواية الاولى التي تصور مجالس هشام وتصف الشرب فيها ، ولأهمل الرواية الثانية التي تدل على أن هشاماً لم يكن يشرب وكان ينكر الشراب ويعاقب عليه .

---

(١) الجزء ٥ الصفحة ١٥٩

وكما ذكر محاسن يزيد وهشام فكذلك ذكر محاسن الوليد بن يزيد التي شهد بها أحد خلفاء بني العباس . قال أبو الفرج :(١) أخبرني محمد بن يحيى الصولي قال: حدثنا الغلابي قال : حدثنا العلاء بن سُويد المِنْقَري قال : ذكر ليلة المهدي أمير المؤمنين الوليد بن يزيد فقال : كان ظريفاً أديباً ، فقال له شبيب بن شَيبة : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن لا تجري ذكره على سمعك ولسانك فافعل ، فانه كان زنديقاً، فقال : أسكت ! فما كان الله ليضع خلافته عند من يكفر به ، هكذا رواه الصولي وقد أخبرنا به أحمد بن عبد العزيز إجازة قال : حدثنا عمر بن شبة قال : أخبرنا عقيل عن عمرو قال : أخبرني شبيب بن شيبة عن أبيه قال : كنا جلوساً عند المهدي فذكروا الوليد بن يزيد فقال المهدي : أحسبه كان زنديقاً، فقام ابن عُلاثة الفقيه فقال : يا أمير المؤمنين ! الله عزّ وجل أعظم من أن يولي خلافة النبوّة وأمر الأمة من لا يؤمن بالله ، لقد أخبرني من كان يشهده في ملاعبه وشربه عنه بمروأة في طهارته وصلاته .

وحدثني أنه كان إذا حضرت الصلاة يطرح ثياباً كانت عليه من مطيبة ومصبغة ، ثم يتوضأ فيحسن الوُضوء ويؤتى بثياب بيض نظاف من ثياب الخلافة فيصلي فيها أحسن صلاة بأحسن قراءة وأحسن سكوت وسكون وركوع وسجود فاذا فرغ عاد إلى تلك الثياب التي كانت عليه قبل ذلك ثم يعود إلى شربه ولهوه ، أفهذه أفعال من لا يؤمن بالله، فقال له المهدي: صدقت، بارك الله عليك يا ابن عُلاثة.

على أنه كان في موطن آخر يقول في الوليد بن يزيد بن عبد الملك(٢) إنه كان من فتيان بني أمية وظرفائهم وشعرائهم وأجوادهم وأشدائهم وكان فاسقاً خليعاً متهماً في دينه مرمياً بالزندقة وشاع ذلك من أمره وظهر حتى أنكره الناس فقتل ،

---

(١) الجزء ٦ الصفحة ١٣٦ .

(٢) الجزء ٦ الصفحة ٩٩ .

وله أشعار كثيرة تدل على خبثه وكفره ، ومن الناس من ينفي ذلك عنه وينكره ويقول إنه نحله وألصق إليه ، والأغلب الأشهر غير ذلك .

فقوله : ومن الناس من ينفي ذلك عنه وينكره دليل على نزاهته في النقل فانه ينقل الأخبار على علاتها حتى لا يفوت القاريء شيء .

ولم يرو الأخبار المقتصرة على فضائل يزيد أو محاسن هشام والوليد بن يزيد وإنما توسع في هذا الباب فروى الأخبار(١) المصورة لمكارم بني أمية كلهم وتفضيلهم على بني العباس، قال :

جاء عبد الله بن عمر بن عبد الله العُقَيْلي إلى سُوَيقة وهو طريد بني العباس ، وذلك بعقب أيام بني أمية وابتداء خروج ملكهم إلى بني العباس فقصده عبد الله والحسن ابنا الحسن بسويقة ، فاستنشده عبد الله شيئاً من شعره ، فقال له: أريد أن تنشدني شيئاً مما رثيت به قومك ، فأنشده :

تقول أُمامة لما رأت	نشوزي عن المضجع الأنفس
وقلة نومي على مضجعي	لدى هجعة الأعين النعَّس
أبي ! ما عراك ، فقلت الهموم	منعن أباك فلا تُبْلسي
عرون أباك فحبّسنه	من الذل في شر ما محبس
لفقد العشيرة إذ نالها	سهام من الحدث المبئِس
رمتها المنون بلا نصَّل	ولا طائشات ولا نكَّس
بأسهمها الخالسات النفوسَ	متى ما اقتضت مهجةً تخلس
فصرعاهم في نواحي البلا	د تُلقى بأرضٍ ولم تُرْمس
كريم أصيب وأثوابه	من العار والذام لم تدنس
وآخر قد طار خوف الردى	وكان الهمام فلم يُحسس
فكم غادروا من بواكي العيو	ن مرضى ومن صبية بؤس
إذا ما ذكرنهمُ لم تنم	لحَرّ الهموم ولم تجلس

(١) الجزء ١٠ الصفحة ١٠٠

يرجعن مثل بكاء الحما م في مأتم قلق المجلس

فذاك الذي غالني فاعلمي ولا تسأليني فتستنحسي

وأشياء قد ضفنني بالبلاد ولست لهن بمستحلس

أفاض المدامع قتلى كدىً وقتلى بكثوة لم ترمس

وقتلى بوجٍ وباللابتين من يثرب خير ما أنفس

وبالزابيين نفوس ثوتْ وقتلى بنهر أبي فطرُس

أولئك قوم تداعتْ بهم نوائب من زمن متعس

أذلت قيادي لمن رامني وألزقت الرغم بالمعطس

فما أنس لا أنسَ قتلاهم ولا عاش بعدهم من نسي !

قال : فلما أتى عليها بكى محمد بن عبد الله بن حسن ، فقال له عمه الحسن بن علي عليهما السلام : أتبكي على بني أمية وأنت تريد ببني العباس ماتريد ، فقال : والله ياعم لقد كنا نقمنا على بني أمية ما نقمنا ، فما بنو العباس إلا أقل خوفاً منهم ، وإن الحجة على بني العباس لأوجب منها عليهم ، ولقد كانت للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبي جعفر ، فوثب حسن وقال : أعوذ بالله من شرك .

فالذي يروي رواية من هذا الشكل فيها شهادة بأخلاق بني أمية ومكارمهم وفواضلهم يشهدها عدوهم نفسه ، لايقال فيه إنه يتعصب على بني أمية ، ان هذه الشهادة تدل على تعصب لبني أمية ، ولو كان أبو الفرج خالياً من روح التجرد والنزاهة في رواياته لطمس مثل هذه الأخبار في كتابه ولكنه أثبتها وأثبت معها القصيدة الفياضة بالعاطفة الأموية ولا يقل عن الأشتمال على مثل هذه العاطفة كلام أبي صخر الهذلي الذي ذكرته من قبل .

وآخر ما أثبته في هذا الباب الخبر الآتي ، فقد تكلم على أبي نُخيلة [1] وهو شاعر أتصل بمسلمة بن عبد الملك فاصطنعه وأحسن اليه وأوصله إلى الخلفاء واحداً

---

(١) الجزء ١٨ الصفحة ١٣٩

بعد واحد، وأستماحهم له فأغنوه وكان بعد ذلك قليل الوفاء لهم ، إنقطع إلى بني هاشم فمدح الخلفاء من بني العباس وهجا بني أمية فأكثر .

فهذا الكلام يدل على إستنكار أبي الفرج لانقلاب أبي نخيلة على بني أمية وعدّ هذا الانقلاب من قلة الوفاء ، فلو كانت غايته نشر مثالب بني أمية لما ذكر قلة الوفاء في هذا الموطن ولمدح أبا نخيلة على ترك بني أمية وانقطاعه إلى بني هاشم.

يستخرج من كل تقدم ان أبا الفرج لم يحاول في تشيعه الذي نسبوه اليه التحامل على بني أمية ، فقد كان يذكر محاسنهم ، كما كان يشير في بعض الأحايين إلى آراء الناس السيئة فيهم .

من هذا القبيل الخبر الذي أثبته بأسانيده عن أبي سفيان(١) وهذا نصه :

لما ولي عثمان الخلافة دخل عليه أبو سفيان فقال : يامعشر بني أمية ، ان الخلافة صارت في تيم وعدي ، حتى طمعت فيها ، وقد صارت اليكم ، فتلقفوها بينكم تلقف الكرة ، فوالله ما من جنة ولا نار ، هـذا أو نحوه ، فصاح به عثمان : قم عني ، فعل الله بك وفعل ، ولأبي سفيان أخبار من هذا الجنس ونحوه كثيرة ، يطول ذكرها .

ومن هذا النحو الخبر المتعلق بالغمر بن يزيد بن عبد الملك وهذا هو:(٢)

أستأذن إسمعيل بن يسار النسائي على الغمر بن يزيد بن عبد الملك يوماً، فحجبه ساعة ، ثم أُذن له ، فدخـل يبكي ، فقال له الغمر : مالك يا أبا قائد تبكي ، قال : وكيف لا أبكي ، وأنا على مروانيتي ومروانية أبي أحجب عنك ، فجعل الغمر يعتذر اليه وهو يبكي ، فما سكت حتى وصله الغمر بجملة لها قدر وخرج من عنده فلحقه رجل فقال له : أخبرني ويلك يا اسمعيل ، أي مروانية كانت لك أو لأبيك قال : بغضنا إياهم ، أمرأته طالق إن لم تكن أمه تلعن مروان وآله كل يوم مكان التـسبيح،

(١) الجزء ٦ الصفحة ٩٦

(٢) الجزء ٤ الصفحة ١١٩

وإن لم يكن أبوه حضره الموت فقيل له : قل لا اله الا الله ، فقال : لعن الله مروان تقرباً بذلك الى الله تعالى وابدالاً له من التوحيد ، وإقامة له مقامه .

فهذه الأخبار كلها تدل على نزاهته وإستقامة مقصده ، فهو مجرد من روح العصبية ، يذكر محاسن الأمور ومقابحها على السواء ، وهذا غاية في التجرد .

على أني أرى في الخبر الآتي مايدل على رأفته ببني أمية ، فقد قال في قتلهم :[١]

أخبرني عمي عن الكراني عن النضر بن عمرو عن المُعَيطي أن أبا العباس دعا بالغداء حين قتلوا وأمر ببساط فبسط عليهم وجلس فوقه يأكل وهم يضطربون تحته فلما فرغ من الأكل قال : ما أعلمني أكلت أكلة قط أهنأ ولا أطيب لنفسي منها ، فلما فرغ قال : جروا بأرجلهم ، فألقوا في الطريق يلعنهم الناس أمواتاً كما لعنوهم أحياء ، قال : فرأيت الكلاب تجر بأرجلهم وعليهم سراويلات الوشي حتى أنتنوا ثم حفرت لهم بئر فألقوا فيها .

على أن أبا الفرج روى عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه خبراً يسيء إليه أكثر مما يحسن وهذا نصه :[٢]

قال الحرث بن حبيش: بعثني سعيد بن العاص بهدايا إلى المدينة وبعثني إلى علي عليه السلام وكتب اليه : أني لم أبعث إلى أحد بأكثر مما بعثت به اليك الأشياء في خزائن أمير المؤمنين ، قال : فأتيت علياً فأخبرته فقال : لشدّ ما تحظر بنو أمية تراث محمد صلى الله عليه وسلم ، أما والله لئن وليتها لانفُضنها نفض القصاّب لوِذام التربة .

ثم نقل الخبر الآتي وهو في معنى الأول فقال : بعث سعيد بن العاص مع أبن أبي عائشة مولاه بصلة إلى علي بن أبي طالب عليه السلام فقال : والله لايزال غلام من غلمان بني أمية يبعث الينا مما أفاء الله على رسوله بمثل قوت الأرملة ، والله لئن بقيتُ لانفضنها نفض القصاب لوِذام التربة .

---

(١) الجزء ٤ الصفحة ٩٣

(٢) الجزء ١١ الصفحة ٢٩ .

فاذا صح هذا الخبر والذي قبله فان رواية أبي الفرج لهما لاتشير إلى شيء من تعصب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وإني أرى أن ذكر هذين الخبرين ليس فيهما خير لعلي لانهما يصوران الإمام عليا في صورة الرجل المتهافت على الخلافة وخرائنها .

وقد روى في بعض مواضع من كتابه خطبة أبي حمزة الخارجي لما بلغه أن أهل المدينة يعيبون أصحابه لحداثة سنهم وخفة أحلامهم ، تعرض أبو حمزة في خطبته للخلفاء الراشدين فوصف سيرة كل واحد منهم فلما بلغ إلى علي قال فيه:(١)

ثم ولي علي بن أبي طالب فلم يبلغ من الحق قصداً ولم يرفع له مناراً ومضى .

فان تدوين عبارة مثل هذه العبارة لايدل على تعصب في التشيع ولو كان أبو الفرج متعصباً لمحا هذه العبارة من أصل الخطبة ولم يثبتها .

والخبر الوحيد الذي رأيت فيه ميلا صريحاً الى علي بن أبي طالب مذكور في أخبار خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كُرْز(٢) ولما وصل أبو الفرج في رواية هذا الخبر الى قول أسد بن كُرْز لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يارسول الله ادع لي ، فقال : اللهم اجعل نصرك ونصر دينك في عقب أسد بن كرز ، قال: وما أدري ما أقول في هذا الحديث ، وأكره أن أكذب بما رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كان دعا له بهذا الدعاء لم يكن أبنه مع معاوية بصفين على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، ولا كان ابنه خالد يلعنه على المنبر وتجاوز ذلك الى ماساء ذكره من شنيع أخباره ، قبحه الله ولعنه ، الا اني أذكر الشيء كما رُوي .

٤) وكما أتهم أبو الفرج بالتعصب في التشيع فقد أتهم بالشعوبية ، قال لي أحد الأساتذة لما علم بعزمي على طبع هذا الكتاب : لاتنس شعوبية صاحبه . الا أني

(١) الجزء ٢٠ الصفحة ١٠٦

(٢) الجزء ١٩ الصفحة ٥٤

لا أرى من عدل الأمور أن ندخل في الشعوبية من يذكر أخبار الأعاجم إذا كان في هذه الأخبار مايستحقون به المدح .

لقد نقل أبو الفرج في كتابه كثيراً من أخبار البرامكة وهي تدل على فرط كرمهم وأدب نفوسهم ، من هذه الأخبار قوله[١].

أخبرني عمي قال : حدثنا الحسين بن عليل العنزي قال : حدثني أحمد بن مهران مولى البرامكة قال : شكا مروان بن أبي حفصة إلى بعض إخوانه تغير الرشيد عليه وإمساك يده عنه فقال له : ويحك ! أتشكو الرشيد بعد ما أعطاك ، قال : أو تعجب من ذلك ، هذا أبان اللاحقي قد أخذ من البرامكة بقصيدة قالها واحدة مثل ما أخذته من الرشيد في دهري كله ، سوى ما أخذه منهم ومن أشباههم بعدها ، وكان أبان نقل للبرامكة كتاب كلية ودمنة فجعله شعراً ليسهل حفظه عليهم وهو معروف فأعطاه يحي بن خالد عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل خمسة آلاف دينار ولم يعطه جعفر شيئاً وقال : ألا يكفيك أن أحفظه فأكون راويتك .

فان أخذ أبان من يحي بن خالد عشرة آلاف دينار وأخذه من الفضل خمسة آلاف دينار لنقله كتاب كليلة ودمنة للبرامكة لأكبر حجة على عناية البرامكة بالأدب وتنشيطهم لأهله ، أفيلام أبو الفرج على تدوينه لأخبارهم اذا كانوا على هذا الشكل من الأخلاق .

وسيمر بنا في فصل اللهو والتبذير أن إسحاق الموصلي مدح البرامكة في حضرة الفضل بن الربيع فغاظ الفضل مدحه لهم فأخبره إسحق بشيء مما فعلوه معه حتى يعذره وروى له الخبر[٢] وفي مطالعة هذا الخبر آية من آيات أدب النفس وقد أشرت الى ذلك في موضعه من هذا الكتاب فان الذي يعطي وليس في عطائه منّ ولا أذى يستوجب المدح، على أن أبا الفرج لم يمدح البرامكة وإنما كان أميناً في

---

(١) الجزء ٢٠ الصفحة ٧٣ .

(٢) الجزء ٥ الصفحة ٦٧

نقل أخبارهم ولا ذنب له في تدوين أخبار تدل على فرط الجود وأدب الخلق .

وقد روى أبو الفرج في كتابه(١) قصة عبد الله بن طاهر مع محمد بن يزيد الأموي قال الأول شعراً فخر فيه بمآثر أبيه وأهله وفخر بقتلهم الأمين وعارضه الثاني فأفرط في السب وتجاوز الحد في قبح الرّد ثم ظفر عبد الله بن طاهر بمحمد بن يزيد الأموي فبدلاً من أن يقتله قال له : أمَّن الله تعالى روعتك وحقن دمك وصان حرمك وحرس نعمتك وعفا عن ذنبك، فما وسع محمد بن يزيد بعد ذلك إلاّ البكاء والاّ القيام وتقبيل رأس ابن طاهر . والقصة تكاد تكون من أروع القصص ولا غنى عن الرجوع اليها في موطنها من كتاب الأغاني .

أفيقال في أبي الفرج إنه شعوبي لأنه ذكر عن عبد الله بن طاهر قصة إذا دلّت على شيء فانها تدل على عفو صدر عن نفس كريمة وخلق سمح .

وكذلك نقل أبو الفرج كلاماً لحسان بن ثابت فيه شيء من الموازنة بين شرب جبلة بن الايهم وهو على الشرك وبين شرب قوم من المسلمين أفيلام أبو الفرج إذا أشاد حسان بحلم جبلة في الشرب وبعده عن الخنى والعربدة وإذا ندّد بشرب مسلم من المسلمين لا يشرب ثلاثة أقداح حتى يصاحب صاحبته ويفارقها وتضرب فيه كما تضرب عزائب الابل فلا ينتهي(٢) .

إذا كان أبو الفرج شعوبياً فلماذا روى خبر وقعة ذي قار(٣) التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم : هـذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نُصروا ولماذا ثبت أقوال بعض الشعراء الذين فخروا بيوم ذي قار .

وإذا جاوزنا جملة هذه الأمور الى بعض التفاصيل فقد نجد في يسير من تراجم أبي الفرج ما يستدل به على انحراف عن أصحاب هذه التراجم ، إنه لما روى أخبار علي بن الجهم روى أقوال من يدفعه عن قريش فقد بلغ بنسب علي بن الجهم سامة

---

(١) الجزء ١١ الصفحة ١٢

(٢) الجزء ١٦ الصفحة ١٤

(٣) الجزء ٢٠ الصفحة ١٣٢

بن لؤي بن غالب ثم قال : هكذا يدعون ، وقريش تدفعهم عن النسب .

ولكنه لم يغفل عن رواية أقوال من يدخلهم في قريش كالزبير بن بكار إلا أنه بعد أن يثبت رواية الزبير يقول : وللزبير في إدخالهم في قريش مذهب وهو مخالفة فعل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه .

وإنه لما أشار الى مذهبه ذكر أقوال من يسمي هذا المذهب مذهب الحشوية ،قال: أخبرني عمي قال : حدثنا محمد بن سعد قال: كان أحمد بن أبي دواد منحرفاً عن علي بن الجهم لاعتقاده مذهب الحشوية(١) .

فأبو الفرج لم يسم مذهب علي بن الجهم مذهب الحشوية وإنما الذي سماه انما هو أحمد بن أبي دواد .

إن أبا الفرج يروي من الأخبار ما يتناهى إليه مما له صلة بقول شعر أو صنع لحن وقد تكون هذه الأخبار متناقضة في بعض الأحوال لأن همه إنما هو إثبات الحقائق ، ولم يكن همه الاستقصاء في الأخبار لأنه لم يؤلف كتاب الأغاني لترتيب طبقات المغنين والشعراء وإنما ألفه لتضمينه ذكر الأغاني بأخبارها وما عليه أن يستقصي في أخبارها كلها وإنما يدوّن من هذه الأخبار ما يصل الى سمعه.

قد يقول في علي بن الجهم إنه شاعر فصيح مطبوع ، ولم يقل فيه إنه فحل ، لاجدال في الأذواق ، فقد نجد في بحثنا عن النقد في كتاب الأغاني قول يونس بن حبيب(٢) .

ما ذكر جرير والفرزدق في مجلس شهدته قط فاتفق المجلس على أحدهما .

فاذا مال أبو الفرج الى شاعر أو إنحرف عن شاعر فليس معنى هذا انه كان يتعصب على أحد أو يتصعب لأحد وإنما الأذواق في الشعر مختلفة وقول يونس بن حبيب أصدق شيء في هذا المعنى .

---

(١) الجزء ٩ الصفحة ١٠٦

(٢) الجزء ١٩ الصفحة ٦

قد يذكر في بعض الأحوال أخبار شاعر مداح لآل البيت مثل دعبل ولكنه لا يغفل عن أن يقول فيه إنه كان هجاء خبيث اللسان .

ويذكر أخبار السيد الحميري ، المشهور بتشيعه ، فينقل عنه خبراً من الأخبار جاء فيه أنه كان أنتن الناس إبطين لايقدر أحد على الجلوس معه لنتن رائحتها ، وينقل عنه خبراً آخر جاء فيه أنه ذهب إلى قوم من إخوانه بالأهواز فنزل بهم وشرب عندهم فلما أمسى انصرف فأخذه العسس فحبس .

وقد يدافع في بعض الأحيان عن شاعر مثل ابن المعتز وشعره يشتمل على كثير من توعد الطالبيين وانحراف عنهم .

وقد سمعت من يطعن على أبي الفرج ويقول فيه إنه يكره أهل الشام ويفتش عن مساوىء أخبارهم التي تغض من مقاديرهم مثل الأخبار التي رواها عن معبد في دمشق وعن حنين في حمص مما له صلة بضعف ذوق أهل دمشق وحمص في الغناء . وسنطلع على هذه الأخبار في فصلها من كتابنا هذا .

ماأظن أن أبا الفرج تحامل على دمشق أو على حمص في ضعف أذواق أهلهما في الغناء ولو كنا نعرف أغاني بلدنا قبل ثلاثين أو أربعين سنة لما استغربنا ضعف ذوق الناس في القديم في الغناء ، فما حسن الغناء في دمشق بعض الحسن إلا من سنين قليلة وذلك بفضل الأصوات التي نقلت اليها من بلاد ثانية كالقاهرة ، فأبو الفرج لم يتحامل على دمشق ولا تحامل على حمص وإنما نجد له كثيراً من الفضل في تصوير ماضي هذين البلدين في ذوق الغناء ، فالذي يهمنا انما هو إدراك الماضي على حقيقته لاعلى شيء من التزوير .

وكما طعنوا عليه من هذه الناحية فقد طعنوا عليه من ناحية إهماله لتدوين أخبار شعراء الشام .

لقد فاتهم أن كتاب الأغاني ليس بكتاب تراجم فقد قال في صدر مقدمته إنه جمع في كتابه ماحضره وأمكنه جمعه من الأغاني العربية قديمها وحديثها فالغاية من كتابه ذكر الأغاني بأخبارها فاذا لم يكن لشاعر من الشعراء شعر يُغنى فيه

ولم يكن لهذا الشعر خبر يستفاد فأبو الفرج لايذكر الشاعر ، وعلى هذا الوجه لانجد من ناحية أبي الفرج إهمالا لتدوين أخبار شعراء الشام في كتابه .

* * *

هذا ماالستطعت إستخراجه من صورة أبي الفرج من كتابه نفسه ، وفي هذا القدر من أخلاقه مقنع ، فانّ ماعرفناه من تجرده وإنصافه وأدب نفسه يعيننا في الفصول الآتية على تقدير أسلوبه في الروايات وهو الأسلوب المبني على الصدق والأمانة .

❀❀❀

إنشاء أخبار الأغاني

سلك أبو الفرج في أغانيه مسالك المحدّثين ، فان كتابه لايخلو من العبارات الآتية : أخبرني فلان وروى فلان وحدّثني فلان ، ثم يذكر بعد هذه العبارات أسانيد الأخبار والروايات والأحاديث وإذا نسخ من بعض الكتب أو جمع منها أشار إلى ذلك في كتابه .

كان إسحق الموصلي يقول : الاسناد قيد الحديث ، فتحدث مرة بحديث لا إسناد فيه ، فسئل عن إسناده فقال : هذا من المُرْسَلات عُرْفاً .

فالذي يهمنا أن نعرفه في هذا الفصل انما هو الأمر الآتي : هل كان أبو الفرج ينشيء الأخبار والروايات والأحاديث إنشاء أم كان يرويها بألفاظها .

مرة نجده يروي خبراً من الأخبار فيقول(1):

حدّثني جحظة قال : حدّثني علي بن يحي قال : أنشد مروان بن أبي الجنوب المتوكل ذات يوم :

إني نزلت بساحة المتوكل ونزلت في أقصى ديار الموصل

فقال له بعض من حضر : فكيف الاتصال بين هؤلاء والمراسلة ، فقال أبو العنبس الصَيْمري كان له حمامُ هُدّى يبعث بها اليه من الموصل حتى بكاتبه على أجنحتها ، فضحك المتوكل حتى استلقى وخجل مروان وحلف بالطلاق لايكلم أبا العنبس أبداً ، فماتا متهاجرين .

فإذا فرغ من هذه الرواية قال : كذا أكبر حفظي ، إن جحظة حدّثني به عن علي بن يحيى ، فاني كتبته عن حفظي .

(1) الجزء ١١ الصفحة ٥

فهذا الكلام يدل على أن الراوية يروي له خبراً من الأخبار فيحفظه ، ثم يخلو إلى نفسه في ساعة من الساعات فينشئ الخبر .

ومن هذا القبيل قوله وقد روى خبراً عن أول بناء النحو وعقد أصوله[1]: هذا حفظته عن أبي جعفر وأنا حديث السن ، فكتبته من حفظي ، واللفظ يزيد وينقص ، وهذا معناه .

وأبو جعفر الذي عناه إنما هو أبو جعفر بن رستم الطبري النحوي .

خلاصة هذا الكلام ان أبا الفرج حفظ هذا الخبر من صغره ، فبقي الخبر في ذهنه إلى أن جاء وقت انشائه ، فلما أنشأه أشار إلى عمر هذا الخبر ، وذكر أنه لم يرو الخبر بلفظه كما سمعه ، وإنما رواه بألفاظ تزيد على الألفاظ التي سمعها أوتنقص عنها ، فاهتمّ بالمعنى وحده ، فكأنه كان يعتمد على ذهنه في الأخبار ، فاذا أنشأها أنشأها بألفاظه .

ومما يؤيد هذا قوله وقد تكلم على قُس بن ساعدة[2] فذكر نسبه وقال فيه إنه خطيب العرب وشاعرها وحليمها وحكيمها وحكمها في عصره ، يقال إنه أول من علا على شرف وخطب عليه ، وأول من قال في كلامه أما بعد ، وأول من اتكأ عند خطبته على سيف أو عصا ، وأدركه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة ورآه بعكاظ فكان يأثر عنه كلاماً سمعه منه ، وسئل عنه فقال : يحشر أمة وحده .

وبعد أن فرغ أبو الفرج من هذا الكلام قال : وقد سمعت خبره من جهات عدة ، إلا أنه لم يحضرني وقت كتبت هذا الخبر غيره ، وهو وإن لم يكن من أقواها على مذهب أهل الحديث إسناداً فهو من أتمها .

فقول أبي الفرج هذا مهم جداً في باب الكلام على رواياته ، فهو يدلنا دلالة واضحة على أنه يسمع الأخبار أولا ثم يأتي بيته فيجمع ذهنه فيكتبها ، فالأخبار من إنشائه .

---

(١) الجزء ١١ الصفحة ١٠١

(٢) الجزء ١٤ الصفحة ٤٠

وقد تفوته بعض الأخبار في بعض الأحيان كما دل عليه كلامه المتقدم، وانما المهم أن نعرف أنه كان ينشيء الأخبار إنشاء بعد سماعه إياها .

وقد نمر كثيراً في رواياته بمثل قوله : فان الحكاية تزيد أو تنقص ، ومعنى هذا انه كان يروي الحكايات كما سمعها ، وقد تزيد هذه الحكايات أو تنقص ، ولكنها تحافظ على جوهرها فنحن لا ننظر الى حكاياته كما ننظر الى روايات أهل التأريخ ولكنا نستنبط على كل حال من هذه الحكايات روح الحقيقة ، وقد تكون هذه الحقيقة حينا مجردة وتكون حيناً مزوقة بحسب الفن ، ولكنها لا تخلو من روح ، وهذا سنبحث عنه في باب لغته وفنه .

وإذا نظرنا في الخبر الذي رواه عن خطبة الحجاج في أخبار عبد الله بن الزبير (١) تبين لنا أنه يتحدث عن بعض الرواة ، فاما أن يروي أخبارهم بشيء من حذف ألفاظهم ومعانيهم واما أن يحكوا له هذه الأخبار فيحذفوا بعض الألفاظ والمعاني . فان خطبة الحجاج التي ذكر جملة منها كانت معروفة في وقته ، ومدونة في كتب الأدب ، فلم يرو منها أبو الفرج إلا القليل .

ثم نمر في كثير من الأحيان بمثل قوله : وقد جمعت أخبارهم على اختلاف ألفاظهم ، ومعنى هذا أنه كان يجمع الأخبار من مصادر شتى تختلف ألفاظها ، فينشؤها إنشاء بألفاظه .

ومن هذا النحو قوله : حدثنا بالسبب في خروجه فلان (٢) قال : وأخبرنا أيضاً ببعض خبره الى أن يفرغ من هذه الأسانيد كلها فيقول :

قال أبو الفرج الأصبهاني : ونسخت أيضاً بعض خبره من كتاب محمد بن علي بن حمزة عن المدائني وغيره ، فجمعت معاني ما ذكروه في ذلك كراهة الاطالة .

فقوله : فجمعت معاني ما ذكروه في ذلك دليل على أنه جمع المعاني وحدها وأنشأها بألفاظه .

---

(١) الجزء ١٣ الصفحة ٣٩
(٢) الجزء ١١ الصفحة ٧٠

ويدخل في هذا الباب قوله : ونسخت بعضه من رواية الـكلبي وأخبرنا به فلان عن فلان عن فلان فجمعت من رواياتهم ما احتيج الى ذكره مختصر اللفظ كامل المعنى .

وقد تزدحم عليه الروايات والاسانيد في بعض الأوقات فيضطر الى التفصيل فيقول : أخبرني بخبره علي بن سليمان الاخفش قال : حدثنا فلان عن فلان ... وأضفت الى ذلك مارواه الزبير بن بكار عن أصحابه وما اتفقت الروايتان فيه فاذا اختلفتا نسبت كل خبر الى راويه .

❀❀❀

نستخرج من كل ماتقدم أن أخبار الأغاني كان أبو الفرج ينشؤها بألفاظه ، واذا لم تكن الأخبار من انشائه نبّه على ذلك في مواطن كثيرة من كتابه ، فاذا مررنا بقوله : هذا لفظ يزيد المهلبي والأخفش ، أو اذا مررنا بقوله : واللفظ للمدائني ، أو : واللفظ له ، علمنا أن الأخبار التي يرويها انما يرويها بألفاظ أصحابها ، وكذلك اذا قال : ونسخت من كتاب كذا ، وجمعت من كتاب كذا ...

براءة ذمة أبي الفرج

سواء أكانت ألفاظ الأخبار التي يرويها أبو الفرج له أم كانت للرواة الذين يروي عنهم، انه كان يحرص الحرص كله على براءة الذمة فيها.

قال في بعض رواياته :(١)

وأخبرني عمي عن عبد الله بن شبيب عن هرون بن موسى القروي قال: سألت أبا بكر العدوي عن هذين البيتين.

وخبرتماني ان تيماء منزل | لليلى اذا ما الصيف ألقى المراسيا
فهذي شهور الصيف عنا قد انقضت | فما للنوى ترمي بليلى المراميا

فقال: هما لجميل، ولم يعرف المجنون فقلت فهل معها غيرهما قال: نعم وأنشدني

واني لأخشى أن أموت فجاءة | وفي النفس حاجات اليك كما هيا
واني لينسيني لقاؤك كلما | لقيتك يوماً ان أبثك ما بيا
وقالوا به داء عياء أصابه | وقد علمت نفسي مكان دوائيا

يروي عن عمه خبراً مثل هذا الخبر ثم يقول:

وانا أذكر مما وقع الي من أخباره (أي من أخبار مجنون بني عامر) جملا مستحسنة، متبرئاً من العهدة فيها، فان أكثر اشعاره المذكورة في أخباره ينسبها بعض الرواة الى غيره، وينسبها من حكيت عنه اليه واذا قدمت هذه الشريطة برئت من عيب طاعن، ومتبع للعيوب.

فهذه العبارة تدلنا على مقدار ورعه في الروايات، فان نفسه من شدة هذا

---

(١) الجزء ١ الصفحة ١٦٣

الورع لاتنفك تحدثه بالتبروء من العهدة ، انه لايحب إحتمال التبعة ، ويتجنب عيب الطاعنين ، وهذا كله عنوان صدقه وشدة توقيه .

وإذا أحببت أن أنبه على مقدار إهتمامه بهاتين الصفتين في رواياته : الصدق وشدة التوقي ، فأني لا أجد خبراً يصورهما أنطق تصوير مثل هذا الخبر :

قال في أخبار أبي محمد يحي بن المبارك(١) وقد ذكر أخبار من كان له شعر وفيه غناء من ولده : وآخر من كان بقي من علماء هذا البيت أبو عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن أبي محمد ، وكان فاضلا عالماً ثقة فيما يرويه ، منقطع القرين في الصدق وشدة التوقي فيما ينقله ، وقد حملنا نحن عنه وكثير من طلبة العلم ورواته علماً كثيراً فسمعنا منه سماعا جماً .

لقد أحببت أن أدوّن في هذا المقام عبارته هذه حتى نعرف طبقة الذين كان يحمل العلم عنهم وحتى نعرف أخلاقهم في الصدق وشدة التوقي ، واني لا أرى عبارة أصف بها أبا الفرج أحسن من العبارة التي وصف بها شيخاً من شيوخه ، فكأن أخلاقه في نقل الأخبار مقتبسة عن أخلاق أستاذه الذي تخرّج عليه ، فأبو الفرج منقطع القرين في الصدق وشدة التوقي فيما ينقله ، فهاتان الصفتان : الصدق وشدة التوقي هما الطابع الذي طبع به أبو الفرج .

ومن حرصه على هاتين الصفتين انه يحكي في بعض الأحيان خبراً عن أحد الرواة باسناد ثم ينسى هذا الاسناد ، فينبه على هذا النسيان فيقول :(٢)

وأخبرني محمد بن العباس اليزيدي باسناد له لم يحضرني وأنا أخرجه إن شاءالله.

فهذا تنبيه لم يلجأ اليه إلاّ كل صادق ، متوق.

وأرجو أن أستطيع تصوير كرهه لأضداد هاتين الصفتين في الكلام الآتي :

ذكر في أخبار مروان بن أبي حفصة أنه نسخ من كتاب أعطاه إياه أبو الفضل

---

(١) الجزء ١٨ الصفحة ٧٣

(٢) الجزء ٧ الصفحة ٢٢

أحمد بن أحمد بن ثَوابة كلاما جرى بين إسحق وبين إبراهيم بن المهدي فيه شيء من المنازعة والمجادلة لاحاجة بي إلى ذكره لطوله ، وبعد أن فرغ من الكلام قال:(١)

ولن تدفع الحقائق بالأكاذيب ، ولا يزيل الخطأ الصواب ولا الخطل السداد وكفى من نضح عن إسحق بأن أغاني إبراهيم بن المهدي لايكاد يعرف منها صوت ولا يروى منها إلاّ اليسير وأن كلامه في تجنيس الطرائق أطرحَ وعمل على مذهب إسحق ، وانقضى الصنع لابراهيم بذلك مع انقضاء مدته ، كما يضمحل الباطل مع أهله ، فعدلت عن ذكر تلك الأخبار لا لأنها لم تقع إلي ولكنها أخبار يتبين فيها التحامل والحمق وتتضمن من السب لأسحق والشتم والتجهيل ما يُعلم أنه لم يكن يُقضى على مثله لأحد ولو خاف القتل ، فاستبردت ذلك وأطرحته ، وأعتمدت من أخبار إبراهيم على الصحيح وما جرى مجرى هذا الكتاب من خبر مستحسن وحكاية ظريفة دون مايجري مجرى التحامل ، فقد مضى في صدر الكتاب من أخبارهما وإغصاص إسحق إياه بريقه وتجريعه أمرّ من الصبر ماينبيء عن بطلان غيره.

أفلا ننظر إلى هذا التوقي في نقل أخباره ، أفلا ننظر إلى تجنبه الأخبار التي تدبين فيها آثار التحامل والحمق والسب والشتم والتجهيل .

وقد بلغ من حرصه على الحقيقة أنه كان يهتمُ بها بعد موته على نحو اهتمامه بها في حياته ، ولعلّ في ذكر عبارة له في الفصل الذي عقده لأغاني الخلفاء دليلا على ذلك(٢) ، قال ابو الفرج :

فأول من دونت له صنعة منهم عمر بن عبد العزيز ، فأنه ذكر عنه أنه صنع في أيام إمارته على الحجاز سبعة ألحان يذكر سعاد فيها كلها فبعضها عرفت الشاعر القائل له فذكرت خبره ، وبعضها لم أعرف قائله ، فأتيت به كما وقع إليّ ، فان مرّ بي بعد وقتي هذا أثبته في موضعه وشرحت من أخباره ما أتصل بي ، وإن لم يقع الي ووقع

---

(١) الجزء ٩ الصفحه ٧٣

(٢) الجزء ٨ الصفحة ١٤٤

إلى بعض من كتب هذا الكتاب ، فمن أقل الحقوق عليه أن يتكلف إثباته ولا يستثقل تجشم هذا القليل ، فقد وصل إلى فوائد جمة تجشمناها له ولنظرائه في هذا الكتاب نحظي بها من غير نَصب ولا كدح ، فان جمال ذلك موفر عليه ، إذا نسب إليه ، وعيبه عنا ساقط مع اعتذارنا عنه إن شاء الله .

فاذا أثبت هذا الكلام فاني لم أثبته إلا لأُستدلّ به على مقدار عناية أبي الفرج بالحقيقة ، وعلى بحثه عنها في كل مكان ، فاذا فاتته ولم يهتد اليها ووقعت الى من يكتب كتابه بعد موته رجا أن يثبتها له في هذا الكتاب .

❀ ❀ ❀

نقد أبي الفرج للرواة

من شدة ميل أبي الفرج الى الصدق ، وحرصه على التوقي كان ينقد بعض الرواة الذين ينقل الأخبار عنهم وينبه على أباطيلهم ، فما كان ينقل الأخبار على علاتها .

تعرض كثيراً لابن خُرْداذبة ولا سيما في أغاني الخلفاء وأولادهم وأولاد أولادهم فقال في صدر هذا الفصل :(١)

المنسوب الى الخلفاء من الأغاني والملصق بهم منها لا أصل لجله ولا حقيقة لأكثره ، لا سيما ما حكاه ابن خرداذبة فانه بدأ بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فذكر انه تغنى في هذا البيت : كأنّ راكبها غصن بمرْوحة .

ثمّ والى بين جماعة من الخلفاء واحداً بعد واحد حتى كأن ذلك عنده ميراث من مواريث الخلافة أو ركن من أركان الامامة لا بد منه ، ولا معدل عنه ، يخبط خبط العشواء ، ويجمع جمع حاطب ليل ، فأما عمر بن الخطاب فلو جاز هذا أن يروى عن كل أحد لبعد عنه وإنما رُوي انه تمثل بهذا البيت وقد ركب ناقة فاستوطأها لأنه غنّى به ولا كان الغناء العربي ايضاً عرف في زمانه إلا ما كانت العرب تستعمله من النّصب والحداء وذلك جار مجرى الانشاد، إلاّ انه يقع بتطريب وترجيع يسير ورفع للصوت، والذي صحّ من ذلك عن رواة هذا الشأن فأنا ذاكر منه ما كان متقن الصنعة لاحقاً بجيد الغناء ، قريباً من صنعة الأوائل،وسالكا مذاهبهم، لا ما كان ضعيفاً ، سخيفاً ، وجامع منه ما اتصل به خبرله يستحسن ويجري مجرى هذا الكتاب وما تضمّنه .

---

(١) الجزء ٨ الصفحة ١٤٤

إلاّ أنه مع طعنه على ابن خُرْدادْبَة كان لا يرد بعض أقواله ، فقد ذكر في أخبار بصبص جارية ابن نفيس مايلي(١):

وذكر ابن خرداذبة أن المهدي اشتراها وهو ولي العهد سراً من أبيه بسبعةَ عشرَ ألفَ دينار ، فولدت منه عُلَيَّةَ بنت المهدي ، وذكر غير ابن خرداذبة أنه غلط في هذا وأن الذي صحّ أن المهدي اشترى بهذه الجملة جارية غيرها وولدت عُلَيَّة .

ثم ذكر خبراً رواه هرون بن محمد بن عبد الملك الزيات وبعد أن فرغ منه قال : والذي قال ابن خرداذبة غير مردود ، إذا كان هذا صحيحاً .

فمعنى هذا أن أبا الفرج يهمه ما يقال كما يهمه من يقول، انه يطعن على ابن خرداذبة في مواطن كثيرة ولكنه إذا وجد له رواية صحيحة ذكرها ، ولم يأنف من ذكرها ، فهو مجرد من كل تحامل ، فالحقيقة وحدها هي التي يُعنى بها في رواياته .

فاذا قبل رواية ابن خرداذبة في موضع من كتابه فانه لم يقبلها في مواضع كثيرة من هذا الكتاب .

من هذا الشكل قوله في أخبار معبد : (٢)

وذكر ابن خُرْداذْبة انه غنّى في أول دولة بني أمية وأدرك دولة بني العبّاس، وقد أصابه الفالج وارتعش وبَطل فكان إذا غنّى يُضْحك منه ويُهزْأ به .

وابن خرداذبة قليل التحصيل لما يرويه ويضَمّنه كتبه ، والصحيح ان معبدا مات في أيام الوليد بن يزيد بدمشق وهو عنده ، وقد قيل انه أصابه الفالج قبل موته وارتعش وبطل صوته ، فأمّا إدراكه دولة بني العباس فلم يروه أحد سوى ابن خرداذبة ولا قاله ولا رواه عن أحد وانما جاء به مجازفة .

ثم يأتي بخبر يؤيد رأيه هذا فيرويه بأسانيده فيقول على لسان كردم بن معبد

---

(١) الجزء ١٣ الصفحه ١١٠

«٢» الجزء ١ الصفحة ١٨

المغني ، مولى ابن قطن : مات أبي وهو في عسكر الوليد بن يزيد ، وأنا معه ، فنظرت حين أخرج نعشه الى سلامة القس ، جارية يزيد بن عبد الملك ، وقد أضرب الناس عنه ينظرون اليها ، وهي آخذة بعمود السرير وهي تبكي أبي وتقول:

قد لعمري بتُّ ليلي كأخي الداء الوجيع

ونجيُّ الهم مني بات أدنى من ضجيعي

كلما أبصرت ربعاً خالياً فاضت دموعي

قد خلا من سيد كا ن لنا غير مضيع

لا تلمنا إن خشعنا أو هممنا بخشوع

قال كردم : وكان يزيد أمر أبي أن يعلمها هذا الصوت ، فعلمها إياه ، فندبته به يومئذ ، قال : فلقد رأيت الوليد بن يزيد والغمر أخاه متجردين في قميصين ورداءين يمشيان بين يدي سريره حتى أخرج من دار الوليد لأنه تولى أمره وأخرجه من داره الى موضع قبره .

❀❀❀

من هذا كله يتبين لنا أنه كان في بعض الأحايين ينقد الرواة ، ويأتي بروايات تنقض أقاويلهم ، وابن خرداذبة أكثر الرواة الذين كذّبهم وقد عرض بـه في مواضع كثيرة من كتابه ، فانه لما تكلم على يحي المكي (١) قال في صدر كلامه : انه مولى بني أمية ثم ذكر قول ابن خرداذبة فقال : وذكر ابن خرداذبة انه مولى خزاعة وليس قوله مما يحصّل لأنه لا يعتمد فيه على رواية ولا دراية .

فلننظر الى مقدار تدقيقه في الروايات ، انـه يطعن على تحصيل ابن خرداذبة ولكنه في الوقت نفسه يثبت قوله في رواية من الروايات فينبه على بطلان هذا القول وقد كان يستطيع ان يستغني عن الاستشهاد بقوله ولكنه لايريد ان يفوت القارىء شيء من اختلاف الروايات مبالغة في التفتيش عن الحقيقة .

---

(١) الجزء ٦ الصفحة ١٥

ومن الذين شك في رواياتهم وطعن عليهم حَبَش ُ فقد تكلم على ابن صاحب الوضوء (١) فقال : وهو قايل الصنعة ، لم يذكر له إسحاق إلا صوتين ، كلاهما في خفيف الثقيل الثاني المعروف بالماخوري ، ولا ذكر له غير إسحاق سواهما الاّ ما هو مرسوم في الكتاب الباطل المنسوب الى إسحاق ، فأن له فيه شيئاً لا أصل له وفي كتاب حَبَش وهو رجل لايحصّل ما يقوله ويرويه .

فهذا دليل على انه لا ينقل الأخبار إلا عن الثقات .

وكذلك فانه كان يخطّيء في بعض المواطن من كتابه ابن الكلبي فيقول : ولعل هذا من أكاذيب ابن الكلبي (٢) .

وليس غرضي الاتيان على كل الذين كان يخطؤهم وإنما غرضي التنبيه على انه لا يقبل روايات الرواة على علاتها .

❀ ❀ ❀

---

(١) الجزء ٣ الصفحة ١٩

(٢) الجزء ١٠ الصفحة ١٤٨

نقد الرواة لأبي الفرج

وكما نقد أبو الفرج طائفة من الرواة فكذلك نقده فريق منهم ، فبعضهم كان معتدلا في نقده مثل ياقوت الذي قال في معجم الأدباء ، في كلامه على أبي الفرج :

وجمعت تراجمه ، فوجدته يعد بشيء ولا يفي به، في غير موضع منه، كقوله في أخبار أبي العتاهية : وقد طالت أخباره ها هنا ، وسنذكر خبره مع عُتبةَ في موضع آخر ، ولم يفعل .

وقال في موضع آخر : أخبار أبي نواس مع جِنانَ ، اذْ كانت سائر أخباره قد تقدمت ، ولم يتقدم شيء إلى أشباه لذلك ، والأصوات المائة هي تسعة وتسعون وما أظن الا ان الكتاب قد سقط منه شيء ، أو أن يكون النسيان قد غلب عليه ، والله أعلم .

لم أجد في نقد ياقوت شيئاً عظيماً ، ومع هذا كله لم يكن نقده مجرداً ، فقد ذكر المواطن التي آخذ بها أبا الفرج ثم لم يتحامل عليه فقد التمس المعذرة لأبي الفرج فوجدها ، إما أن يكون الكتاب قد سقط منه شيء ، وإما أن يكون النسيان قد غلب عليه .

ولكن النقاد كلهم لم يسلكوا هذا المسلك الذي سلكه ياقوت ، فقد جاء في كتاب الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري لصاحبه آدم متز مايلي:(١)

« من أمثلة النقد الذي وجه المحدثين أن النوبختي يصف أبا الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني ... وهو الذي سمع منه الدارقطني ، المحدث المشهور ، بأنه

---

(١) الجزء الأول الصفحة ٣٦١ ترجمة محمد عبد الهادي أبو زيدة .
راجع تاريخ بغداد الصفحة ٧١ من طبعة كرنكو ١٩١٢

أكذب الناس ، لأنَّه كان يدخل سوق الورّاقين وهي عامرة ، والدكاكين مملوءة بالكتب ، فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف ، ويحملها إلى بيته ، ثم تكون رواياته كلها منها ...

هذا هو التحامل ، يسلخُ صاحب الأغاني خمسين سنة في تأليف كتابه ، ويتبع فيه الصدق وشدة التوقي على قدر الأمكان فيجهد نفسه في البحث عن أصح الأخبار والروايات والأحاديث ، ويتبرأ فيها من كل عُهْدة ويحاسب الرواة على الأكاذيب والخطأ والخطل ، ويوآخذهم بكل تحامل وحمق وسب وشتم وتجهيل ، فيجيء أحد النقاد فيقول فيه انه أكذب الناس ، دون أن يكلف نفسه بيان موطن من مواطن هذا الكذب ، هذا هو الكلام الذى لا يرضى به منطق ولا خلق ولا وجدان ، كان يجب على الذين نقدوا أبا الفرج ونسبوا الكذب اليه أن يأتوا بالحجة على قولهم وأن يشيروا الى المواضع التي ظهرت عليها آثار الكذب حتى ينظر العقل في مقادير أقوالهم ، أما أن يجازفوا بحكمهم مجازفة فهذا شيء يذهب جفاء ، إن الحجة لا ترد الا بالحجة ، فلا نستطيع أن نهدم بكلمة مجردة مابناه غيرنا في خمسين سنة ، فضلا عن أن عملا مثل هذا العمل لا يخلو من كثير من قلة الأنصاف .

نسبوا إلى أبي الفرج أنه كان يدخل سوق الورّاقين وهي عامرة والدكاكين مملوءة بالكتب فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها الى بيته ثم تكون رواياته كلها منها .

على أن أبا الفرج بلغ من الأمانة المبالغ فكان اذا نسخ من كتاب أو جمع منه يقول : ونسخت من كتاب كذا ... وجمعت من كتاب كذا .. وما أكثر أشباه هذه العبارة في أغانيه ، وكان يستطيع أن يهمل الاشارة إلى هذه الكتب التي كان ينسخ منها أو يجمع ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك مبالغةً في الأمانة .

وقد نجده في بعض المواضع يقول : ونسخت من بعض الكتب أو جمعت من بعضها فلا يذكر أسماءها ، أما أن ينسخ منها أو يجمع دون الاشارة الى ذلك فهذا أمر نزّهه عنه صدقه وأمانته وشدة توقيه ، ولم يرو في أغانيه حديثاً أو خبراً أو

حكاية دون ذكر الأسانيد فيها ماخلا الأخبار التي كان ينقلها عن بعض أهله ، مثل عمته أو عمه أو جده لأمه يحي بن محمد بن ثوابة .

لم ينقل لنا أبو الفرج الأخبار والروايات والأحاديث وحدها ، وإنما جاءنا بأدلة على ورعه في النقل ، فليس من الانصاف في شيء أن نبخسه حقه ، وأن نقول بعد عمل سلخ فيه خمسين سنة انه كذاب .

لقد شعر بقيمة كتابه ، وأحسّ بفوائده التي حظينا بها من غير نصب ولا كدح ، أمن العدل أن ننسبه إلى الكذب بعد هذا كله ، فاننا لانقرأ كتابه إلاازداد شعورنا بمحاسنه ، فقد روى لنا من الروايات والأحاديث والأخبار ماجعلنا نعتقد أنا نعيش في العصور التي كان يعيش فيها أهل هذه الروايات والأحاديث والأخبار ، واذا قابلنا في الفصول الآتية بين تلك العصور التي كانوا يعيشون فيها وبين العصور التي نعيش فيها وصلنا الى نتائج متشابهة في الحياة ، فسنجد ان مانفخر به من الملاهي والمطاعم والأندية في هذا الدهر كانوا يفخرون بمثله في القديم ، فلولا أبو الفرج وأغانيه لذهبت عنا تلك العصور فلا نهتدي إلى شيء من مظاهر الحياة فيها ، لقد وصف في كتابه حياة بني أمية وبني العباس ثم ذهب بنو أمية وبنو العباس وبقي كتاب الأغاني الذي صور حياتهم ، فالميراث الفكري وحده هو ثروتنا في المستقبل كما أصبح الميراث الذي خلّفه لنا علماؤنا وأدباؤنا في الماضي ثروتنا في الحاضر ، فلولا هذه المواريث الفكرية لما كان لنا شأن في هذا العصر ، أفيحق لنا بعد هذا كله أن نقول في رجل خلف لنا أضخم ميراث أدبي إنه كذاب .

على انا لم نهتد في فصلنا هذا الى مظاهر صدقه وشدة توقيه ، فاذا بحثنا في الفصل الآتي عن تحقيقه في أخباره شعرنا بقوة هذا الصدق وشدة هذا التوقي .

تحقيق صاحب الأغاني

إذا تصديت للكلام على تحقيق صاحب الأغاني لرواياته وأحاديثه وأخباره فاني لا أتصدى لذلك الا لشأن هذا الموضوع الجليل ، فقد وجدت أن الامعان في دراسة التحقيق في كتاب الأغاني يعيننا على ان نقدر هذا الكتاب حق قدره ، إذ أنه ستمر بنا أمور فيه لا يخيلها عقل ، فاذا لم نثق بتحقيق الذي نقل هذه الأمور ووصفها أبلغ وصف دخل الشك على قلوبنا فلا نجد للكتاب معنى .

سبقت الاشارة الى ان بعض رجال التأريخ أمثال المسعودي والطبري وابن الأثير وغيرهم تكلموا على بني أمية وبني العباس من ناحية حياتهم العامة كالسياسة والفتوح والمغازي وغير ذلك ، أما أبو الفرج فقد نقل أخبار حياتهم الخاصة .

انا لنعجب من ذهاب دولة بني العباسي وأواخر دولة بني أمية ، فقد بلغ بنو العباس من العلم والحضارة والسلطان كل مبلغ ، فلماذا ذهبت دولتهم ، ولكننا إذا نظرنا في كتاب الأغاني وبحثنا عن افراطهم في العبث واللهو والتبذير ونظائر هذه الأمور اهتدينا الى بعض الأسباب في ذهاب دولتهم ولكننا لا نستطيع أن نعتمد على هذه الأسباب إلا إذا وثقنا بصحة روايات الأغاني ، فقد نرى في جملة هذه الروايات أن إبراهيم الموصلي سأل الرشيد أن يهب له يوماً في الجمعة لا يبعث فيه اليه بوجه ولا بسبب ليخلوَ فيه بجواريه وإخوانه ، فهذا خبر لا يجوز أن ندرجه إدراجا ، إنما يلزمنا تدبّره وتقليب الرأي فيه ، فمعنى ذلك أن الرشيد كان يغرق في اللهو غرقا ، معنى ذلك انه لم تأت عليه ليلة دون أوتار ونغم ، فاذا كانت الحياة تمضي على هذا الشكل فلا أدري كيف تدوم دولة أو يستمر سلطان .

فاذا أردنا أن نعرف شأن أخبار أبي الفرج ورواياته وأحاديثه لزمنا ان نُعنى بمقدار تحقيقه وان نطلع على نماذج من هذا التحقيق .

هل كان أبو الفرج يحصّل ما يرويه ، والتحصيل في هذا المقام معناه التمييز، وهي اللفظة التي استعملها في أغانيه ، فكثيراً ما نجده يقول: وفلان قليل التحصيل لما يرويه ، ونحن في هذا العصر نستعمل التحقيق بدلاً من التحصيل .

هل كان أبو الفرج يحقّق أخباره وأحاديثه ورواياته ، لا أريد الاستقصاء في هذا الباب ، وإنما الذي أريده عرض نماذج ليس غير ، وهذه النماذج من تحقيق أبي الفرج تصور لنا طريقته في هذا المعنى ، فنحيط بيسير منها نعتمد عليه في دراسة كتاب الأغاني .

نجده في بعض الأحيان يروي خبراً عن أحد الرواة [1] مثل خبر رواه عن محمد بن مزيد بن أبي الأزهر ، له صلة بجارية مغنية كان يهواها يزيد بن الحكم فاذا فرغ من هذا الخبر قال :

واحسب ان هذا الخبر مصنوع ، ولكن هكذا أخبرنا به ابن أبي الأزهر.

يشك في هذا الخبر ، ولكنه لا يأتي بدليل على صنع الخبر فيلقي العهدة فيه على الراوي ، وهذا نمط من أخباره وأحاديثه ورواياته التي يشك فيها ولا يهتدي الى تحقيقها .

وقد نرى أشباه هذا الشك في بعض المواطن من أغانيه ، ولسنا مضطرين الى احصائها ، وحسبنا منها موطن واحد أو موطنان حتى ينشأ لنا رأي عام في هذا الموضوع .

فمن هذا القبيل خبر رواه عن جحظة في أخبار ابن القصار ، قال أبو الفرج : [2]

---

(١) الجزء ١١ الصفحة ٩٩

(٢) الجزء ٢. الصفحة ١٦٠

ومن طيب ما ثلبه به جحظة وتنادر عليه به وأراها مصنوعة انه مرّ يوما على أبيه ومعه غلام يحمل قاطرميذ نبيذ وجوامرجه مذبوحةً مسموطة فقال : الحمد لله الذي أراني ابني قبل موتي يأكل لحم الجواميرات ويشرب نبيذ القاطرميذات. يروي هذا الخبر للنادرة فيه ، فهو يشك في الخبر ولا يذكر حجة على بطلانه.

اني أكتفي بذكر هذين الخبرين ولا أرى بي حاجة الى التوسع في هذا المجال لأن غايتي الاشارة الى المواضع التي لا تظهر عليها آثار التحقيق .

وإذا كان أبو الفرج لم يحقق في بعض الأخبار، فهو لم يحقق في بعض الأشعار، انه يروي هذين البيتين . (١)

اني أرقت ولم يأرق معي صاح   لمُستَكِف بُعَيْدَ النوم لواح

دان مسف فويق الأرض هيدبه   يكاد يدفعه من قام بالراح

ويقول : الشعر لأوس بن حجر ، وهكذا رواه الأصمعي .

أخبرنا بذلك اليزيدي عن الرياشي عنه ، ووافقه بعض الكوفيين ، وغير هؤلاء يرويه لعَبيد بن الأبرص .

ينسب البيتين الى شاعر ، ثم ينسبها الى شاعر آخر بحسب ما سمعه من الرواة، ولا شك في انا نجد في هذا الأمر التبروء من العهدة ، على قدر ما يحرص عليه .

ولكننا نجد في الأمر من جهة ثانيه ضعفاً في التحقيق ، فان لكل شاعر لغة خاصة بة ، والمقابلات وحدها هي التي تظهر حقيقة الشعر ، فاذا نُسب شعر الى شاعرين يعيشان في عصر واحد ، لزم الامر أن يقابل بين لغة الشاعرين أو أسلوبها أو فنها ، وأبو الفرج لم يكلف نفسه شيئاً من ذلك في تحقيق هذين البيتين .

على أنّه إذا لم يحقق في هذين البيتين ، فقد حقق في شعر آخر بعض التحقيق إد قال : (٢)

---

(١) الجزء ١٠ الصفحة ٥

(٢) الجزء ١١ الصفحة ٩٩

أخبرني هاشم بن محمد الخزاعي قال : حدثنا أبو غسان دماذعن أبي عبيدةقال: أنشدني أبو الزعراء ، رجل من بني قيس بن ثعلبة لطرفة بن العبد :

تكاشرني كرها كأنك ناصح   وعينك تبدي أن صدرك لي جو

قال : فعجبت من ذلك وأنشدته أبا عمرو بن العلاء وقلت له : أني كنت ارويه يزيد بن الحكم الثقفي ، فأنشد نيه أبو الزعراء لطرفة ، فقال لي أبو عمرو ان أبا الزعراء في سن يزيد بن الحكم ، ويزيد مولدّ مجيد الشعر ، وقد يجوز أن يكون أبو الزعراء صادقا .

قال مؤلف هذا الكتاب : ما أظن أن أبا الزعراء صدق فيما حكاه ، لأن العلماء من رواة الشعر رووها ليزيد بن الحكم وهذا أعرابي لا يحصل ما يقوله ،ولو كان هذا الشعر مشكوكاً فيه أنه ليزيد بن الحكم وليس كذلك لكان معلوماً أنه ليس لطرفة ولا موجوداً في شعره على سائر الروايات ولا هو أيضاً مشبهاً لمذهب طرفة ونمطه ، وهو بيزيد أشبه وله في معناه عدة قصائد يعاتب فيها أخاه عبد ربه بن الحكم وابن عمه عبد الرحمن بن عثمان بن أبي العاصي ، ومن قال انه ليزيد بن الحكم ابن عثمان قال ان عمه عبد الرحمن هو الذي عاتبه فيه وفيه يقول :

ثم ذكر الأبيات ، وقال بعدها :

فأما تمام القصيدة التي نسبت الى طرفة فأنا أذكر منه مختاره ليعلم أنّ مرذول كلام طرفة فوقه :

تصافح من لاقيت لي ذا عداوة   صفاحاً وعني بين عينيك منزو

أراك إذا لم أهو أمراً هويته   ولست لما أهوى من الأمر بالهوي

الى آخر الأبيات ، ثم يقول :

وهذا شعر إذا تأمله من له في العلم أدنى سهم عرف انه لا يدخل في مذهب طرفة ولا يقاربه .

ففي هذا القول شيء من التحقيق ، إذا لم يكن كاملاً على الوجه الذي نريده

في هذا العصر فانه لا يخلو من حجة أدبية فيها مقنع ، لأن شعر طرفة يختلف عن الشعر الذي ذكر .

ويقرب من هذا النوع من التحقيق الخبر الآتي وقد استند أبو الفرج الى الشعر في تحقيق أمر من الأمور .

قال اسمعيل راوية السيد(١) : كنت عنده يوماً في جناح له ، فأجال بصره فيه ثمّ قال : يا اسمعيل ! طال والله ماشتم أمير المؤمنين علي في هذا الجناح ، قلت : ومن كان يفعل ، قال : أبواي ، وكان يذهب مذهب الكيْسانية ويقول بامامة محمد بن الحنفية ، وله في ذلك شعر كثير ، وقد روى بعض من لم تصح روايته أنه رجع عن مذهبه وقال بمذهب الامامية وله في ذلك :

تجعفرت باسم الله والله اكبر　　　وأيقنت أن الله يعفو ويغفر

وما وجدنا في ذلك في رواية محصل ولا شعره أيضاً من هذا الجنس ولا في هذا المذهب ، لأن هذا شعر ضعيف ، يتبين التوليد فيه ، وشعره في قصائده الكيسانية مباين لهذا جزالةً ومتانةً وله رونق ومعنى ليسا لما يذكر عنه في غيره .

لقد أعانه الشعر في هذا المقام على تمييز أمر من أمور العقائد .

وآخر ما استشهد به في تحقيق الشعر الخبر الآتي(٢)

أمّ سلاّمٍ ما ذكرتك الاّ　　　شرقتْ بالدموع مني المآقي

أمّ سلاّمٍ ذكركم حيث كنتم　　　أنت دائي وفي لسانك راق

مالقلبي يجول بين التراقي　　　مستخفاً يتوق كل متاق

حذراً أن تبينَ دار سليمى　　　أو يصيح الداعي لها بفراق

روى أبو الفرج هذه الأبيات ثم قال :

ومن الناس من يروي هذه الأبيات لعبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي في

(١) الجزء ٧ الصفحة ٥

(٢) الجزء ٦ الصفحة ١٣٦

سلاّمة القس ، وليس ذلك له ، هو للوليد صحيح ، وهو كثيراً ما يذكر سليمى هذه في شعره بأم سلاّم وبسَلْمى لأنه لم يكن يتصنع في شعره ولا يبالي بما يقوله منه ، ومن ذلك قوله فيها :

أم سلاّم لو لقيت من الوجـــد عشير الذي لقيتُ كفاك
فأثيبي بالوصـل صباً عميداً وشفيقاً شجاه ماقد شجاك

فهذا النوع من التحقيق لاغبار عليه ، يستند أولا إلى لغة الشاعر ، فالوليد يذكر أم سلاّم وسَلْمى في شعره والأبيات التي نسبت الى غيره تحتوي على هـذا الاسم ، ثم ان روح الوليد ظاهرة على الشعر ، فهو لايتصنع ولا يبالي بما يقول .

وكما كان يحقق في الشعر فكذلك كان يحقق في الغناء ، فقد روى أبو الفرج في الفصل الأول من كتابه[1] أي من بعد الفراغ من مقدمته ثلاثة أخبار بأسانيدها جاء فيها أن الرشيد أمر المغنين وهم يومئذ متوافرون أن يختاروا له ثلاثة أصوات من جميع الغناء ، فأجمعوا على ثلاثة أصوات .

اختلف الرواة في الأصوات الثلاثة ، وذكر أحد رواة هذه الأخبار أن من الثلاثة الأصوات لحنَ إبراهيم الموصلي في شعر العرجي وهو من خفيف الثقيل الثاني .

إلى جَيْداءَ قد بعثوا رسولا ليحزنها ، فلا صحب الرسول

فلم يقبل أبو الفرج هذه الأخبار على علاّتها ، فشك في بعض الأصوات التي أختيرت ، ولم يسلم أن من الثلاثة الأصوات لحن إبراهيم الموصلي ، ثم اندفع في التمحيص والتحقيق ، فبيّن الأسباب التي من أجلها شك في بعض الاصوات ، فقال :

والذي ذكره أبو أحمد يحي بن علي أصح عندي ويدل على ذلك تباين مابين الاصوات التي ذكرها والأصوات الأخرى في جودة الصنعة وإتقانها واحكام مباديها ومقاطعها وما فيها من العمل ، وان الأخرى ليست مثلها ولا قريبةً منها .

ثم بيّن الأسباب التي من أجلها ردّ لحن إبراهيم الموصلي ، فقال :

---

(١) الجزء ١ الصفحة ٤

وأخرى هي أن جحظة حكى عمن روى عنه أن فيها صوتاً لابراهيم الموصلي ، وهو أحد من كان اختار هذه الأصوات للرشيد وكان معه في اختيارها اسماعيل ابن جامع وفُلَيْح بن العوراء ، وليس احدٌ منها دونه ، إن لم يفته ، فكيف يمكن ان يقال انهما ساعدا ابراهيم على اختيار لحن من صنعته في ثلاثة اصوات اختيرت من سائر الأغاني وفُضِّلت عليها ، ألم يكونا لو فعلا ذلك قد حكما لابراهيم على أنفسهما بالتقدم والحذق والرياسة وليس هو كذلك عندهما .

فجوهر الأمر في هذا التحقيق أنه ينفي عن ابن جامع وفليح أنهما ساعدا ابراهيم الموصلي على اختيار لحن من صنعته لأنهما لو فعلا ذلك لحكما لابراهيم على أنفسهما بالتقدم والحذق والرياسة .

ولكنه لم يكتف بمجرّد النفي وإنما يأتي بخبر يؤيده ، وقد جاء مثل هذا التأييد في ذكر المائة الصوت المختارة(١) اذ قال إبراهيم الموصلي لابنه إسحق وقد سمع ابنَ جامع : كيف رأيت ابن جامع يابنيّ ! فقال له : رأيتك ولا شيء أكبر عندي منك قد صغرت عندي في الغناء معه حتى صرت كلا شيء !

ثم يخرج أبو الفرج من تحقيقه بهذه النتيجة القاطعة :

فابراهيم يُحل ابن جامع هذا المحل مع ما كان بينهما من المنافسة والمفاخرة ، ثم يُقدم على أن يختار فيما هو معه صوتا لنفسه يكون مقدّما على سائر الغناء ، ويطابقه هو وفُلَيْح عليه ، هذا خطأ لا يُتخيَّل .

ومن تحقيقه في أمر الغناء الخبر الآتي ، فهو يُبيِّن لنا رأيه في الذين ينكرون أمراً من الأمور ولا يأتون بالحجة على إنكارهم ، وهذا ما يدل على مبلغ عنايته بالحجج في التحقيق .

قال أبو الفرج في باب أغاني الخلفاء وأولادهم وأولاد أولادهم(٢) :

---

(١) الجزء ١ الصفحة ٥

(٢) الجزء ٨ الصفحة ١٤٤

ومن الناس من ينكر أن تكون لعمر بن عبد العزيز هذه الصنعة ويقول انها أصوات محكمة العمل لا يقدر على مثلها إلا من طالت دُرْبته بالصنعة وحذَق الغناء ومهر فيه وتمكَّن منه ولم يوجد عمر بن عبد العزيز في وقت من الأوقات ولا حال من الحالات اشتهر بالغناء ولا عُرف به ولا بمعاشرة أهله ولا جالس من ينقل ذلك عنه ويؤديه وإنما هو شيء يحسِّن المغنون نسبته اليه .

هذه رواية من أنكر أن تكون لعمر بن عبد العزيز صنعة في الغناء وهذه هي الرواية المخالفة لها : ورُوي من غير وجه خلافُ لذلك واثبات لصنعته إياها وهو أصحُ القولين لأن الذين أنكروا ذلك لم يأتوا على إنكارهم بحجة أكثر من هذا الظن والدعوى ، ومخالفوهم قد أيَّدتهم أخبار رويت .

ثم شرع أبو الفرج في رواية الأخبار التي تؤيد هذا الرأي ، قال :

أخبرني محمد بن خلف وكيع والحسين بن يحيى عن حماد بن اسحق قال : حدثني أبي عن أبيه وعن اسماعيل بن جامع عن سياط عن يونس الكاتب عن شُهدة أم عاتكة بنت شُهدة عن كردم بن معبد عن أبيه أن عمر بن عبد العزيز طارحه لحنه في :

ألمَّا صاحبيَّ نزُرْ سعادا .

ولم يكتف بهذا الخبر فأيَّده بخبر آخر فقال :

ونسخت هذا الخبر من كتاب محمد بن حسين الكاتب قال : حدثني أبو يعلى زُرْقانُ غلام أبي الهُذَيْل وصاحب أحمد بن أبي دواد . قال: حدثني محمد بن يونس قال : حدثني هاتفٌ ، أراه قال : أم ولد المعتصم ، قالت : حدَّثتني عُليَّة بنت المهدي قالت : حدثتني عاتكة بنت شُهدة عن أمها شُهدة عن كردم قال : طرح علي عمر بن عبد العزيز لحنه :

علق القلب سعادا ... عادت القلبَ فعادا
كلما عوتب فيها ... أو نُهي عنها تمادى
وهو مشغوف بسعدى ... قد َعصى فيها وزادا

قال كردم : وكان عمر أحسن خلق الله صوتاً وكان حسن القراءة للقرآن .

نستخرج مما تقدم أن أبا الفرج عرض له خبران في صنعة عمر بن عبد العزيز: خبر ينكر أصحابه هذه الصنعة وخبر يؤيدونها ، فعدل عن الخبر المجرّد من الحجة إلى الأخبار المؤيدة بالحجج ، وهذا دليل على أنه لا يقبل الأخبار على علاّتها وإنما يأخذ منها ما أيدته الحجج ويطرح منها ما جرّد من هذه الحجج .

❀❀❀

وكما كان يحقق بعض الأشعار والغناء ، فكذلك كان يحقق بعض الأخبار قال في أخبار دحمان المغني(١) :

أخبرنا محمد بن خلف بن المرزبان قال : حدثني أحمد بن عبد الرحمن عن أبي عثمان البصري قال : قال دحمان : دخلت على الفضل بن يحيى ذات يوم ، لما جلسنا قام وأومأ إلي فقمت ، فأخذ بيدي ومضى بي إلى منظرة له على الطريق ودعا بالطعام فأكلنا ، ثم صرنا الى الشراب ، فبينا نحن كذلك إذ مرت بنا جارية سوداء حجازية تغني :

أهجُريني أو صليـــني   كيف ماشئت فكوني
أنت والله تحبيـــني   وإن لم تخبريني

فطرب وقال: أحسنت، أدخلي، فدخلت فأمر بطعام فقدم اليها، فأكلت وسقاها أقداحاً وسألها عن مواليها فأخبرته فبعث واشتراها فوجدها من أحسن الناس غناءً وأطيبهم صوتاً وأملحهم طبعاً فغلبتني عليه مدة وتناساني فكتبت اليه :

أخرجت السوداء ما كان في   قلبك لي من شـــدة الحب
فان يدم ذا منك لا دام لي   متُ من الاعراض والكرب

قال : فلما قرأ الرقعة ضحك وبعث فدعاني ووصلني وعاد إلى ما كان عليه من الانس .

---

(١) الجزء ٥ الصفحة ١٣٧

قال مؤلف هذا الكتاب :

هكذا أخبرنا ابن المرزُبان بهذا الخبر وأظنه غلطاً لأن دُحمان لم يدرك خلافة الرشيد وإنما أدركها إبناه : زبير وعبد الله ، فاما أن يكون الخبر لأحدهما أو يكون لدحمان مع غير الفضل بن يحيى .

وقد بلغ من تحقيقه أنه كان يغلّط الأصمعي في بعض الأحوال ، فقد روى في أخبار ليلى الأخيلية خبر دخولها على الحجّاج وإعطاء الحجاج إياها ثلاثمائة بعير ثم روى خبراً آخر فقال(١) :

أخبرني الحسن بن علي قال : حدثنا ابن أبي سعد عن محمد بن علي بن المغيرة قال : سمعت أبي يقول : سمعت الأصمعي يذكر أن الحجاج أمر لها بعشرة آلاف درهم وقال لها : هل لك من حاجة ؟ قالت : نعم أصلح الله الأمير ، تحملني إلى ابن عمي ، قتيبة بن مسلم ، وهو على خراسان يومئذ ، فحملها اليه ، فأجازها وأقبلت راجعة تريد البادية ، فلما كانت بالريّ ماتت فقبرت هناك ، هكذا ذكر الأصمعي في وفاتها ، وهو غلط .

وهذا تصحيح الغلط :

قال أبو الفرج : وقد أخبرني عمي عن الحَزَنبَل الأصبهاني عمن أخبره عن المدائني ، وأخبرني الحسين بن علي عن ابن مهدي عن ابن أبي سعد عن محمد بن الحسن النَخَعي عن ابن الخَصيب الكاتب واللفظ في الخبر للحزنبل ، وروايته أتم ، أن ليلى الأخيلية أقبلتْ من سفر ، فمرت بقبر توبة ومعها زوجها وهي في هودج لها فقالت : والله لا أبرح حتى أسلّم على توبة ، فجعل زوجها يمنعها عن ذلك وتأبى إلا أن تُلمّ به ، فلما كثر ذلك منها تُركتْ فصعدت أكمةً عليها قبر توبة فقالت السلام عليك يا توبة، ثم حوّلت وجهها إلى القوم فقالت : ما عرفت له كذبة قط قبل هذا ، قالوا وكيف ، قالت أليس القائل :

---

(١) الجزء ١٠ الصفحة ٧٧

ولو أن ليلى الأخيلية سلّمت علي ودوني تربة وصفائح
لسلّمت تسليم البشاشة أوزقى إليها صدى من جانب القبر صائح
وأغبط من ليلى بما لا أناله ألا كل ما قرت به العين صالح

فما باله : لم يسلّم عليّ كما قال ، وكانت إلى جانب القبر بومة كامنة ، فلما رأت الهودج واضطرابه فزعت وطارت في وجه الجمل ، فنفر فرمى بليلى على رأسها ، فماتت من وقتها ندفنت إلى جنبه ، وهذا هو الصحيح من خبر وفاتها .

إنا لا نرى شأناً كبيراً في هذا الخبر ولكنّ الذي يهمنا فيه التمييز ، فان أبا الفرج عدل عن رواية الأصمعي إلى روايات ثانية أكثر أسانيد ، فعمل بها وأطرح الرواية الأولى ، وهذا دليل على ميله إلى التحقيق .

❀❀❀

ولا بأس بان ننتقل الآن إلى طرز آخر من رواياته نرى فيها آثار الحيرة والارتباك والتناقض .

يقول في أخبار مجنون بني عامر[1] :

هو على ما يقوله من صحّح نسبه وحديثه : قيس ، وقيل مهدي ، والصحيح قيس ابن الملوّح إلى آخر الخبر .

ويأتي بخبر آخر يؤيد هذه التسمية فيقول : وأخبرني الحسن بن علي قال : حدثنا أحمد بن زهير قال : سمعت من لا أحصي يقول : اسم المجنون قيس ابن الملوّح .

فاذا فرغ من تصحيح النسب انتقل إلى النظر في حقيقته ، وهنا بدء المتناقضات .

وأخبرني حبيب بن نصر المهلبي وأحمد بن عبد العزيز الجوهري إلى أن ينتهي

(١) الجزء ١ الصفحة ١٦١

إلى آخر الأسانيد فيذكر هذا الكلام : سألت بني عامر بطناً بطناً عن مجنون بني عامر فما وجدت أحداً يعرفه .

ثم يستمر في التحقيق فيقول :

وأخبرني عمي قال : حدثنا أحمد بن الحرث عن المدائني عن ابن دأب قال : قلت لرجل من بني عامر : أتعرف المجنون وتروي من شعره شيئاً قال : أوقدفرغنا من شعر العقلاء حتى نروي أشعار المجانين ، إنهم لكثير ، فقلت : ليس هؤلاء أعني انما أعني مجنون بني عامر، الشاعر الذي قتله العشق ، فقال : هيهات ! بنو عامر أغلظ أكباداً من ذلك ، إنما يكون هذا في اليمانية الضعاف قلوبها ، السخيفة عقولها الصَّلِعة رؤوسها ، فأما نزار فلا .

ثم يروي عن الأصمعي بأسانيده فيقول : سمعت الأصمعي يقول : رجلان ما عرفا في الدنيا قط إلا باسم مجنون ، مجنون بني عامر ، وابن القِرّيّة ، فانهما وضعهما الرواة .

ثم يروي خبراً آخر ينقض هذا الخبر فيقول بعد الأسانيد على لسان جد عبد الجبار بن سعيد : سعيتُ على بني عامر فرأيت المجنون وأتيت به وأنشدني . —

ثم يروي خبراً آخر ينقض الخبر الأخير فيقول : وأخبرني عمي عن الكراني قال : حدثنا ابن ابي سعدٍ عن علي بن الصباح عن ابن الكلبي قال : حُدثت ان حديث المجنون وشعره صنعه فتى من بني أمية كان يهوى ابنة عم له وكان يكره ان يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التي يرويها الناس للمجنون ونسبها اليه .

فاذا أحببنا ان نحاسبه على ذلك كله قلنا انه يروي في بعض الأحيان أخباراً متناقضة ، يدفع بعضها بعضاً ، ثم يفرغ من رواياتها كلها فلا نرى له رأياً قاطعاً ، وبعد أن يفرغ من هذه الروايات المتناقضة يندفع في أخبار مجنون بني عامر كأنه حقيقة من الحقائق ، فهل يكون اندفاعه في هذه الأخبار دليلاً على اعترافه بالمجنون ، ثم يرجع الى الروايات المتناقضة فيقول : واخبرني عمي عن الكراني عن

العتبي عن عوانه انه قال : المجنون اسم مستعار لا حقيقة له ، وليس له في بني عامر أصل ولا نسب ، فسئل من قال هذه الأشعار فقال : فتى من بني أمية .

ثم يروى عن الجاحظ فيقول : وقال الجاحظ : ما ترك الناس شعراً مجهول القائل قيل في ليلى الا نسبوه الى المجنون ولا شعراً هذه سبيله قيل في لبنى إلا نسبوه الى قيس بن ذريح .

ثم يمضي في هذه المتناقضات ، وكأنه قد حار في أمره فلا يعرف له إلا هذا المخرج فيقول :

وانا ذاكر مما وقع إلي من أخباره جملا مستحسنة ، متبرئاً من العهدة فيها ، فأن أكثر أشعاره المذكورة في أخباره ينسبها بعض الرواة الى غيره ، وينسبها من حكيت عنه اليه ، وإذا قدمت هذه الشريطة برئت من عيب طاعن ومتبع للعيوب.

وإذا وجدنا مثل هذه الحيرة في خبر مجنون بني عامر فما هذا الا لأن الروايات قد اختلفت ، فلم يجد أبو الفرج سبيلا الى التحقيق،فترك التناقض على علاته وروى أخبار المجنون كما سمعها كأنه اسم غير مستعار ، له حقيقة ، وعلى كل حال فانه خاف العهدة فتبرأ منها .

وأعجب شيء في هذه المتناقضات ان أبا الفرج يروي عن الأصمعي فيقول :

وأخبرني هاشم بن محمد الخزاعي قال : حدثنا الرياشي وأخبرني الجوهري عن عمر ابن شبة انهما سمعا الأصمعي يقول وقد سئل عنه ، أي عن المجنون : لم يكن مجنوناً ولكن كانت به لوثة كلوثة أبي حية النميري .

ثم يروي عن الأصمعي نفسه خبراً آخر ينقض الأول فيقول:وأخبرني هاشم ابن محمد قال : حدثنا الرياشي قال : سمعت الأصمعي يقول : رجلان ما عرفا في الدنيا قط الا باسم مجنون ، مجنون بني عامر وابن القِرّيّة ، فانهما وضعهما الرواة.

يروي أبو الفرج عن الأصمعي خبرين متناقضين ، يعترف الأصمعي في الخبر الأول بحقيقة مجنون بني عامر ويقول فيه انه لم يكن مجنونا ولكن كانت به لوثة ، وينكر في الخبر الثاني حقيقة المجنون ويقول انه وضعه الرواة ، ونجد في الخبرين الرواة أنفسهم،في الأول هاشم بن محمد والرياشي وفي الثاني هاشم بن محمد والرياشي.

كل هذا لاينبه عليه أبو الفرج فكأن همه رواية الأخبار من مصادرها كما سمعها.

وإذا فرغنا من هذه الأخبار التي تظهر عليها آثار الحيرة والارتباك والتناقض، اعترضتنا أخبار غريبة كانت حيرة أبي الفرج فيها أشدّ من حيرته الأولى، ولا بد لنا من ذكر الخبر الآتي حتى ننظر في رأي صاحب الأغاني فيه (١).

أخبرنا محمد بن مزيد قال: حدثنا حماد بن إسحق عن أبيه عن جده إبراهيم قال: سألت الرشيد أن يهب لي يوماً في الجمعة لا يبعث فيه اليّ بوجه ولا بسبب لأخلوَ فيه بجواريّ وإخواني فأذن لي في يوم السبت فقال: هو يوم أستثقله، فاله فيه بما شئتَ، قال فأقمت في يوم السبت بمنزلي وتقدمت في إصلاح طعامي وشرابي بما احتجت اليه وأمرت بوابي فأغلق الأبواب وتقدمت اليه الاّ يأذن علي لأحد فبينا انا في مجلسي والخدم قد حفوا بي وجواريّ يترددن بين يدي إذا أنا بشيخ ذي هيئة وجمال، عليه خفان قصيران وقميصان ناعمان، وعلى رأسه قلنسوة لاطئة وبيده عكازة مُقمّعة بفضة، وروائح المسك تفوح منه حتى ملأ البيت والدار فداخلني بدخوله عليّ مع ما تقدمت فيه غيظ ما تداخلني قط مثلُه وهممت بطارد بوابي ومَنْ حجبني لأجله فسلّم عليّ أحسن سلام فرددت عليه وأمرته بالجلوس فجلس ثم أخذ بأحاديث الناس وأيام العرب وأحاديثها وأشعارها حتى سل ما بي من الغضب وظننت ان غلماني تحروا مسرتي بادخالهم مثله عليّ لأدبه وظَرْفه فقلت: هل لك في الطعام فقال: لاحاجة لي فيه. فقلت: هل لك في الشراب فقال: ذلك اليك، فشربت رطلا وسقيته مثله، فقال لي: يا أبا إسحق هل لك ان تغني لنا شيئاً من صنعتك وما قد نفقتَ به عند الخاصِ والعام فغاظني قوله ثم سهلتُ على نفسي أمره فأخذت العود فجسسته ثم ضربت فغنيت فقال: أحسنت يا إبراهيم. فازداد غيظي وقلت ما رضي بما فعله من دخوله عليّ بغير إذن واقتراحه أن أغنيه

---

(١) الجزء ٥ الصفحة ٣٤

حتى سمّاني ولم يُكنني ولم يُجْمِلْ مخاطبتي ثم قال : هل لك أن تزيدنا ، فتذممت فأخذت العود فغنيت فقال : أجدتَ ياأبا إسحق فأَتِمّ حتى نكافئك ونغنيك فأخذت العود وتغنيت وتحفظت وقمت بما غنيته إياه قياماً تاماً ما تحفظت مثله ، ولاقمت بغناء كما قمت به له بين يدي خليفة قط ولا غيره لقوله لي : أكافئك . فطرب وقال أحسنت ياسيدي ! ثم قال : أتأذن لعبدك بالغناء ، فقلت: شأنك ، واستضعفت عقله في أن يغنيني بحضرتي بعدما سمعه مني ، فأخذ العود وجسه وحبسه فوالله خلته ينطق بلسان عربي لحسن ما سمعته من صوته ثم تغنى .

ولي كبد مقروحة من يبيعني ... بها كبداً ليست بذات قروح

أباها عليّ الناس لا يشترونها ... ومن يشتري ذا علة بصحيح

أئنّ من الشوق الذي في جواني ... أنينَ غصيصٍ بالشراب جريح

قال إبراهيم : فوالله لقد ظننت الحيطانَ والأبواب وكلّ ما في البيت يجيبه ويغني معه من حسن غنائه ، حتى خلت والله أني أسمع عظامي وثيابي تجاوبه ، وبقيت مبهوتا لا أستطيع الكلام ولا الجواب ولا الحركة لما خالط قلبي ثم غنى :

الا ياحمامات اللوى عدن عودة ... فاني الى أصواتكن حزين

فعدنَ فلما عدن كدن يمتنني ... وكدت بأسراري لهن أبين

دعون بترداد الهدير كأنما ... سُقين حُميّا أو بهن جنون

فلم ترعيني مثلهن حمائما ... بكين ولم تدمع لهن عيون

لم أعرف في هذه الابيات لحناً ينسب إلى إبراهيم ، والذي عرفته فيها لمحمد بن الحرث بن بُسخُنّر خفيف رمل فكاد والله ، علم الله ، عقلي أن يذهب طرباوإرتياحا لما سمعت ثم غنى :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد ... لقد زادني مسراك وجداً على وجد

بكيت كما يبكي الحزين صبابة ... وذبت من الحزن المبرح والجهد

أأن هتفت ورقاء في رونق الضحى ... على غصن غضّ النبات من الرند

وقد زعموا أن المحب إذا نأى ... يمَلُّ وان النأي يَشفى من الوجد

بكلٍ تداوينا فـلم يُشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد
ثم قال يا ابراهيم : هذا الغناء الماخوري فخذه ، وانحُ نحوه في غنائك وعلمه جواريك ، فقلت:أعدْه علي، فقال : لست تحتاج ، قد أخذته وفرغت منه ، ثم غاب من بين يدي فارتفعتُ وقمت الى السيف فجردته وعدوت نحو أبواب الحرم فوجدتها مغلقة فقلت للجواري: أيَ شيءٍ سمعتن عندي ؟فقلنا: سمعنا أحسن غناءٍ سُمع قط فخرجت متحيراً إلى باب الدار فوجدته مغلقاً فسألت البواب عن الشيخ فقال لي : أي شيخ هو والله مادخل اليك اليوم أحد، فرجعت لأتأمل أمري فاذا هو قد هتف من بعض جوانب البيت : لا بأس عليك يا أبا اسحق ، أنا ابليس . وأنا كنت جليسك ونديمك اليوم فلا تُرَعْ فركبت الى الرشيد وقلت لاأطرفه أبداً بطرفة مثل هذه ، فدخلت اليه فحدثته بالحديث فقال : ويحك تأمل هذه الابيات ، هل أخذتها ، فأخذت العود أمتحنها فاذا هي راسخة في صدري كأنها لم تزل ، فطرب الرشيد وجلس يشرب ولم يكن عزم على الشراب وأمر لي بصلة وحملان وقال : الشيخ كان أعلم بما قال لك من أنك أخذتها وفرغت منها ، فليته أمتعنا بنفسه يوماً واحداً كما أمتعك .

❀❀❀

وبعد أن روى هذا الخبر الغريب ، ولعله أغرب أخبار الأغاني ، غلبت عليه الحيرة في أمره فقال :

هكذا حدثنا ابن الأزهر بهذا الخبر وما أدري ما أقول فيه .

على أني لم اجد لابن الأزهر ذكراً في الأسانيد ، وقد يجوز أن تختلط اسماء الرواة في بعض الأحيان على أبي الفرج ، فيضع اسماً موضع أسم ، غير أن الأمر ليس بذي شأن عظيم فالمهم الخبر نفسه ، ولكن حيرة أبي الفرج لم تطل في الأمر فقد خرج من حيرته فقال :

ولعلّ إبراهيم صنع هـذه الحكاية ليتنفق بها أو صُنعت وحُكيت عنه ، الا

ان للخبر أصلا ، الأشبه بالحق منه ماحدثني به أحمد بن عبد العزيز الجوهري وأحمد ابن عبيد الله بن عمار قال : حدثنا عمر بن شبة قال : حدثنا إسحق بن إبراهيم الموصلي عن أبيه قال : صنعت لحناً فأعجبني وجعلت أطلب شعراً فعسر ذلك عليّ ورأيت في المنام كأن رجلا لقيني فقال : يا إبراهيم أأعياك شعر لغنائك هذا الذي تعجب به ، قلت : نعم قال : فأين أنت من قول ذي الرمة حيث قال :

ألا يا اسلمي يا دار ميّ على البلى ... ولا زال منهلاّ بجرعائك القطر

وإن لم تكوني غير شام بقفرة ... تجرُّ بها الأذيال صيفية كدر

قال : فانتبهت وأنا فرح بالشعر فدعوت من ضرب عليّ وغنيته فاذا هو أوفق ما خلق الله ، فلما علمت ذلك وعملت هذا الغناء في شعر ذي الرمة تنبهت عليه وعلى شعره فصنعت فيه ألحانا ماخورية .

هذه أخبار أشبه شيء بالعقبة الكؤود كانت تعترض أبا الفرج في طريقه ، لم يكن على أيام صاحب الأغاني علم يلجأ إليه في حل عضل هذه الأخبار ، فلهذا أدركته الحيرة في أمره فلم يدر مايقول ، ولكن هل نستطيع نحن في هذه الأيام حل نظائر هذه العضل ، على أنه لا شأن لي في هذا كله وإنما مهمتي الاشارة إلى تحقيق أبي الفرج ليس غير ، فقد يعترضه خبر غريب من هذا الشكل ، فلا يصدق وإنما يحار فيه فلا يدري مايقول ، وإن كنت لا أرى في الخبر غرابة عظيمة ، فان رجال الفن ، وإبراهيم الموصلي في الطبقة الأولى منهم ، يغرقون في فنهم في بعض الأحيان ، فيصبحون في حالة نسميها : الغيبوبة ، فيغوص عليهم شيء أشبه بالوحي ، وقد كنت جالساً إلى شوقي في يوم من الأيام فرأيت هذه الغيبوبة بعيني ، فكان يسمع أحاديثنا بأذنه وكان ذهنه يشتغل بأمور ثانية ، كان يشتغل بالشعر ، فلا يبعد أن إبراهيم كان في مثل هذه الغيبوبة لما روى هذه الحكاية ، لايبعد انه اهتدى إلى الأصوات وأرته عينه ما أرته كما أنه لايبعد أنه صنع هذه الحكاية أو صنعت وحكيت عنه ، على نحو ماقال أبو الفرج .

أما الخبر الذي رآه أبو الفرج أشبه بالحق فليس فيه شيء من الغرابة ، فقد

ثبت أن كثيراً من علماء الرياضيات تشكل عليهم في بعض المرات مسائل رياضية فينامون وأذهانهم تلهج بها فيشتغل عقلهم بحلها في النوم ، فاذا أنتبهوا اهتدوا إلى حلها ، ومن هذا القبيل ما حُكي عن إبراهيم من أنه أهتدى إلى شعر يغني به في نومه .

وكيف كان الأمر فقد دلنا الخبر المتقدم على أن أبا الفرج لايقبل الأخبار على علاتها ، فاذا أدركه خبر غريب حار في أمره في البدء وحاول الخروج من هذه الحيرة ، وحسبه حيرته هذه فأنها مفتاح للتحقيق ، ثم يجهد في هذا التحقيق على قدر الأمكان فيهتدي إلى حل ، وسواء آكان الحل صحيحاً أم كان خطأ انه على كل حال عني فيه بالتحقيق وحسبه هذا ...

ومن الأخبار الغريبة الخبر الآتي ، قال أبو الفرج :(١)

أخبرني أحمد بن عبيد الله بن عمار قال : حدثني علي بن محمد النوفلي قال: حدثني أبي عن العلاء البُندار قال : كان الوليد زنديقا وكان رجل من كلب يقول بمقالته مقالة الثنوية فدخلت على الوليد يوماً وذلك الكلبي عنده وإذا بينهما سفط قد رُفع رأسُه عنه، فاذا مايبدو لي منه حرير أخضر، فقال : ادنُ ياعلاء فدنوت، فرفع الحريرة فاذا في السفط صورة إنسان وإذا الزئبق والنوشادر قد جعلا في جفنه، فجفنه يطرف كأنه يتحرك ، فقال : ياعلاء ! هذا ماني، لم يبتعث الله نبياً قبله ولا يبتعث نبياً بعده ، فقلت: ياأمير المؤمنين اتق الله ولا يغرنك هذا الذي ترى عن دينك، فقال له الكلبي: يا أمير المؤمنين ألم أقل لك ان العلاء لايحتمل هذا الحديث ، قال العلاء : ومكثت أياماً ثم جلست مع الوليد على بناء كان بناه في عسكره يشرف به والكلبي عنده اذ نزل من عنده وقد كان الوليد حمله على برذون هملاج أشقر من أفره ما سخّر فخرج على برذونه ذلك فمضى به في الصحراء حتى غاب عن العسكر، فما شعر الا وأعراب قد جاؤا به يحملونه منفسخةً عنقه ميتاً وبرذونه يقاد حتى أسلموه فبلغني

---

(١) الجزء ٦ الصفحة ١٣١

ذلك،فخرجت متعمداً حتى أتيت اولئك الأعراب وقد كانت لهم أبيات بالقرب منه في أرض البخراء لاحجر فيها ولا مدر،فقلت لهم: كيف كانت قصة هـذا الرجل قالوا: أقبل علينا على برذون فوالله لكأنه دهن يسيل على صفاة من فراهته،فعجبنا لذلك، اذ انقضّ رجل من السماء عليه ثياب بيض فأخذ بضبعيه فاحتمله ثم نكسه وضرب برأسه الأرض فدقّ عنقه ثم غاب عن عيوننا فاحتملناه فجئنا به .

❀❀❀

هذا هو الخبر الغريب ، وقد رواه أبو الفرج دون تعليق ، واذا حار في الخبر الأول المشاكل له فقال : هكذا حدثنا ابن الأزهر بهذا الخبر ، وماأدري ماأقول فيه ، فلم تظهر حيرته في الخبر الثاني ، ولما كان الخبر الثاني قـد رُوي في الجزء السادس والخبر الأول قد روي في الجزء الخامس ، فقد يجوز أن يكون رأي أبي الفرج فيه مثل رأيه في الأول ، ولهذا سكت ولم يفصح عن رأي .

بقيت نماذج من تحقيق صاحب الأغاني تختلف عن النماذج التي عرضتها ، من ذلك تحقيقه بالخط ، فقد قال في مماظّة(١) وقعت بين ابراهيم بن المهدي وبين اسحق :

فأما المماظّة التي كانت بينه وبين اسحق فقد مضى في خبر اسحق منها طرَف ونذكرهھنا منها ماجرى مجرى محاسن ابراهيم والقيام بحجته ان كانت له،وعذر فيما عيب عليه لأنه بذلك حقيق ، فمن ذلك : نسخت من كتاب أعطانيـه أبو الفضل العباس بن أحمد بن ثوابةَ رحمه الله بخط اسحق في قرطاس وأنا أعرف خطه ، وجواب لابراهيم بن المهدي في ظهره بخط ضعيف ، وأظنه خطّه ، لأنه لو كان خطّ كاتب لكان أجود من ذلك الخط .

هذه أمور صغيرة في ظاهرها ، ولكن لها شأناً في التحقيق ، فمن شدة انتباه أبي الفرج نجده يعتني بكل شئ ، حتى بالخط ، فيرى فيه اصلاً للتحقيق يرجع اليه

---

(١) الجزء ٩ الصفحة ٦٩

ولولا هذا الانتباه الشديد لما أشار الى مسئلة الخط ولا كانت هـذه المسئلة تهمنا في خلال قراءتنا للخبر أو الرواية أو الحديث .

واذا فرغنا من أسلوب تحقيقه بالخط انتقلنا الى اسلوب له آخر في التحقيق من ذلك قوله :(١) أخبرني عمي قال : حدثنا الحسن بن عليل قال : حدثني محمد بن عمرو الأنباري من أبناء خراسان قال : لما ظفر المأمون بابراهيم بن المهدي أحب أن يوبخـه على رؤس النـاس ، قال : فجيء بابراهيم يحجل في قيوده ، فوقف على طرَف الايوان وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال له المأمون : لاسلم الله عليك ولا حفظك ولا رعاك ولا كلأك يا ابراهيم ، فقال له إبراهيم : على رِسْلك يا أمير المؤمنين . فلقد أصبحتَ وليّ ثأري ، والقدرة تذهب الحفيظة ، ومن مدّ له الاغترار في الأمل هجمت به الاناة على التلف ، وقد أصبح ذنبي فوق كل ذنب ، كما أن عفوك فوق كل عفو ...

فلما وصل أبو الفرج الى هذا المقطع من الكلام قال : وقال الحسن بن عليل في خبره : وقد أصبحتُ فوق كل ذي ذنب ، كما أصبح كل ذي عفو دونك ، فان تعاقبْ فبحقك ، وان تعفُ فبفضلك ، قال : فأطرق ملياً ثم رفع رأسه فقال : ان هذين أشارا عليّ بقتلك ، فالتفت فاذا المعتصم والعباس بن المأمون ، فقال يا أمير المؤمنين : أما حقيقة الرأي في معظم تدبير الخلافة والسياسة فقد أشارا عليك به وما غشّاك اذ كان ما كان مني ، ولكنّ الله عودك من العفو عادة جريت عليها دافعاً ما تخاف بما ترجو ، فكفاك الله ، فتبسم المأمون وأقبل على ثُمامة ثم قال : ان من الكلام مايفوق الدر ويغلب السحر ، وان كلام عمي منه ، أطلقوا عن عمي حديده وردوه اليّ مكرّماً ، فلما رد اليه قال : ياعم ! صِرْ الى المنادمة وارجع الى الأنس فلن ترى مني ابداً الا ماتحب ...

انا نجد أن أبا الفرج لما وصل الى هذا الكلام : وقد أصبح ذنبي فوق كل ذنب

---

(١) الجزء ٩ الصفحة ٥٧

كما أن عفوك فوق كل عفو ... قطع هذا الكلام ثم رواه على وجه آخر فقال: وقال الحسن بن عليل في خبره: وقد اصبحتُ فوق كل ذي ذنب، كما أصبح كل ذي عفو دونك ... فان قطع الكلام الأول وروايته على وجه ثان منتهى التدقيق وغاية التحقيق، كل هذا يدلنا على اهتمامه بالذي سماه: التحصيل.

وقد يستدل على صحة الشعر باسم المكان، من هذا القبيل الخبر الآتي[1] رواه عن أبي عبيدة عن أبيه بعد الأسانيد قال:

دخل علينا كثير يوماً وقد أخذ بطرف ريطته وألقى طرفها الآخر وهو يقول هو الله أشعر الناس حيث يقول:

وخبَّرتماني أن تيماء منزل ... لليلى اذا ما الصيف ألقى المراسيا

فهذه شهور الصيف عني قد انقضت ... فما للنوى ترمى بليلى المراميا

ويجر ريطته حتى يبلغ الينا ثم يولي عنا ويجرها ويقول: هو والله أشعر الناس حيث يقول:

وأنت الذي ان شئت كدرتَ عيشتي ... وان شئت بعد الله أنعمت باليا

وأنت الذي ما من صديق ولا عدا ... يرى نِضْو ما أبقيت الا رثى ليا

ثم يرجع الينا ويقول: هو والله أشعر الناس، فقلنا: من تعني يا أبا صخر! فقال ومن أعني سوى جميل، هو والله أشعر الناس حيث يقول هذا ...

وبعد أن انتهى أبو الفرج من هذه الرواية قال: وتيماء خاصةً منزل لبني عذرة وليس من منازل عامر، وانما يرويه عن المجنون من لا يعلمه.

فاستدل بكلمة تيماء في هذا الشعر على صحة نسبته الى جميل، لأن تيماء منزل من منازل قوم جميل.

ثم يستدل في بعض الأحوال بالشعر على صحة رواية من الروايات قال في بعض الأخبار[2]:

---

(١) الجزء ٧ الصفحة ٨٩

(٢) الجزء ٤ الصفحة ١٨١

أخبرني محمد بن العباس عن عمه عن محمد بن حبيب عن ابن الأعرابي قال : كان الوليد بن عقبة قد استعمل الربيع بن مري بن أوس بن حارثه بن لأم الطائي على الحمى فيما بين الجزيرة وظهر الحيرة ، فأجدبت الجزيرة وكان أبو زبيد في تغلب فخرج بهم ليرعيهم ،فأبى عليه الأوسي وقال : ان شئت ان أرعيك وحدك فعلت والا فلا ، فأتى أبو زبيد الوليد بن عقبة فأعطاه ما بين القصور الحمر من الشأم الى القصور الحمر من الحيرة وجعله له حمى وأخذها من الآخر ، هكذا روى ابن حبيب .

وبعد هذه الراوية روى أبو الفرج رواية أخرى فقال : وأخبرنا بن عبد العزيز قال : حدثنا عمر بن شبة قال : كانت الجنينة في يد مري بن أوس فلما قدم الوليد بن عقبة الكوفة انتزعها منه ودفعها الى أبي زبيد،روى صاحب الأغاني هذين القولين ثم قال : والقول الأول أصح وشعر أبي زبيد يدل عليه في الوليد بن عقبة يمدحه :

لعمر أبيك يا ابن أبي مُرَيّ	لغيرك من أباح لها الديارا
أباح لها أبارق ذاتَ نورٍ	تَرعّى القف منها والعرارا
بحمد الله ثم فتى قريش	أبي وهب غدت بطنا غزارا
أباح لها ولا يحمى عليها	إذا ما كنتم سنةً جزارا
فتى طالت يداه الى المعالي	وطحطحتا المقطعةَ القصارا

✡ ✡ ✡

ومن اهتمامه بالروايات الصحيحة كان إذا روى أحد الرواة شعراً يشك فيه ذكره وقال : ولم أجده في رواية صحيحة ، فقد ذكر قصيدة المنخل اليشكري المشهورة وأولها : (١)

ان كنتِ عاذلتي فسيري	نحو العراق ولا تحوري

ولما وصل الى الأبيات الآتية :

---

(١) الجزء ١٨ الصفحة ١٥٥

ولقد دخلت على الفتـــاة الخدرَ في اليوم المطير
الـكاعب الحسنـاء ترفل في الدمقس وفي الحرير
فدفعتهـــا فتـــدافعت مشي القطاة إلى الغدير
ولثمتهـــا فتنفَّست كتنفس الظبي البهير
فدنت وقالت يا منخَّل ما بجسمكِ من حُرور
ما شفَّ جسمي غيرُ حبِّـك فاهدأي عني وسيري
ولقد شربت من المـدامة بالصغير وبالكبير
ولقد شربت الخمر بالخيـل الاناث وبالذكور
ولقد شربت الخمر بالعبـد الصحيح وبالأسير
فاذا سكرت فانني ربّ الخورنق والسدير
واذا صحوت فانـــني رب الشويهة والبعير
يارُبَّ يومٍ للمنخَّـل قد لها فيه قصير

قال : ومن الناس من يزيد في هذه القصيدة .

وأحبها وتحبني ويحب ناقتها بعيري

ولم أجده في رواية صحيحة .

لا شك في أن البيت الذي زاده الناس في هذه القصيدة هو من روح القصيدة نفسها ولكن أبا الفرج لم يجده في رواية صحيحة فنبَّه على ذلك ، وهذا دليل على حسن التدقيق والتمحيص فقد كان يمكنه أن يثبت البيت ولا حرج عليه في ذلك ولكنه لم يجد هذا البيت في رواية صحيحة فما أحب إثباته دون الاشارة إلى ذلك .

* * *

والآن ننظر في أسلوب من تحقيقه يختلف عن الأساليب المتقدمة .

روى الأبيات الآتية في أخبار مروان بن أبي حفصة[1] .

---

(١) الجزء ٩ الصفحة ٥٤

قل لمن صدّ عاتبا ونأى عنك جانبا
قد بلغت الذي أردت وإن كنت لاعبا
واعترفنا بما ادعيت وإن كنت كاذبا
فافعل الآن ما أردت فقد جئتُ تائبا

فقال :

يقال : إن الشعر لاسحق ولم أجده في مجموع شعره .

فمعنى هذا أنه لا يكتفي بمجرّد القول وإنما يكلف نفسه عناء البحث والتنقيب فيطالع ديوان الذي ينسبون اليه شعراً ما حتى يتوثق في هذه النسبة .

ومن هذا النوع روايته للأبيات الآتية(١) .

ومقالها بالنَّعْف ، نعف مُحسِّرِ لفتاتها : هل تعرفين المعرضـا
ذاك الذي أعطى مواثق عهده أن لا يخونَ وخلتُ أن لن ينقُضا
فلئن ظفرتُ بمثلها من مثله يوماً ليعترفنَّ ما قد أقرضا

قال بعد هذه الرواية :

الشعر لخالد القسْري ، والناس ينسبونه إلى عمر بن أبي ربيعة ، ثم يذكر الرواية في أن هذا الشعر لخالد ، قال :

أخبرنا محمد بن خلف وكيع قال : أخبرني عبدالواحد بن سعيد قال : حدّثني أبو بشر محمد بن خالد البَجَلي قال : حدّثني أبو الخطّاب بن يزيد بن عبد الرحمن قال : سمعت أبي يحدث قال : حدثني مِسْمعُ بن مالك بن جَحْوش البَجَلي قال : ركب خالد بن عبد الله وهو أمير العراق وهو يومئذ بالكوفة إلى ضيعته التي يقال لها : المكرخة وهي من الكوفة على أربعة فراسخ وركبت معه في زورق فقال لي: نشدتك الله يا ابن جحوش هل سمعت غَرِيض مكة يتغنى :

ومقالها بالنَّعْف نعف محسِّرِ لفتاتها : هل تعرفين المعرضـا

---

(١) الجزء ١٩ الصفحة ٥٢

قال : قلت نعم ، قال : الشعر والله لي والغناء لغريض مكة .

قال أبو الفرج : وما وجدت هذا الشعر في شيء من دواوين عمر بن أبي ربيعة التي رواها المدنيون والمكيون ، وإنما يوجد في الكتب المحدثة والاسنادات المنقطعة .

وهكذا نراه يرجع إلى الدواوين ليبحث فيها عن صحة النسبة .

ولا بأس بأن نستمر في هذه الاستشهادات ، يقول في إحدى رواياته بعد الأسانيد[١] : إن الرشيد كتب في إشخاص الزبير بن دحمان إلى مدينة السلام فوافاها واتفق قدومه في وقت يخرج الرشيد إلى الري لمحاربة بنداد هرمز أصبهبذ طبرستان، فأقام الزبير بمدينة السلام إلى أن دخل الرشيد ، فلما قدم دخل عليه بالخيزرانة وهو الموضع الذي يعرف بالشماسية ، فغناه في أول غنائه صوتاً في شعر قاله هو أيضاً في الرشيد ، مدحه به وذكر خروجه إلى طبرستان وهو :

ألا إن حزب الله ليس بمعجز ... وأنصاره في منعة المتحرز

أبى الله أن يعص لهرون أمره ... وذلت له طوعاً يد المتعزز

إذا الراية السوداء راحت أو اغتدت ... إلى هارب منها فليس بمعجز

لطاعت لهرون العداة لدى الوغى ... وكبر للإسلام بندار هرمز

قال أبو الفرج بعد هذا :

ويذكر ابراهيم بن المهدي أن الشعر للزبير بن دحمان وهذا خطأ، الشعر لأبي العتاهية ، وهو موجود في شعره من قصيدة طويلة مدح بها الرشيد .

وإذا فرغنا من هذه التحقيقات كلها ، وقد اطلعنا على أساليبها ، ختمنا هذا الباب بتحقيقات يرجع فيها أبو الفرج إلى ما نسميه في هذا العصر : المحاكمة العقلية، فقد تكلم على سبب تنصر النعمان بن المنذر الأكبر[٢] وعلى إدخال عدي بن زيد

---

(١) الجزء ١٧ الصفحة ٧٤

(٢) الجزء ٢ الصفحة ٣٣

إياه في النصرانية وروى خبراً في هذا المعنى عن الزيادي الكلبي جاء فيه : وقال أحمد ابن عبيد الله في خبره عن الزيادي الكلبي : فرجع النعمان من وجهه وقال لعدي اثتني الليلة إذا ماهدأت الرجل لتعلم حالي ، فأتاه فوجده قد لبس المسوح وتنصّر وترهب وخرج سائحاً على وجهه ، فلا يدري ما كانت حالته ، فتنصّر ولده بعده وبنوا البيع والصوامع ، وبنت هند بنت النعمان بن المنذر الدير الذي بظهر الكوفة يقال له : دير هند ، فلما حبس كسرى النعمان الأصغر أباها ومات في حبسه ، ترهبّت هند ولبست المسوح وأقامت في ديرها مترهبةً حتى ماتت فيه فدفنت فيه.

قال أبو الفرج بعد هذه الرواية : إني ذكرت الخبر الذي رواه الزيادي على ما فيه من التخليط لأني إذا أتيت بالقصة ذكرتُ ما يُروى في معناها ، وهو خبر مختلط ، لأن عدي بن زيد إنما كان صاحب النعمان بن المنذر وهو المحبوس ، والنعمان الأكبر لا يعرفه عدي ولا رآه ولا هو جد النعمان الذي صحبه عدي كما ذكر ابن زياد ، وقد ذكرت نسب النعمان آنفاً ولعل هذا النعمان الذي ذكره عم النعمان بن المنذر الأصغر بن المنذر الأكبر ، والمتنصّر السائح على وجهه ليس عديٌ أدخله في النصرانية ، وكيف يكون هو المدخل له في النصرانية وقد ضربه مثلاً للنعمان في شعره لما حبسه مع من ضربه مثلاً له من الملوك السالفة .

ومن هذا الشكل تحقيق آخر في نسب الثريا بنت علي بن عبد الله بن الحرث ابن أمية الأصغر بن عبد شمس بن عبد مناف وهم الذين يقال لهم العبلات .

فقد ذكر الزبير بن بكار عن عمه أن الثريا هذه إنما هي أخت محمد بن عبدالله المعروف بأبي جِراب العبلي الذي قتله داود بن علي ، فرد أبو الفرج على هذا القول فقال(١) :

وهذا غلط من ابن الزبير عندي ، والثريا بان تكون بنت عبد الله بن الحرث أشبهُ من أن تكون أخت الذي قتله داود بن علي ، لأنها ربّت الغريض المغني

---

(١) الجزء ١ الصفحة ٨٢

وعلّمته النوح بالمراثي على من قتله يزيد بن معاوية من أهلها يوم الحرة ، وإذا كانت قد ربّت الغريض حتى كبر وتعلّم النوح على قتلى الحرّة وهي وقعة كانت بعقب موت معاوية فقد كانت في حياة معاوية امرأة كبيرة ، وبين ذلك وبين من قتله داود بن علي من بني أمية نحو ثمانين سنة ، وقد شبّب بها عمر بن أبي ربيعة في حياة معاوية ، وأنشد عبد الله بن العباس شعره فيها ، فكيف تكون أخت الذي قتله داود بن علي ، وقد أدركت عبد الله بن العباس وهي امرأة كبيرة ، وقد اعترف الزبير أيضاً في خبره بأن عبد الله بن الحرث أدرك خلافة معاوية وهو شيخ كبير ، فقول من قال إنها بنته أصوب من قول من قرنها بمن قتله داود بن علي ، وهذا القول الذي قلته قول ابن الكلبي وأبي اليقظان ، أخبرني به الحسن بن علي عن أحمد بن الحرث عن المدائني عن أبي اليقظان ، قال : وحدثني به جماعة من أهل العلم بنسب قريش .

❀❀❀

التراجم في الأغاني

أبدأ في هذا الفصل بالكلام على الناحية الأولى من النواحي التي عزمت على ذكرها في هذا الكتاب وأعني بها تراجم طبقات من الشعراء والمغنين وغيرهم ، واذا كنت قد راقني شيء في هذه التراجم فقد راقني فيها وصف هيآت أصحابها وملابسهم ومآكلهم ومشاربهم وغير ذلك ، إني لا أرى فائدة في الاستقصاء وإنما أرى أن في ذكر أنماط من وصف الهيآت والملابس والمآكل مقنعاً ، ففي هذه النماذج صورة كافية .

وربّ قائل يقول : وما فائدة الهيآت في التراجم ، لاشيء يخلو من فائدة ، فأن أبا الفرج لما تكلم على المغني ابن محرز[1] نقل عن إسحاق انه كان قليل الملابسة للناس ، فأخمل ذلك ذكرَه فما يذكر منه إلا غناؤه .

فنحن لاندري لماذا كان قليل الملابسة للناس ، ولكننا إذا قرأنا في الترجمة نفسها مافال إسحاق : وكانت العلّة التي مات بها الجذام ، فلم يعاشر الخلفاء ولا خالط الناس لأجل ذلك، عرفنا السرّ في قلة ملابسته للناس .

كثيراً ما ذكر أبو الفرج الهيآت في تراجمه ، حتى هيآت قدماء الشعراء ، فمن طرائف الأمور أن نعرف هيئة شاعر من قدماء الشعراء في الجاهلية[2] ويقال انه أول من قال الشعر من نزار وهو أقدم من امرئ القيس ، ولقيه امرؤ القيس في آخر عمره فأخرجه معه إلى قيصر لما توجه اليه فمات معه في طريقه وسمته العرب: عمر الضائع، لموته في غربة وفي غير أرب ولا مطلب .

---

(١) الجزء ١ الصفحة ١٤٦

(٢) الجزء ١٦ الصفحة ١٥٨

هذا الشاعر اسمه عمْرو بن قَمِيئَة ، كان شاباً جميلاً حسن الوجه مديد القامة حسن الشعرة ، وكانت سبابتا قدميه ووسطيها ملتصقتين وكان حيُّه محباً له ، معجباً به ، رقيقاً عليه .

وقد تفنن في ذكر الهيآت ، وبلغ من تفننه أنه كان في بعض الأحيان يذكر طول الشاعر فأبو زبيد الطائي وهو ممن أدرك الجاهلية والاسلام كان طوله ثلاثة عشر شبراً وكان ممن إذا دخل مكة دخلها متنكراً لجماله(١) .

وكما وصف جمال أصحاب التراجم فقد وصف قبحهم فكثيرٌ كان دميما قليلا أحمر أقيشر عظيم الهامة قبيحاً(٢) .

ولم يقتصر في تراجمه على وصف هيآت الرجال وحدهم وإنما وصف النساء أيضاً ، من ذلك وصفه لعزّة الميلاء قال(٣) : وكانت من أجمل النساء وجهاً وأحسنهن جسماً وسميت الميلاء لتمايلها في مشيها ، وقيل بل كانت تلبس المُلاءَ وتشبه بالرجال فسميت بذلك ، وقيل بل كانت مغرمةً بالشراب وكانت تقول خذ ملئاً واردد فارغاً ، ويرى أبو الفرج أنها سميت الميلاء لميلها في مشيها .

وقد نجد في بعض المواطن من التراجم وصف هيئة من الهيآت لانكاد نجد مثله في هذا العصر ، من ذلك وصف هيئة ذي الرُمَّة(٤) .

كان مدوّر الوجه ، حسن الشعرة ، جمدها ، أقنى ، أنزع ، خفيف العارضين ، أكحل ، حسن الضحك ، مُفوّهاً ، إذا كلمك كلك أبلغ الناس ، يضع لسانه حيث يشاء . وقد رأوه باليمامة شيخاً أجناً ، سقاطاً متساقطاً اجتمع الناس مرة وتحلقوا عليه وكان دميما ، شختاً حتى قالت أمه : أسمعوا إلى شعره ولا تنظروا إلى وجهه ،

---

(١) الجزء ١١ الصفحة ٢٧ .

(٢) الجزء ١١ الصفحة ٥٠

(٣) الجزء ١٦ الصفحة ١٢

(٤) الجزء ١٦ الصفحة ١٠٨

ووصفه آخرون فقالوا : وكان كِناز اللحم ، مربوعاً ، قصيراً ، وكان أنفه ليس بالحسن .

وقبل أن أنتقل إلى الكلام على بعض لباس أصحاب التراجم وزيهم لا أرى بأساً بأن أذكر شيئاً من أوانيهم في دورهم ، فالنابغة كان يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب من عطايا النعمان وأبيه وجده . لايستعمل غير ذلك .

إن عبارة مثل هذه العبارة تعرض علينا صورة من صور البيئة التي عاش فيها النابغة ، وهي بيئة حضارة ، فاذا قابلنا بين بيئة النابغة وبين بيئة أصحاب النعم في هذا العصر رأينا أن الذين يستطيعون أن يأكلوا ويشربوا في آنية الفضة والذهب في أيامنا هذه إنما هم الملوك وأشباه الملوك ، فمعنى هذا ان النابغة كان يعيش عيشة الملوك في عصره .

وكما دلنا الخبر الماضي على تأنق بعض المتقدمين ، حتى فى الجاهلية ،في أوانيهم، فقد يدلنا الخبر الآتي على التأنق في زيهم ، فأبن سريج الذي كان أحسن الناس غناء كان أصلع ، فكان يلبس جمّة مركبة ، معنى هذا أنهم كانوا يتأنقون في ازيائهم، حتى في صدر الاسلام ، فانّ ابن سريج غنّى في زمن عثمان بن عفان .

وكذلك الشاعر أبو دَهْبَل ، فقد كان رجلا جميلا وكانت له جمّة يرسلها فتضربَ منكبيه ، وقال الشعر في آخر خلافة علي بن أبي طالب .

فزيُّ الجمّة كان منتشراً في عصرٍ من العصور ، وهو صدر الاسلام، لقد أخذنا نشعر بمقادير أمثال هذه الأخبار الصغيرة في التراجم ، فانها مادة نرجع اليها في تركيب عصر من العصور من بعض نواحيه ، إما من ناحية الأزياء، وإما من ناحية التأنق في أواني السُفرة أو غير ذلك .

فلنستمر في الاطلاع على هذه الأزياء ، فقد كانت إحدى جواري الرشيد تجلس بين يديه وعليها قميص مورّد وسراويل مورّدة وقناع مورّد ، كأنها ياقوتة على وردة .

وإسحق الموصلي كان يلبس قباءً وخفاً أحمر ويعتصب بعصابة صفراء ويشدُّ وسطه بشقة حمراء من حرير .

يتراءى لنا في هذا كله ذوقهم في الأزياء ، انا نرى تشابه الألوان في لباس إحدى جواري الرشيد وفي لباس إسحق الموصلي ، وهذه أخبار كثيراً مايعنى بهـا رجال الغرب لأنها توضح لهم صورة عصر من العصور .

ولم يقتصر أبو الفرج على ذكر أزياء المغنين من الرجال والنساء ، وإنما وصف أزياء طبقات ثانية ، فهذا قاضي القضاة أحمد بن أبي دواد كان يدخل الى الواثق بسواده وطويلته .

وإنا لنجد في خلال قراءتنا لأخبار الأزياء في تراجمه أخباراً تلهي السمـع ، من ذلك ما رواه أبو الفرج(١) قال :

وحدثني أحمد بن يحي عن رجل قال : حدثني شيخ من بني تميم بخراسان قال: جاء شاعر إلى عبد الله بن جعفر فأنشده :

رأيت أبا جعفر في المنام كساني من الخز دُرّاعه
شكوت إلى صاحبي أمرها فقال ستؤتى بهـا الساعه
سيكسوكها الماجد الجعفري ومن كفه الدهر نفّاعه
ومن قال للجود لا تعدني فقال : لك السمعُ والطاعه

فقال عبد الله لغلامه : ادفـع إليه دُرّاعتي الخز ، ثم قال : كيف لو ترى جبتي المنسوجة بالذهب التي اشتريتها بثلثمائة دينار ، فقـال له الشاعر : بأبي دعني أغفي اغفاءة أخرى ، فلعلي أرى هذه الجبة في المنام ، فضحك منه ، وقال : ياغلام ادفع اليه جبتي الوشي .

هذه أشكال من ملابس بعض الشعراء والمغنين وأزيائهم وهيآتهم نمر عليها في تراجم الأغاني وقد نمر بأشكال ثانية من ملابس الخلفاء في خلال أخبارهم .

قال أبو الفرج :(٢)

وقال أحمد بن المرزُبان : حدثني بعض كتاب السلطان أن الرشيد هبّ ليلة

---

(١) الجزء ١١ الصفحه ٦٥

(٢) الجزء ٥ الصفحة ٢٩

من نومه فدعا بحمار كان يركبه في القصر أسود قريب من الأرض فركبه وخرج في درّاعة وشي متلثماً بعمامة وشي ، ملتحفاً بازار وشي ، بين يديه أربعمائة خادم أبيض سوى الفرّاشين ، وكان مسرور الفرغاني جريئاً عليه لمكانه عنده ، فلما خرج من باب القصر قال : أين يريد أمير المؤمنين في هذه الساعة ، قال : أردت منزل الموصلي فمضى ونحن معه وبين يديه ، حتى انتهى الى منزل إبراهيم ، فخرج فتلقّاه ، وقبّل حافر حماره وقال له : ياأمير المؤمنين ! أفي مثل هـذه الساعة تظهر ، قال : نعم ، شوق طرقلك بي ، ثم نزل فجلس في طرف الايوان ، وأجلس إبراهيم ، فقال له إبراهيم ، ياسيدي ! أتنشط لشيء تأكله ، فقال : نعم ، خاميز ظبي ، فأتى به كأنما كان معداً له فأصاب منه شيئاً يسيراً ، ثم دعا بشراب حمل معه ، فقال الموصلي : ياسيدي ، أؤغنيك ، أم تغنيك إماؤك ، فقال : بل الجواري ، فخرج جواري ابراهيم ، فأخذن صدر الايوان وجانبيه ، فقال : أيضربن كلهن ، أم واحدة ، فقال : بل تضرب اثنتان اثنتان ، وتغني واحدة فواحدة ، ففعلن ذلك حتى مرّ صدر الايوان وأحد جانبيه والرشيد يسمع ولا ينشط لشيء من غنائهن الى أن غنت صبيّة من حاشيته :

ياموري الزند قد أعيت قوادحه إقبس اذا شئت من قلبي بمقباس

ما أقبح الناس في عيني وأسمجهم اذا نظرتُ فلم أبصرك في الناس

قال : فطرب لغنائها واستعاد الصوت مراراً وشرب أرطالاً ثم سأل الجارية عن صانعه ، فأمسكت ، فاستدناها ، فتقاعست ، فأمر بها فأقيمت حتى أوقفت بين يديه ، فأخبرته بشيء أسرته اليه ، فدعا بحماره ، فركبه وانصرف ، ثم التفت الى ابراهيم فقال : ماضرك ان لاتكون خليفة ! فكادت نفسه تخرج ، حتى دعا به وأدناه بعد ذلك ، قال : وكان الذي خبرته ان الصنعة في الصوت لأخته علّية بنت المهدي وكانت الجارية لها وجّهت بها الى ابراهيم يطارحها ، فغار الرشيد .

وهذا نوع آخر من ملابس الرشيد في الصيف .

قال أبو الفرج :(١)

---

(١) الجزء ٥ الصفحة ٣١

أخبرني حبيب بن نصر المهلبي قال : حدثنا علي بن محمد النوفلي قال : حدثنا صالح بن علي ، يعني الأضجم ، عن ابراهيم الموصلي قال : وكان صالح جاره قال : بينا انا عشية في منزلي اذ أتاني خادم من خدم الرشيد ، فاستحثني بالركوب فخرجت شبيهاً بالراكض ، فلما صرت الى الدار عُدل بي عن المدخل الى طرق لا أعرفها فانتهي بي الى دار حديثة البناء ، فدخلت صحنا واسعاً ، وكان الرشيد يشتهي الصحون الواسعة ، فاذا هو جالس على كرسي في وسط ذلك الصحن ليس عنده أحد الا خادم يسقيه ، واذا هو في لبسته التي كان يلبسها في الصيف : غلالة رقيقة متوشّح عليها بازار رشيدي عريض العلم ، مضرّج ، فلما رآني هش لي وسرّ وقال: ياموصلي! اني اشتهيت أن أجلس في هذا الصحن ، فلم يتفق الا اليوم ، واحببت ألاّ يكون معي ومعك أحد ، ثم صاح بالخدام ، فوافاه مائة وصيف ، وإذا هم بالأروقة مستترون بالأساطين حتى لا يراهم ، فلما ناداهم جاؤا جميعاً فقال : مقطّعة لابراهيم ، وكان هو أول من قطع المصلّيات ، فأتيت بمقعد فألقي لي تجاه وجهه بالقرب منه ودعا بعود فقال بحياتي أطربني بما قدرت ، قال ففعلت واجتهدت في ذلك ونشطت ورجوت الجائزة في عشيتي ، فبينا أنا كذلك اذ جاءه مسرور الكبير فقام مقامه الذي كان اذا قامه علم الرشيد انه يريد ان يسارّه بشيء فأومأ اليه بالدنو فألقى في أذنه كلمة خفية ثم تنحى ، فاستشاط غضباً واحمرت عيناه وانتفخت أوداجه ثم قال : حتّام أصبر على آل بني أبي طالب ، والله لأقتلنهم ولأقتلن شيعتهم ، ولأفعلن ولأفعلن ، فقلت : انا لله! ليس عند هذا احد يخرج غضبه عليه ، أحسبه والله سيوقع بي فاندفعت أغني:

نعم عونا على الهموم ثلاث	مترعات من بعدهن ثلاث
بعدها أربــع تتمة عشر	لابطاء لكنهن حثاث
فاذا ناولتكهنّ جوار	عطرات بيض الوجوه خناث
تم فيها لك السرور وما طيّـ	ـب عيشاً الا الخناث الاناث

قال : ويلك اسقني ثلاثاً لا أمت هماً ، فشرب ثلاثاً متتابعة ثم قال: غنّ ، فغنيت فلما قلت : ثلاث، مترعات من بعدهن ثلاث قال: هات ويلك ثلاثاً ، ثم قال لي :غنّ

فلما غنيته قال : حثّ علي بأربع تتمة العشر ، ففعل ، فوالله ما استوفى آخرهن حتى سكر ، فنهض ليدخل ثم قال : قم ياموصلي فانصرف ، يامسرور ! أقسمت عليك بحياتي وبحقي الا شيعته الى منزله بمائة الف درهم لا أُستأمر فيها ولا في شيء منها ، ، فخرجت والله وقد أمنت خوفي وأدركت ما أملت ، واوفيت منزلي ، وقد سبقتني المائة الالف الدرهم اليه .

والوليد بن يزيد كان عليه في بعض الأحيان جبة وشي ورداء وشي وخف وشي وفي يده عقد جوهر .

وقد تجتمع أخبار المآكل والملابس في بعض الأحوال في آن واحد(١)

لما قدم الرشيد الرافقة أنشده عبد الملك بن صالح الهاشمي قصيدة كلثوم ابن عمرو العتابي التي أولها :

ماذا شجاك بحوارين من طلل ودمنة كشفت عنها الأعاصير

يقول فيها :

هـذه يمينك في قرباك صائلة وصارم من سيوف الهند مشهور

ان كان منا ذوو افك ومارقة وعصبة دينها العدوان والزور

فان منّا الذي لايستحث اذاً حث الجياد وضمتها المضامير

مستنبط عزمات القلب من فكر ما بينهن وبين الله معمور

فقال الرشيد: لمن هذه ، فقال: لرجل من بني عتاب ، يقال له عمرو بن كلثوم فقال: وما يمنعه أن يكون ببابنا ،فأمر باشخاصه من رأس عين ، فوافى الرشيد وعليه قميص غليظ وفروة وخف وعلى كتفه ملحفة جافية بغير سراويل ، فلما رفع الخبر بقدومه أمر الرشيد بأن يفرش له حجرة ويقام له وظيفة ، ففعلوا، فكانت المائدة اذا قدمت اليه أخذ منها رقاقة وملحاً وخلط الملح بالتراب فأكله بها ، فاذا كان وقت النوم نام على الأرض والخدم يتفقدونه ويتعجبون من فعله ، وسأل الرشيد عنه فأخبروه بأمره فأمر بطرده .

---

(١) الجزء ١٢ الصفحة ٨

ومن هذا النوع الخبر الآتي . (١) قال أبو الفرج :

أخبرني أحمد بن عمّار قال : حدثنا علي بن محمد النوفلي قال : سمعت أبي يقول: كان المهدي يعطي مروان وسلما الخاسر عطية واحدة وكان سلم يأتي باب المهدي على البرذَوْن ، قيمته عشرة آلاف درهم ، والسرج واللجام المقدوذين ، ولباسه الخز والوشي وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الأثمان ، ورائحة المسك والغالية والطيب تفوح منه ، ويجيء مروان وعليه فرو كبش وقميص كرابيس وعمامة كرابيس وخفّا كَبْل و كساء غليظ منتن الرائحة ، وكان لا يأكل اللحم بخلاً حتى يقرم إليه ، فاذا قرم أرسل غلامه فاشترى له رأساً فأكله ، فقيل له : نراك لا تأكل الا الرؤس في الصيف والشتاء فلمَ تختار ذلك ، قال : نعم ، الرأس أعرف سعره ، ولا يستطيع الغلام أن يغبنني فيه ، وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه ، ان مسّ عيناً أو أذناً أو خداً وقفت عليه ، فآكل منه ألواناً ، آكل عينيه لوناً وأذنيه لوناً . وغلصمته لوناً وأكفى مؤونة طبخه ، فقد اجتمعت لي فيه مرافق .

❀ ❀ ❀

ليست غايتي في هذا الفصل الاستقصاء في ذكر التراجم في كتاب الأغاني وإنما غايتي ذكر نماذج منها يسيرة نقف بها على وصف الهيآت والمآكل والمشارب والملابس ، ولا أحب أن أغلق هذا الباب دون الاستشهاد بفصل من الفصول يشتمل على أكثر مما ذكرت ، فاذا رجعنا إلى ترجمة إسحق بن ابراهيم(٢) وجدنا فيها من الخصائص ما لا نجد كثيراً مثله في كتب التراجم ، فكأن أبا الفرج يصف إسحق الوصف الذي يناسبه المناسبة كلها ، فهو يلبسه اللباس الذي لا يزيد على

---

(١) الجزء ٩ الصفحة ٣٧ .

(٢) الجزء ٥ الصفحة ٤٩

مقدار جسمه ولا ينقص عنه ، وهذا هو فنّ التراجم ، وقد نجد كثيراً من أصحاب التراجم في القديم إذا مضى لهم قول في بعض الشعراء أو الكتاب أوغيرهم كان قولهم عاماً يطلق في كل واحد من الشعراء والكتاب ، أما أبو الفرج في ترجمة إسحق بن ابراهيم وفي بعض تراجمه فانه كثير التدقيق في الوصف بحيث لا ينتهي القاريء من قراءة الترجمة إلاوصاحبها مائل لعينيه ، وأظن أن ذكر شيء من ترجمة إسحق بن ابراهيم أبلغ دليل على ما ذكرت، وهذا بعض نص هذه الترجمة :

وموضعه من العلم ومكانه من الأدب ومحله من الرواية وتقدمه في الشعر ومنزلته في سائر المحاسن أشهر من أن يدل عليه فيها بوصف ، وأما الغناء فكان أصغر علومه وأدنى ما يوسم به وإن كان الغالب عليه وعلى ما كان يحسنه فانه كان له في سائر أدواته نظراء وأكفاء ، ولم يكن له في هذا نظير ، فانه لحق بمن مضى فيه وسبق من بقي ، وألحب للناس جميعاً طريقه فأوضحها، وسهل عليهم سبيله وأنارها فهو إمام أهل صناعته جميعاً ورأسهم ومعلمهم ، يعرف ذلك منه الخاص والعام ويشهد به الموافق والمفارق على أنه كان أكره الناس للغناء وأشدهم بغضاً لأن يدعى اليه أو يسمى به ، وكان يقول : لوددت أن أضرب كلما أراد مريد مني أن أغني وكلما قال قائل إسحق الموصلي المغني عشر مقارع ، لا أطيق أكثر من ذلك ، وأعفى من الغناء ولا ينسبني من يذكرني اليه ، وكان المأمون يقول : لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء لوليته القضاء بحضرتي فانه أولى به وأعف وأصدق وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة ، وقد روى الحديث ولقي أهله مثل مالك بن أنس وسفيان بن عيينه وهشيم بن بشير وابراهيم بن سعد وأبي معاوية الضرير وروح بن عبادة وغيرهم من شيوخ العراق والحجاز وكان مع كراهته للغناء أضنّ خلق الله وأشدهم بخلاً به على كل أحد ، حتى على جواريه وغلمانه ومن يأخذ عنه منتسباً اليه متعصباً له فضلاً عن غيرهم وهو الذي صحح أجناس الغناء وطرائقه وميزه تمييزاً لم يقدر عليه أحد قبله ولا تعلق به أحد بعده . . . .

العامة

ذكرت في فاتحة القول اننا إذا كنا نقرأ الأغاني للوقوف على شيء أكثر من الشعر، وأبعد من الأخبار فقد ضعنا في هذا الكتاب لأن الحياة التي أذاع لنا أسرارها مديدة الآفاق، ولقد شعرت من اليوم بهذا الضياع، رجعت إلى دفاتري لأجمع منها مايصور لنا طائفة من الحياة في قديم عصورنا فازدحمت عليّ العناصر حتى أدركتني الحيرة في الأخبار، ما اكثر المداخل التي دخلها أبو الفرج في كتابه حتى سألت نفسي هذا السؤال: هل مرّ عليه شيء لم يذكره.

لم أفرح بأخبار الخلفاء والأمراء والعمال فرحي بأخبار العامة، لأننا لانعرف عنها شيئاً، فقد دوّن بعض المؤلفين سير أعاظم الرجال، وأهملوا حياة الناس حتى كادت أخبار العامة تذهب عنا فلا يزال بعضنا يسأل بعضا: كيف كان الناس يعيشون في تلك العصور، كيف كانت مجتمعاتهم وأنديتهم ونزههم وملاهيهم ومآكلهم ومشاربهم، كيف كانت مدارسهم، والخلاصة كيف كانت حياتهم.

وصف لنا أبو الفرج أشياء كثيرة من هذا النوع بحيث اذا أردنا أن نجمع عناصرها استطعنا أن نركّب من هذه العناصر عصراً برمته أو حياة بحذافيرها، غير أني لا أرمي في هذا الكتاب الى التعرض لكل ما وصفه أبو الفرج في أغانيه ولا أتوخى وضع فهرس يجمع موضوعاته، فقد ذهبت عني أشياء كثيرة في الأغاني لم أشر اليها في هذه الفصول، وانما الذي أرمي اليه جمع صور قليلة تعرض علينا جملة من نواحي الحياة العامة أو الحياة الخاصة في عصر أبي الفرج وفي العصور التي قبله، فاذا نظرنا في هذه الصور أحطنا بأمور غير قليلة من أخبار الناس وأخبار الخلفاء في زمن بني العباس وبني أمية، وحينئذ ندرك فضل كتاب الأغاني في هذا الضياء الذي ألقاه الينا.

أحب قبل كل شيء أن أشير الى أخبار العامة التي نقلها أبو الفرج في أغانيه،

لقد تتبع العامّة في مقادير عقولها وتدليسها ولغتها ومعتقداتها وتسلطها على الخاصة بحيث نستطيع الموازنة بين العامة في غابرنا والعامة في حاضرنا ، فنصل الى تشابههم في جملة من أوضاعهم ولولا هذه الأخبار التي رواها أبوالفرج لما وجدنا الى معرفة هذا التشابه سبيلا .

اذا أردنا ان نعرف طرفاً مما نسميه في عصرنا هذا : عقلية العامة ، فلنقرأ الخبر الآتي :(١) قال أبو الفرج :

أخبرني الحسن بن علي قال : حدثنا ابن مهرويه قال : حدثني عثمان الوراق قال: رأيت العتابي يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام ، فقلت له : ويحك أما تستحي ! فقال لي : أرأيت لو كنا في دار فيها بقر كنت تستحي وتحتشم أن تأكل وهي تراك فقال : لا ، قال : فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر ، فقام فوعظ وقصّ ودعا حتى كثر الزحام عليه ، ثم قال لهم : روى لنا غير واحد أنه من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار ، فما بقي أحد الا وأخرج لسانه يومئ به نحو أرنبة أنفه ويقدر حتى يبلغها أم لا ، فلما تفرقوا قال لي العتابي : ألم أخبرك أنهم بقر !

من هذا الخبر يتبين لنا أن العامة عامة في كل دهر ، وقد تختلف مظاهر عقليتهم اختلافات يسيرة وانما جوهر هذه العقلية يبقى واحداً .

وكما كشف لنا أبو الفرج عن بعض عقلية العامة فقد كشف لنا عن بعض معتقداتها فنقل في كتابه مايلي :(٢)

وكان سعيد بن خالد هذا تأخذه الموتة في كل سنة فأرادوا علاجه فتكلمت صاحبته على لسانه وقالت: أنا كريمة بنت ملحان سيد الجن ، وان عالجتموه قتلتموه، فوالله لو وجدت أكرم منه لهويته .

أفلا نزال نشاهد في هذا الدهر ناساً يعتقدون انفلاناً تلبسه جنية أو تصحبه

(١) الجزء ١٢ الصفحة ٤

(٢) الجزء ٣ الصفحة ١١

جنية فاذا أصابه الصرْع تكلمت هذه الجنية على لسانه فقالت لأهله وذويه : لاتعذبوه لاتفعلوا به كذا .

واستقصى أبو الفرج في بعض أخبار العامة حتى وصف تدليسهم ، فمن الناس من يصلي ويصوم ولكنه لايعف عن المال الحرام ، ومنهم من لايصلي ولايصوم ولكنه لايأكل المال الحرام وقد كان مثل هذه الطبقة في القديم فقد جاء في الأغاني(١).

وكان لابن بيض ، وهو شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية ، صديق من عمال ابن هبيرة ، فاستودع رجلاً ناسكاً ثلاثين ألف درهم واستودع مثلها رجلاً نبيذياً ، فأما الناسك فبنى بها داره وتزوّج النساء وأنفقها وجحدها وأما النبيذي فأدى اليه الأمانة ، فقال ابن بيض فيهما :

ألا لا يغرنّك ذو سجدة ... يظل بها دائباً يخدع

كأنّ بجبهته جُلْبة ... يسبّح طوراً ويسترجع

وما للتقى لزمت وجهه ... ولكن ليغترّ مستودع

فلا تنفرنّ من أهل النبيذ ... وان قيل يشرب لا يقلع

فعندك علم بما قد خبر ... ت إن كان علم بها ينفع

ثلاثون ألفاً حواها السجود ... فليست الى أهلها ترجع

بنى الدار من غير ما ماله ... يقاتون أرزاقهم جوع

وعلى الرغم من هذه العقلية ومن هذه المعتقدات الغريبة ومن هذا التدليس كان أصحاب الطبقات الرفيعة يدارون العامة ويخافون شرهم ، وهذه قصة أبي يوسف القاضي وابن جامع المغني(٢) :

قال هرون : وحدثني علي بن محمد النوفلي ، قال : حدثني صالح بن علي بن عطية وغيره من رجال أهل العسكر قالوا : قدم ابن جامع قدمة له من مكة

---

(١) الجزء ١٥ الصفحة ١٧

(٢) الجزء ٦ الصفحة ٦٦

على الرشيد ، وكان ابن جامع حسن السمت ، كثير الصلاة قد أخذ السجود جبهته ، وكان يعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة ، ويلبس لباس الفقهاء ويركب حماراً مريسياً في زي أهل الحجاز ، فبينا هو واقف على باب يحي ابن خالد يلتمس الاذن عليه ، فوقف على ما كان يقف الناس عليه في القديم حتى يأذن لهم أو يصرفهم ، فأقبل أبو يوسف القاضي بأصحابه أهل القلانس ،فلما هجم على الباب نظر الى رجل يقف الى جانبه ، ثم قال له : أمتع الله بك ، توسمت فيك الحجازية والقرشية ،قال: أصبت ، قال : فمن أي قريش أنت، قال: من بني سهم قال : فأي الحرمين منزلك، قال: مكة ،قال: ومن لقيت من فقهائهم، قال: سل عمن شئت، ففاتحه الفقه والحديث فوجد عنده ماأحب، فأعجب به، ونظر الناس اليها، فقالوا: هذا القاضي قد أقبل على المغني ، وأبو يوسف لايعلم انه ابن جامع ، فقال أصحابه : لو أخبرناه عنه ، ثم قالوا: لا، لعله لايعود الى مواقفته بعد اليوم، فلِمَ نغمه ، فلما كان الاذن الثاني ليحي غدا عليه الناس وغدا عليه أبو يوسف ، فنظر يطلب ابن جامع ، فرآه، فذهب فوقف الى جانبه فحادثه طويلاً كما فعل في المرة الأولى ، فلما انصرف قال له بعض أصحابه أيها القاضي : أتعرف هذا الذي تواقف وتحادث ، قال : نعم ، رجل من قريش من أهل مكة، من الفقهاء ، قالوا: هذا ابن جامع المغني ، قال : انا لله ، قالوا : ان الناس قد شهروك بمواقفته ، وأنكروا ذلك من فعلك ، فلما كان الاذن الثالث جاء أبو يوسف ونظر اليه فتنكبه ، وعرف ابن جامع انه قد أنذر به ، فجاء فوقف فسلم عليه ، فرد السلام عليه أبو يوسف بغير ذلك الوجه الذي كان يلقاه، ثم انحرف عنه ، فدنا منه ابن جامع وعرف الناس القصة ، وكان ابن جامع جهيراً فرفع صوته ثم قال : ياأبا يوسف ! مالك تنحرف عني ، أي شيء أنكرت ، قالوا لك اني ابن جامع المغني فكرهت مواقفتي لك ، أسألك عن مسئلة ثم اصنع ما شئت ، ومال الناس فأقبلوا نحوهما يستمعون ، فقال : يا أبا يوسف ! لو أن أعرابياً جلفاً وقف بين يديك فأنشدك بجفاء وغلظة من لسانه وقال :

يادار ميَّة بالعلياء فالسند ... أقوت وطال عليها سالف الأبد

أكنت ترى بذلك بأساً ، قال : لا ، قد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم في الشعر قول ، وروي في الحديث ، قال ابن جامع : فان قلت أنا : هكذا ، ثم اندفع يتغنى فيه حتى أتى عليه ، ثم قال : يا أبا يوسف رأيتني زدتُ فيه أو نقصت منه ، قال : عافاك الله ، أعفنا من ذلك ، قال : يا أبا يوسف أنت صاحب فتيا ماز دته على أن حسنتُه بألفاظي ، فحسن في السماع ووصل الى القلب ، ثم تنحى عنه ابن جامع.

وهكذا نجد القاضي أبا يوسف، وهو من هو، يحسب للعامة حساباً ويداريهم على أنا سنمر في أخبار حرية العصور بخبر يدل على أن قاضي القضاة يحي بن أكثم كان يسمع الغناء في دار المأمون، ولا يبالي .

ولم يخش القضاة وحدهم شر العامة وانما خشي هذا الشر الشعراء أنفسهم.

قال ابو الفرج :(١)

اخبرني محمد بن جعفر قال : حدثني محمد بن موسى عن أحمد بن حرب عن محمد بن أبي العتاهية قال : لما قال أبي في عُتْبة :

كأن عتابة من حسنها   دمية قس فتنت قسها

يارب لو أنسيتنيها بما   في جنة الفردوس لم أنسها

شنّع عليه المنصور بن عمار بالزندقة وقال : يتهاون بالجنة ويبتذل ذكرها في شعره بمثل هذا التهاون ، وشنّع عليه ايضاً بقوله :

ان المليك رآكِ أحسـ   ـن خلقه ورأى جمالك

فحذا بقــدرة نفسه   حور الجنان على مثالك

وقال : أيصوّر الحور على مثال امرأة آدمية ، واللهُ لا يحتاج إلى مثال ، وأوقع له هذا على ألسنة العامة ، فلقي منهم بلاء .

وهكذا كانت العامة تتسلط على القضاة أو على الشعراء ، فيضطرون إلى مداراتهم.

وقد وقع إلينا شيء من لغة العامة ، من هذا القبيل ما قاله شيخ من أهل

---

(١) الجزء ٣ الصفحة ١٤٦

بغداد(١) .

قال أبو العتاهية : أكثر الناس يتكلمون بالشعر وهم لا يعلمون ، ولو أحسنوا تأليفه كانوا شعراء كلهم ، قال : فبينما نحن كذلك إذ قال رجل لآخر عليه مِسحٌ : ياصاحب المسح تبيع المسحا ، فقال لنا أبو العتاهية : هذا من ذلك ، ألم تسمعوه يقول : ياصاحب المسح تبيع المسحا ، قد قال شعراً وهو لا يعلم ، ثم قال الرجل : تعال إن كنت تريد الربحا ، فقال أبو العتاهية وقد أجاز المصراع بمصراع آخر وهو لا يعلم ، قال له : تعال إن كنت تريد الربحا .

الاّ أن هذه اللغة لم تكن لغة الناس كلهم ، فليس هذا النوع من الشعر بمقياس يقاس عليه ، وإذا قابلنا بين هذا الطرز من الكلام وهو عباسي ، وبين الطرز الآتي من الأغاني وهو أموي أدركنا صحة ذلك .

قال معبد(٢) :

أرسل إليّ الوليد بن يزيد فأشخصتُ اليه ، فبينا أنا يوما في بعض حمّامات الشام إذ دخل عليّ رجل له هيبة ومعه غلمان له ، فأطلي واشتغل به صاحب الحمّام عن سائر الناس ، فقلت : والله لئن لم أطلع هذا على بعض ما عندي لأكوننّ بمزجر الكلب ، فاستدبرته حيث يراني ويسمع مني ، ثم ترنمت فالتفت إليّ وقال للغلمان : قدموا اليه ما ههنا ، فصار جميع ما كان بين يديه عندي ، قال : ثم سألني أن أسير معه إلى منزله فأجبته ، فلم يدع من البر والاكرام شيئاً إلاّ فعله ، ثم وُضع النبيذ ، فجعلت لا آتي بحسن إلا خرجت إلى ما هو أحسنُ منه ، وهو لا يرتاح لا يحفل لما يرى مني ، فلما طال عليه أمري قال : ياغلام ! شيخنا شيخنا ! فأتي بشيخ ، فلما رآه هشّ اليه ، فأخذ الشيخ العود ثم اندفع يغني :

جاء القط أكله وبلي علوه !   سلور في القدر وبلي علوه

السلور : السمك البحري ، بلغة أهل الشام ، قال : فجعل صاحب المنزل يصفق ويضرب برجله طربا وسرورا ثم غناه :

---

(١) الجزء ٣ الصفحة ١٤٠

(٢) الجزء ١ الصفحة ٢٦

وترميني حبيبة بالدُراقن   وتحسبني حبيبة لا أراها

الدراقن : إسم الخوخ بلغة أهل الشام ، قال : فكاد أن يخرج من جلده طرباء قال : وانسللت منهم فانصرفت ولم يعلم ما بي ، فما رأيت مثل ذلك اليوم قط غناء أضيع ولا شيخاً أجهل .

هذا شيء من لغة العامة وأغانيها في تلك العصور ، وقد نحتاج إلى الخبر الأخير في كلامنا على تصوير قلة ذوق أهل الشام في الغناء ، إلا أنا ذكرنا الخبر في هـذا الموضع لنرى فيه طرزاً من أغاني العامة .

وقد يهمنا أن نعرف أن لغة العامة قد فسدت واستفاض اللحن فيها وأنّ بعض الخلفاء كانوا يتأذون بفسادها (١) .

قال أبو العتاهية : كان الرشيد ممّا يعجبه غناء الملاّحين في الزلالات إذا ركبها وكان يتأ ّذى بفساد كلامهم ولحنهم فقال : قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعراً يغنون فيه ، فقيل له : ليس أحد أقدر على هذا من أبي العتاهية وهو في الحبس ، فوجه إليّ الرشيد : قل شعراً حتى أسمعه منهم ولم يأمر باطلاقي ، فغاظني ذلك فقلت : والله لأقولنّ شعراً يحزنه ولا يسر به ، فعملت شعراً ودفعته إلى من حفّظه الملاحين ، فلما ركب الحراقة سمعه إلى آخر الخبر ....

كما أنه يهمنا أن نعرف أن اللغة الفارسية كانت شائعةً في العامة في بعض العراق كالبصرة فمن رجع إلى أخبار ابن مفرغ (٢) وقرأ تعذيب عبيد الله بن زياد إياه وجد عبارات بالفارسية كان صبيان البصرة يتبعونه في الأسواق ويقولونها له .

---

(١) الجزء ٣ الصفحة ١٧١

(٢) الجزء ١٧ الصفحة ٥٦

حياة الكتاتيب

لم يقتصر أبو الفرج في أغانيه على تتبع أمور العامة ، وإنما عُني بتسقط أخبار الناس في كتاتيبهم ، فوصف لنا أين تعلموا وكيف كان المعلمون يعاملون طلابهم ويكافؤن النابغين منهم ، وكيف كانت حياة الطلاب في الكتاتيب ، فمن طرائف الأمور أن نعرف أن إبراهيم الموصلي كان مع ولد خُزَيمة بن خازم في الكتّاب ، ثم من طرائف الأمور أن نعرف في عصرنا كيف كان المعلمون يعاملون الطلاب في الكتاتيب ، ففي خبر من أخبار الأغاني في نسب إبراهيم الموصلي (١) أن إبراهيم أسلم إلى الكتّاب ، فكان لايتعلم شيئاً ولا يزال يُضرب ويُحبس ولا ينجح ذلك فيه ، فهرب إلى الموصل ، وهناك تعلم الغناء ثم صار الى الريّ وتعلم بها أيضاً ومهر.

فاذا طوينا هذه العصور التي تفصل بيننا وبين إبراهيم الموصلي وأتينا عصرنا هذا وجدنا أن بدء الثقافة لايختلف في زمننا عما كان عليه في الأزمان البعيدة ، فان عهد الكتاتيب ليس ببعيد ، وكلنا نعلم أن الشيوخ في هذه الكتاتيب كانوا من ثلاثين أو أربعين سنة يضربون الأولاد ويحبسونهم وأن الأولاد كانوا يهربون من الكتاتيب .

وهكذا فانا نستطيع أن نوازن بين عصرنا وبين العصور البعيدة بفضل أخبار صغيرة ، لا بل بفضل سطور قليلة في بعض الأوقات ، تضيء لنا ظلمة أو تحل لنا عضلة ، حتى كأنا نعيش في العصور الغابرة ، أو كأن أهل العصور الغابرة يعيشون اليوم بين ظهرانينا .

---

(١) الجزء ٥ الصفحة ٣

وقد كانوا يسمون المدرسة مرة كتّابا ومرة مكتباً ، والتعبيران لا يزالان مستعملين في يومنا هذا وكانت الجواري يختلفن إلى الكتّاب، وكان الذي يدرّس في الكتّاب يطلق عليه في بعض الأحيان أسم المؤدب ، ومن أخبار الأغاني[١] أنه كان بالكوفة رجل يقال له عليُ بن آدم وكان يهوى جارية لبعض أهل الكوفة فتعاظم أمره وبيعت الجارية فمات جزعاً عليها وبلغها خبره فماتت ، علقها وهي صبيّة فتختلف إلى الكتّاب ، فكان يجيء إلى ذلك المؤدب فيجلس عنده لينظر إليها .

فالمهم في هذا الخبر احتواؤه على إختلاف البنات إلى الكتاتيب وعلى أسماء الذين كانوا يدرّسون فيها .

ومن روائع الأخبار في هذا المعنى مارواه أبو الفرج عن خليل المعلم ، قال[٢]:
أخبرني الحسن بن علي قال : حدثنا محمد بن القاسم بن مهرويه قال : حدثنا عبد الله بن أبي سعد قال : حدثني القطراني المغني عن محمد بن حسن قال : كان خليل المعلم يلقب خليلان ، وكان يؤدب الصبيان ويعلم الجواري الغناء في موضع واحد ، فحدثني من حضره قال : كنت يوماً عنده وهو يردد على صبي يقرأ بين يديه: ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ، ثم يلتفت الى صبيّة يرددعليها :

اعتاد هذا القلب بلباله　　أن قربت للبين أجماله

فضحكت ضحكا مفرطاً لما فعله ، فالتفت إليّ فقال: ويلك، مالك ! فقلت : ضحكي مما تفعل ، والله ماسبقك إلى هذا أحد ، ثم قلت : أنظر أي شيء أخذت على الصبي من القرآن ، وأي شيء تلقي على الصبية، والله إني لأظنك ممن يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ، فقال : أرجو ألا أكون ذلك ان شاء الله !

وقد كان الصبيان يدرسون أيضاً في المساجد قال أبو الفرج[٣]

---

(١) الجزء ١٤ الصفحة ٤٩

(٢) الجزء ٢١ الصفحة ٤٨ .

(٣) الجزء ١٥ الصفحة ١٠٩

أخبرني محمد بن الحسن بن دريد عن أبي حاتم عن الأصمعي عن خلف الأحمر أنه رأى الكميت يعلّم الصبيان في مسجد بالكوفة ، والكميت في رأي أبي الفرج شاعر مقدّم ، عالم بلغات العرب ، خبير بأيامها ، من شعراء مضر وألسنتها ، من هذا نعرف طبقة المؤدّبين الذين كانوا يعلمون في المساجد .

وهذا خبر يدلنا على مكافأة النابغين من طلاب تلك الأيام ، قال أبو الفرج(١) :

أخبرني أحمد بن عبيد الله بن عمار الثقفي قال : حدثني الحسين بن عبد الله بن جبلة بن أخي علي بن جبلة قال : كان لجدي أولاد ، وكان علي أصغرهم وكان الشيخ يرق عليه ، فجدّر فذهبت إحدى عينيه في الجدري ، ثم نشأ ، فأسلم في الكتاب فحذق بعض مايحذقه الصبيان ، فحمل على دابة ونثر عليه اللوز ، فوقعت على عينه الصحيحة لوزة فذهبت ، فقال الشيخ لولده : أنتم لكم أرزاق من السلطان ، فان أعنتموني على هذا الصبي وإلا صرفت بعض أرزاقكم اليه ، فقلنا : وما تريد ، قال : تختلفون به إلى مجالس الأدب ، قال : فكنا نأتي به مجالس العلم ونتشاغل نحن بما يلعب به الصبيان ، فما أتى عليه الحول حتى برع وحتى كان العالم إذا رآه قال لمن حوله : أوسعوا للغوي .

وهكذا نجد أن حذاق الطلاب كانوا يحملون على الدواب وينثر اللوز عليهم .

فلنحضر الآن مجلساً من مجالسهم حتى نرى أسلوبا من أساليب دراستهم ، ونمطاً من هزلهم ، قال أبو الفرج(٢) :

وحدثني أحمد بن عبيد الله بن عمار قال لنا : كنا نختلف إلى أبي العباس المبرد ونحن أحداث نكتب عن الرواة ما يروونه من الآداب والأخبار وكان يصحبنا فتى من أحسن الناس وجهاً وأنظفهم ثوباً وأجملهم زياً ولا نعرف باطن أمره ، فانصرفنا يوماً من مجلس أبي العباس المبرد وجلسنا في مجلس نتقابل بما كتبناه ، ونصحح المجلس الذي شهدناه فاذا بجارية قد إطّلعت ، فطرحت في حجر الفتى رقعة

---

(١) الجزء ١٨ الصفحة ١٠١

(٢) الجزء ٦ الصفحة ١٥٣

ما رأيت أحسنَ من شكلها ، مختومة بعنبر ، فقرأها منفرداً بها ، ثم أجاب عنها ، ورمى بها إلى الجارية ، فلم نلبث أن خرج خادم من الدار في يده كرْش ، فدخل إلينا فصفع الفتى به حتى رحمناه وخلصناه من يده وقمنا أسوأ الناس حالاً ، فلما تباعدنا سألناه عن الرقعة فاذا فيها مكتوب :

كفى حُزناً أنا جميعاً ببلدة كلانا بها ثاوٍ ولا نتكلم !

فقلنا له : هذا ابتداء ظريف فبأي شيء أجبتَ أنت ، قال : هذا صوت سمعته يُغنى فيه فلما قرأته في الرقعة أجبت عنه بصوت مثله ، فسألناه : ماهو ، فقال كتبت في الجواب :

أراعك بالخابور نوق وأجمال !

فقلنا له : ماوفاك القوم حقك قط ، وقد كان ينبغي أن يدخلونا معك في القصة لدخولك في جملتنا ولكنا نحن نوفيك حقك ، ثم تناولناه فصفعناه حتى لم يدر أي طريق يأخذ ، وكان آخر عهده بالاجتماع معنا .

أفتختلف حياة الطلاب التي وصفها لنا أبو الفرج عن حياة الطلاب في يومنا هذا إختلافاً كبيراً ، أفلا نراهم بعد خروجهم من صفوفهم ، يتقابلون بما يكتبونه ، ويصححون ، فاذا قلنا إن أبا الفرج نقلنا في كتابه إلى العصر الذي عاش فيه ، أو إلى العصور التي قبله ، فشهدنا كل ناحية من نواحي تلك العصور ، حتى كأنا خلقنا فيها فما في قولنا شيء من المبالغة .

❀❀❀

الملاهي

يخرج بنا أبو الفرج من الكتاتيب والمساجد حيث يعرض علينا حياة المؤدبين والصبيان والبنات ، فيدخل بنا ملاهي القوم ، فيرينا كيف كانوا يقضون لهوهم ، ويعرض علينا بعض أجناس شرابهم وأنواع زينتهم وهيئات جواربهم ، فكأنه ينفض لنا العصور نفضا ، فلنشهد انتفاض تلك العصور .

قال أبو الفرج [1] :

قال ابن حبيب : كان في الكوفة صاحب قيان يقال له ابن رامين ، قدمها من الحجاز ، فكان من يسمع الغناء ويشرب النبيذ يأتونه ويقيمون عنده ، مثلُ يحي ابن زياد الحارثي وشُراعة بن زيد ، ومطيع بن أياس وعبد الله بن العباس المفتون ، وعون العبادي الحيري ، ومحمد بن الاشعث الزُهري المغني ، وكان نازلاً في بني أسد في جيران إسمعيل بن عمار ، فكان إسمعيل يغشاه ويشرب عنده ، ثم انتقل من جواره الى بني عائد فكان إسمعيل يزوره هناك على مشقة لبعد ما بينهما وكان لابن رامين جوارٍ يقال لهن : سَلّامة الزرقاء وسَعدةُ ، وربيحة ، وكنّ من أحسن الناس غناءً واشترى بعد ذلك محمد بن سليمان سلاّمة الزرقاء التي يقول فيها محمد بن الأشعث :

أمسى لسَلّامة الزرقاء في كبدي	صدع يقيم طوالَ الدهر والأبد
لا يستطيع َصناع القوم َيشعبه	وكيف يشعب صدع الحب في كبدي

❀❀❀

---

(1) الجزء ١٠ الصفحة ١٢٨

فاذا نظرنا في هذا الخبر الصغير علمنا كيف كان الناس يقضون في تلك الأيام لهوهم ، واسمعيل بن عمار الذي وصف جواري ابن رامين بعد آخر الخبر شاعر مخضرَم ، من شعراء الدولتين ، الأموية والهاشمية ، وكان ينزل الكوفة .

معنى هذا أن اللهو في أيامهم البعيدة لايختلف في شيء عن اللهو في أيامنا هذه ، كيف يلهو الناس في هذه الأيام ، أفلا نرى في مدننا كلها : في دمشق وبيروت والقاهرة أماكن يشرب الناس فيها ويسمعون الغناء ، فلولا الخبر الذي رواه صاحب الأغاني ، ولولا أمثاله من الأخبار ، لظللنا حيارى ، لانعرف كيف كان يلهو الناس في أيام بني أمية وبني العباس .

***

وهل علينا من حرج ان دخلنا حانة من حانات تلك الأحقاب ، لعلنا نرى فيها جنس الشراب ونوع الزينة وهيئة الجواري وهذا أبو الفرج يدخل بنا الحانة ، قال : (١) .

أخبرني محمد بن خلف وكيع ، قال : حدثنا سليمان بن أيوب قال : حدثني محمد بن عبد الله بن مالك الخزاعي قال : حدثنا إسحق قال : كنت مع الرشيد حين خرج إلى الرَّقة فدخل يوماً الى النساء وخرجت فمضيت الى تل عزاز فنزلت عند خمّارة هناك ، فسقتني شرابا لم أر مثله حسنا وطيبا وطيب رائحة في بيت مرشوش وريحان غض ، وبرزت بنت لها كأنها خوط بان أو جدل عنان لم أر أحسن منها قدا ولا أسيل خداً ولا أعتق وجها ولا أبرع ظرفا ولا أحسن كلاما ولا أتم تماماً ، فأقمت عندها ثلاثاً والرشيد يطلبني فلا يقدر علي ثم انصرفت ، فذهبت بي رسله فدخلت عليه وهو غضبان ، فلما رأيته خطرت في مشيتي ورقصت وكانت فيّ فضلة من السكر وغنّيت :

---

(١) الجزء ٥ الصفحة ٩٥

ان قلبي بالتـــل ، تل عَزاز عند ظبي من الظباء الجوازي
شادن يسكن الشـآم وفيه مع دل العراق ظرف الحجاز
يا لقومي لبنت قس أصابت منك صفو الهوى وليست تجازي
حلفت بالمسيح ان تنجز الوعد وليست تجود بالانجـــاز

قال إسحق : فسكن غضبه ثم قال لي : أين كنت ، فأخبرته فضحك وقال : ان مثل هذا إذا اتفق لطيب ، أعد غناءك ، فأعدته ، فأعجب به وأمرني ان أعيده ليلة من أولها الى آخرها ، وأخذها المغنون مني جميعا وشربنا الى طلوع الفجر ، ثم انصرفنا فصليتُ الصبح ونمت فما استقررنا حتى أتى الي رسول الرشيد فأمرني بالحضور فركبت ومضيت فلما دخلتُ وجدت ابن جامع قد طرح نفسه يتمرغ على دكان في الدار لغلبة السكر عليه ، ثم قال : أتدري لِمَ دعينا ، فقلت : لا والله ، قال : لكني أدري ، دعينا بسبب نصرانيتك الزانية ، عليك وعليها لعنة الله ، فضحكت ، فلما دخلتُ على الرشيد أخبرته بالقصة فضحك وقال : صدق ، عودوا فاني اشتقت الى ما كنا فيه لما فارقتموني ، فعدنا فيه يومنا كله حتى انصرفنا .

هذه حانة من حانات تلك الأزمان، عرفنا شرابها وزينتها وجواريها، وعرفنا في الخبر أيضاً شيئاً ثانياً وهو رقص الرجال، فقد كان الرجال يرقصون كما يرقص الرجال في عصرنا هذا، ففي أخبار إسحق بن إبراهيم الموصلي أن إسحق قام في حضرة الواثق فرقص طربا فكان أحسن رقصاً من كبَيْش وعبد السلام ، وكانا من أرقص الناس حتى قال الواثق : لا يكمل أحد ابداً في صناعته كمثل كمال إسحق .

وقد كان يجري في حاناتهم من العادات مايجري في عصرنا هذا في أسواق دمشق، من ذلك أن ابا حية النميري شرب عند خمّارة بالحيرة فأعجبه الشرب فكره إنفاد ماعنده وأحب أن يدوم له ما كان فيه فسأل الخمارة أن تبيعه بنسيئة وأعلمها أنه مدح الخليفة وجماعة القوّاد ، ففعلت وشرهت الى فضل النسيئة وكانت كلما

سقته خطّت في الحائط فأنشأ أبو حية يقول(١):

إذا أسقيتني كوزا بخط   فخطّي مابدا لك في الجدار

الى آخر الأبيات .

ونحن لانزال نرى في أسواق دمشق طائفة من الرجال يسقون الناس القهوة في دكاكينهم ، وكلما سقوا صاحب دكان فنجانا خطّوا في الجدار إشارة الى عدد الفناجين . —

وقبل أن نخرج من تلك الحانات لابأس بأن نعرف من هم الذين كانوا يبيعون الخمر في أيامها، ففي أخبار الحُصيْن بن الحمام وهو سيد بني سهم أسطر هذا نصها(٢)

وكان في بني صِرْمةَ يهودي من أهل تيماء يقال له : جهينة بن أبي حمل ، وكان في بني سهم يهودي من أهل وادي القرى يقال له حصين بن حي وكان تاجراً في الخمر .

فاليهود كانوا تجاراً في الخمر .

وقد يكون ذكر الخبر الآتي في أخبار اللهو لابد منه لأنه يدلنا على تفننهم في هذا اللهو .

قال أبو الفرج (٣):

أخبرني جعفر بن قدامة قال : حدثني حماد بن إسحق قال : كان أبي ذات يوم عند إسحق بن إبراهيم بن مصعب ، فلما جلسوا للشراب جعل الغلمان يسقون من حضر وجاء غلام قبيح الوجه الى أبي بقدح نبيذ ، فلم يأخذه ورآه إسحق ، فقال له : لِمَ لاتشرب ؟ فكتب اليه أبي :

إصبحْ نديمك أقداحا يسلسلها   من الشمول وأتبعها بأقداح

---

(١) الجزء ١٥ الصفحة ٦٢

(٢) الجزء ١٢ الصفحة ١١٨

(٣) الجزء ٥ الصفحة ٧٦

من كف ريم مليح الدل ريقته   بعد الهجوع كمسك أو كتفاح
لا أشرب الراح الا من يدي رشأ   تقبيل راحته أشهى من الراح

فضحك وقال : صدقت والله ، ثم دعا بوصيفة كأنها صورة ، تامة الحسن لطيفة الخصر ، في زيّ غلام ، عليها أقبية ومنطقة فقال لها : تولّي سقي أبي محمد ، فما زالت تسقيه حتى سكر ، ثم أمر بتوجيهها وكل مالها في داره اليه ، فحملت معه.

ماأغرب هذا التفنن في اللهو ، فلم يكتفوا بالوصائف حتى ألبسوهن أزياء الغلمان.

* * *

الدور

نستمر في هذا الفصل في شهود تلك العصور التي نفضها لنا أبو الفرج في أغانيه ويجدر بنا بعد أن خرجنا من ملاهي القوم في القديم أن ندخل دورهم فنرى موائدهم وآوانيهم وفرشهم وثيابهم ، وعلى هذا الشكل نحيط بما نسميه في عصرنا هذا بحياتهم الاجتماعية في مجامع وجوهها ، فنقر بفضل صاحب الأغاني في هذا الباب .

قال أبو الفرج :(١)

أخبرني عليّ بن العباس قال : حدثني أحمد بن القاسم المري قال : حدثنا أبو هفان قال : سألت الحسين بن الضحاك عن خبره المشهور مع الحسن بن سهل في اليوم الذي شرب معه فيه وبات عنده و كيف ابتداؤه فقلت له :اني أشتهي أن أسمعه منك فقال لي : دخلت على الحسين بن سهل في فصل الخريف وقد جاء وسمي من المطر فرش رشا حسنا ، واليوم في أحسن منظر وأطيبه ، وهو جالس على سرير أبنوس وعليه قبة فوقها طارمة ديباج أصفر وهو يشرف على بستان في داره وبين يديه وصائف يترددن في خدمته وعلى رأسه غلام كالدينار ، فسلمت عليه فرد عليّ السلام ونظر اليّ كالمستنطق فأنشأت أقول ... الابيات .

هذا شكل من أشكال دورهم ، أو على الأصح هذا ضرب من فرشهم وأثاثهم : سرير أبنوس ، وقبة فوقها طارمة ديباج أصفر .

وربما وقفنا في خلال أخبار الأغاني على لفظ من الألفاظ يدلنا على لون من ألوان الحضارة . ففي خبر من الأخبار يقول أبو الفرج :(٢)

---

(١) الجزء ٦ الصفحة ١٨١

(٢) الجزء ٦ الصفحة ١٢٦

أخبرني الحرمي بن أبي العلاء قال : حدثنا الزبير بن بكار قال : حدثني عمي مصعب قال : سمعت رجلا يحدث أبي بالكوفة ، قال : أرسلت الى الوليد جفنة مملوأة قوارير فرعونية ، لم أر مثلها قط ، فلما أمسينا صببنا فيها الشراب في ليلة أربع عشرة حتى إذا استوى القمر على رؤسنا وصار في الجفنة قال الوليد : في اي منزلة القمرُ الليلة فقال بعضهم : في الحمل ، وقال بعضهم في منزلة كذا وكذا من منازل القمر فقال بعض جلسائه : القمر في الجفنة ، قال: قاتلك الله، أصبت ما في نفسي، لتشربَنّ الهفنجة ، فقال مصعب فسأل أبي عن الهفنجة ، فقال: شرب كانت الفرس تشربه سبعة أسابيع ، فشرب تسعة وأربعين يوما .

فالذي يهمنا في هذا الخبر لفظ القوارير الفرعونية ، فانه يدلنا على نوع من آوانيهم . —

أما ما كلهم فهذه ألوان منها ، فقد وصف أبو الفرج مجلساً من مجالس جميلة التي قال فيها معبد: أصل الغناء جميلة ، وفرعه نحن ، ولولا جميلة لم نكن نحن مغنين، حضر هذا المجلس ابن أبي عتيق وابن أبي ربيعة والأحوص بن محمد الأنصاري وقد أتوا منزلها فاستأذنوا عليها فأذنت لهم جميعاً ، فسألوها ان تُفرّغ لهم نفسها ، وتُخلي لهم مجلسها ، ففعلت ، ودعت بالعود فغنت ، فاستخف القوم أجمعين ، وصفقوا بأيديهم وفحصوا بأرجلهم وحركوا رؤسهم ، وأحضر الغداء فتغدّى القوم بأنواع من الأطعمة الحارة والباردة ومن الفاكهة الرطبة واليابسة ثم دعت جميلة بأنواع الأشربة.

اني لم التفت في هذا الخبر الا الى هذه الاطعمة ، فكأنا نجلس في المجلس الذي كان فيه ابن أبي ربيعة والأحوص ، أو كأنهم يجلسون في مجالسنا في هذا العصر ، أفلا نجد على موائد هذه الأيام الأطعمة الحارة والباردة ، والفاكهة الرطبة واليابسة .

---

(١) راجع الجزء ٧ الصفحة ٢٧١

دخل بنا أبو الفرج دور الناس فأرانا كيف كانوا يأكلون ويشربون ويلهون، فقد قال في بعض أخبار إبراهيم الموصلي[١] : أخبرني الحسين بن يحي عن حماد عن أبيه عن جده قال: لما أتيت جُوانَوَيه ، لم أصادفه في منزله ، فانتظرته حتى جاء ، فلما رآني احتشمني وكان مجوسياً ، فأخبرته بصناعتي والحال التي قصدته فيها فرحّب بي وأفرد لي جناحاً في داره ووكّل بي أخته، فقدمتْ اليّ ما أحتاج اليه ، فلما كان العشيُّ عاد إلى منزله ومعه جماعة من الفرس ممن يغني ، فنزلت إليه فجلسنا في مجلس قد صفّي لنا فيه نبيذ وأعدت لنا فاكهة ورياحين فجلسنا وأخذوا في شأنهم وضربوا وغنّوا فلم أجد عند أحد منهم فائدة ، وبلغت النوبة إليّ فضربتُ وغنيت فقاموا كلهم إليّ وقبّلوا رأسي وقالوا سخرت منا، نحن إلى تعليمك لنا أحوج منك الينا فأقمت على تلك الحال أياماً حتى بلغ محمد بن سليمان بن علي خبري ، فوجّه إلي فأحضرني وأمرني بملازمته فقلت له : أيها الأمير إني لست أتكسب بالغناء وإنما ألتذه فلذلك تعلمته وأريد العود إلى الكوفة ، فلم أنتفع بذلك عنده وأخذني بملازمته وسألني : من أين أنا ، فانتسبت إلى الموصل ، فلزمتني وعُرفتُ بها ولم أزل عنده أثيراً مكرماً حتى قدم عليه خادم من خدم المهدي فلما رآني عنده قال له : أمير المؤمنين أحوج الى هذا منك ، فدفعه عني ، فلما قدم الرسول على المهدي سأله عما رأى في طريقه ومقصده فأخبره بذلك حتى انتهى إلى ذكري فوصفني له فأمره المهدي بالرجوع إلى محمد وإشخاصي اليه ، ففعل ذلك، وجاء فأشخصني إلى المهدي فحظيت عنده وقدمني .

وسواء أكان المنزل الذي وصفه لنا أبو الفرج منزل رجل من الفرس أم كان منزل رجل من العرب ، إنا رأينا في هذا المنزل موائد القوم كيف كان يصفّى فيها النبيذ وتُعدُّ فيها الفواكه والرياحين وأظن أن المآدب في هذا العصر لا تختلف في شيء عن المآدب في تلك العصور ، أفلا نجد عليها النبيذ والفواكه والرياحين !

❀ ❀ ❀

(١) الجزء ٥ الصفحة :

قلت قبل حين : ربما وقفنا في خلال أخبار الأغاني على لفظ من الألفاظ يدلنا على لون من ألوان الحضارة ، وأقول الآن : ربما كانت هذه الألفاظ تدلنا على جنس من أجناس الثياب .

قال أبو الفرج(١) :

حدثني يحيى بن محمد الظاهري قال : حدثني نيشو مولى أبي أحمد بن الرشيد قال : اشتراني مولاي أبو أحمد بن الرشيد واشترى رفيقي محموماً فدفعنا إلى وكيل له أعجمي خراساني وقال له : انحدر بهذين الغلامين إلى بغداد، إلى إسحق الموصلي ودفع اليه مائة الف درهم وشَهْريا بسَرجه ولجامه وثلاثة أدراج من فضة مملوءة طيباً وسبعة تخوت من بزّ خراساني وعشرة أسفاط من بزّ مصر وخمسة تخوت وشي كوفي وخمسة تخوت خزّ سوسي ، وثلاثين ألف درهم للنفقة وقال للرسول: عرّف إسحق أن هذين الغلامين لرجل من وجوه أهل خراسان ، وجّه بهما اليه ليتفضل ويعلّمهما أصواتاً، اختارها وكتبها له في دُرْج وقال له : كلما علمهما صوتاً ادفع اليه ألف درهم ، حتى يتعلما بها مائة صوت ، فاذا علّمهما الصوتين اللذين بعد المائة فادفع إليه الشهري ، ثم اذا علّمهما الثلاثة بعد الصوتين فادفع اليه بكل صوت دُرْجاً من الأدراج ، ثم لكل صوت بعد ذلك تختاً أو سفطاً ، حتى ينفد ما بعثت به معك ، ففعل ... إلى آخر الخبر .

فالألفاظ التي وردت في بعض هذا الخبر لها صلة بأجناس من الثياب، مثل البزّ الخراساني وبزّ مصر والوشي الكوفي والخزّ السوسي ، فقد دلتنا على أنواع من الملابس في عصر الرشيد ، ولئن لم نعرف أشكال هذه الأنواع ، فقد عرفنا أن خراسان ومصر والكوفة والسوس كانت تشتمل على أنوال الحياكة الثياب .

❀❀❀

لقد مررنا بألفاظ صورت لنا لوناً من ألوان الحضارة المادية مثل هذه الألفاظ

---

(١) الجزء ٥ الصفحة ٦٠

القوارير الفرعونية أو مثل ألفاظ ثانية لم أذكرها جاءت في حكاية معبد لما خرج إلى مكة في طلب لقاء الغريض ، فلما رجع إلى المدينة طلب إنساناً يحدثه بقصة جميل وبثينة فأتى شيخاً من بني حنظلة فأخبره الخبر وفي جملة هذا الخبر أن الشيخ أتى بني عذرة فسألته جارية أن يدخل بيتها فلما دخل أتته بصحفة فيها تمر هجر وقدح فيه لبن ، والصفحة مصرية مفضضة والقدح مفضض لم ير الشيخ إناء قط أحسن منه(١) .

إن الفاظاً من هذا الشكل ينبغي لنا أن نهتم بها الاهتمام كله ، لأنها من جهة تدلنا على وجه من وجوه الحضارة ، ومن جهة ثانية تدلنا على اتصال البلاد ، بعضها ببعض ، أو على المبادلة بالصناعات والأواني وما شابه ذلك ، فقد نطالع في بعض الأحيان خبراً طويلا لنهتدي فيه إلى لفظ من الألفاظ التي ذكرتها ، لأن أشباه هذه الألفاظ إنما تكون مادة يرجع اليها رجال التأريخ أو رجال الروايات في تركيب تأريخهم ورواياتهم ، فاذا أراد رجل من رجال الروايات أن يصف حانة من حانات تلك العصور أو داراً من دورها أو إذا أراد أن يصف فرش الدار وأوانيها ، أو شرب الحانة وزينتها استطاع أن يجد في ألفاظ سرير أبنوس أو طارمة ديباج أصفر أو أطعمة حارة وباردة أو فاكهة رطبة ويابسة أو قوارير فرعونية أو صحفة مصرية مفضضة أو بز خراساني أو وشي كوفي أو خز سوسي أو بز مصري ، مادة يركب منها روايته ويؤلفها ، فبدلا من أن يستعير من هذا العصر مادته فانه يستعيرها من عصر الرواية إذا وجد إلى ذلك سبيلا ، وحينئذ تكون روايته أوقع في القلب وأقرب من الصواب .

---

(١) الجزء ٢ الصفحة ١٣٨

قصور الخلفاء

عرفنا في الفصل الماضي شيئاً عن دور القوم في السنين الغابرة وعن فرشهم وثيابهم ومآكلهم وسنعرف في فصلنا هذا شيئاً عن قصور الخلفاء، أو عن فن البناء في الحجاز والشأم والعراق، وكلما أمعنا في دراسة الأغاني انكشفت لنا عظمة شأن هذا الكتاب، فليس بقليل أن نعرف كيف كانت قصور الخلفاء في دمشق وبغداد وقد درست هذه القصور ولم يبق منها إلا آثار حفظها لنا كتاب الأغاني، والذي اتصل بنا علمه من هذا الكتاب أن الفرس والروم هم الذين كانوا يبنون للمسلمين مبانيهم .

قال أبو الفرج[1] بعد الأسانيد :

كان سبب بناء ابن الزبير الكعبة لما احترقت أن أهل الشام لما حاصروه سمع أصواتاً بالليل فوق الجبل، فخاف أن يكون أهلُ الشام قد وصلوا اليه، وكانت ليلة ظلماء، ذاتُ ريحٍ شديدة صعبة ورعدٍ وبرقٍ فرفع ناراً على رأس رمح لينظر الى الناس، فأطارتها الريحُ فوقعت على أستار الكعبة فأحرقتها واستطالت فيها، وجهد الناس في إطفائها فلم يقدروا، وأصبحت الكعبة تتهافت، وماتت امرأة من قريش فخرج الناس كلهم في جنازتها خوفاً من أن ينزل العذاب عليهم وأصبح ابن الزبير ساجداً، يدعو ويقول : اللهم إني لم أتعمد ماجرى، فلا تهلك عبادك بذنبي، وهذه ناصيتي بين يديك، فلما تعالى النهار أمن وتراجع الناس فقال لهم : اللهَ، اللهَ ان ينهدمَ في بيت أحدكم حجر فيزول عن موضعه فيبنيه ويصلحه، وأتركَ الكعبة خرابا، ثم هدمها مبتدئاً بيده وتبعه الفعلة حتى بلغوا إلى قواعدها ودعا ببنائين من الفرس الروم فبناها .

---

(١) الجزء ٣ الصفحة ٨٢

من هذا يتبين لنا أن الروم تغلغلوا إلى الحجاز ، فبلغوا مكة ، أفرأينا مبلغ شأن هذه الأخبار الصغيرة في توضيح تاريخنا .

وكما بنى الفرس والروم الكعبة لابن الزبير ، فكذلك نجد أن معاوية بن أبي سفيان (١) بنى دوره التي يقال لها : الرُقْطُ وهي مابين الدارين إلى الرَدْم ، أولها الدار البيضاء وآخرها دار الحمام وهي على يسار المصْعد من المسجد إلى ردم عمر ، فجعل لها بنائين فرساً من العراق ، فكانوا يبنونها بالجَص والآجر .

فقد زاد هذا الخبر في علمنا بأمور البناء ، فعلمنا ان مادة البناء كانت الجص والآجر في الحجاز .

لندخل الآن قصراً من قصور هشام بن عبد الملك :(٢)

كتب هشام إلى الأمير يوسف بن عمر هذا الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر ، أمّا بعد ، فاذا قرأت كتابي هذا فابعث الى حمّاد الراوية من يأتيك به غير مروع ولا مُتَعْتَع ، وادفع اليه خمسمائة دينار وجملا مَهْرياً يسير عليه اثنتي عشرة ليلة الى دمشق .

صار حمّاد إلى يوسف بن عمر ، فسلّم عليه فرد عليه السلام ورمى إليه هذا الكتاب ، قال حمّاد: فأخذت الخمسمائة الدينار ونظرت فاذا جمل مرحول ، فوضعت رجلي في الغرْز وسرت اثنتي عشرة ليلة حتى وافيت باب هشام فأستأذنت فأذن لي ، فدخلت عليه في دار قوراء ، مفروشة بالرُخام ، وبين كل رُخامتين قضيب ذهب ، وحيطانه كذلك وهشام جالس على طَنْفَسة حمراء وعليه ثياب خز حمر وقد تضمّخ بالمسك والعنبر ، وبين يديه مسك مفتوت في أواني ذهب ، يقلبه بيديه ، فتفوح روائحه ، فسلّمت فردّ عليّ واستدناني فدنوت حتى قبّلت رجله ، وإذا جاريتان لم أر قبلها مثلها ، في أذني كل واحدة منها حلقتان من ذهب فيها لؤلؤتان تتوقدان .

---

(١) الجزء ٣ الصفحة ٨٣
(٢) الجزء ٥ الصفحة ١٥٨

فقال لي : كيف أنت ياحمّاد ، وكيف حالك ، فقلت بخير يا أمير المؤمنين ، قال أتدري فيما بعثت إليك ، قلت : لا ، قال : بعثت إليك لبيت خطر ببالي ، لم أدرِ من قاله ، قلت : وما هو ، قال :

فدعوا با بالصبوح يوما فجاءت قينة في يمينهـــا إبريق

قلت : هذا يقوله عدي بن زيد في قصيدة له ، قال : فأنشدنيها ، فأنشدته :

بكر العاذلون في وضح الصبـ ـح يقولون لي : ألا تستفيق !

فاذا أضفنا بعض هذه الأخبار إلى بعضٍ علمنا أن البناء في الحجاز في أول الأمر كان بالجصّ والآجرّ ، فلما أنتقلنا إلى دمشق وجدنا دار الخليفة فيها مفروشة بالرخام ، وبين كل رخامتين قضيب ذهب ، وحيطانه كذلك ، هذه هي فائدة أخبار الأغاني ، فأنا إذا تتبعناها استطعنا أن نجد فيها في بعض الأحيان سلسلة مطردة ، كل حَلقةٍ من حلقها صورة مستقلة بنفسها .

وإذا انتقلنا من دار هشام إلى إيوان مسلمة بن عبد الملك ، وجدنا البناء متصلا لا يختلف بعضه عن بعض .

قال إبراهيم الموصلي :(1)

خرجت مع الرشيد إلى الشام لما غزا ، فدعاني يوماً فدخلت إليه إلى مجلس لم أر أحسن منه ، مفروشٍ بأنواع الرخام ، فأكل وأمرني فأكلت معه ، وجعلت أتولى خدْمته إلى العصر ثم دعا بالنبيذ فشرب وسقاني معه ثم خلع عليّ خلعة وشيٍ من ثيابه وأمر لي بألف دينار ثم قال : أنظر يا إبراهيم كم من يد أوليتك إياها اليوم، نادمتني مفرداً ، وآكلتني ، وخلعتُ عليك ثيابي من بدني ووصلتك وأجلستك في إيوان مسلمة بن عبد الملك ، تشرب معي ، فقلت : ياسيدي ما ذهب عليّ شيء من تفضلك وإن نعمك عندي أكثر من أن تحصى ، وقبّلت رجله والأرض بين يديه!

فهذا الخبر يدلنا على أن آثار بني أمية في دمشق بقيت على زمن بعض خلفاء

---

(1) الجزء ٥ الصفحة ٢٣

بني العباس ، فالشائع أن بني العباس لما دخلوا الشأم درسوا آثار بني أمية ، فهذا الرشيد يجلس في إيوان مسلمة بن عبد الملك .

وكذلك ابنه المأمون ، فأنه لما دخل دمشق طاف على آثار بني أمية فيها ، فلنتبع وصف هذه الآثار لعلنا نجد فيها ما لم نجده في التي قبلها .

قال أبو الفرج :(١)

وحدثني جحظة قال: حدثني محمد بن أحمد المكي المرتجل قال : حدثني أبي قال : دخلت الى علويه أعوده من علة اعتلها ثم عوفي منها ، فجرى حديث المأمون ، فقال: كدت، علم الله ، أذهب دفعة ذات يوم وأنا معه ، لولا أن الله تعالى سلمني ووهب لي حلمه ، فقلت : كيف كان السبب في ذلك، فقال : كنت معه لما خرج الى الشأم فدخلنا دمشق فطفنا فيها وجعل يطوف على قصور بنى أمية ويتبع آثارهم فدخل صحناً من صحونهم فاذا مفروش بالرُخام الأخضر كله وفيه بركة ماء يدخلها ويخرج منها من عين تُصبُّ اليها وفي البركة سمك وبين يديها بستان على أربع زواياه أربع سروات كأنها قصّت بمقراض من التفافها ، أحسن مارأيت من السروات قط قدّاً وقدراً ، فاستحسن ذلك وعزم على الصبوح وقال : هاتوا لي الساعة طعاماً خفيفاً فأتي به بين ماءٍ وورد فأكل ودعا بشراب وأقبل عليّ وقال: غنني ونشطني ، فكأن الله عزّوجلّ أنساني الغناء كله الا هذا الصوت:

لو كان حولي بنو أمية لم تنطق رجال أراهمُ نطقوا

فنظر إليّ مغضباً وقال : عليك وعلى بني أمية لعنة الله ، ويلك ! أقلتُ لك سؤني أو سرّني ، ألم يكن لك وقت تذكر فيه بني أمية الا هذا الوقت تعرّض بي فتحيلت عليه وعلمت أني قد لغطت فقلت: تلومني على أن أذكر بني أمية، هذا مولاكم زرْياب عندهم يركب في مائتي غلام مملوك ويملك ثلثمائة ألف دينار وهبوها له سوى الخيل والضياع والرقيق وأنا عندكم أموت جوعاً فقال : أولم يكن لك شيء تذكرني

(١) الجزء ١٠ الصفحة ١٢٥

به نفسك غير هذا ، فقلت : هكذا حضرني حين ذكرتهم فقال : اعدل عن هذا وتنبه على إرادتي ، فأنساني الله كل شيء أحسنه الا هذا الصوت :

الحَيْن ساق الى دمشق ولم أكن   أرضى دمشق لأهلنـــا بـلدا

فرماني بالقدح فأخطأني فانكسر القدح وقال : قم عني الى لعنة الله وحرّ سقرَ وقام فركب، فكانت والله تلك الحال آخر عهدي به حتى مرض ومات قال : ثم قال لي: يا أباجعفر! كم تُراني أحسن أغني، ثلاثة آلاف صوت، أربعة آلاف صوت خمسة آلاف صوت،أنا والله أغني أكثر من ذلك ، ذهب ، علم الله ، كله حتى كأني لم أعرف غيرما غنيت ولقد ظننت أنه لو كانت لي ألف روح ما نجت منه واحدة منها ولكنه كان رجلاً حليماً وكان في العمر بقية .

❀❀❀

وعلى هذا نجد في كل خبر مادة تتم المادة الأولى ، فالرُخام في القصور التي طاف عليها المأمون في دمشق لونه أخضر ، ثم وجدنا في هذه القصور بركة ماء ، وفي البركة سمك ، وحولها بستان على أربع زواياه أربع سروات ، ثم وجدنا وصف هذه السروات فكأنها قصت بمقراض من التفافها ، وهكذا فانا لا نكاد نخرج من خبر الى خبر الا وجدنا شيئاً جديداً يعيننا على تركيب العناصر التي نحاول تركيبها فقد تمثلت لنا في هذه الأخبار صورة قصور بني أمية في دمشق ، فكأننا نعيش في هذه القصور .

وقد كانت البرك منتشرةً في قصور بني أمية في دمشق ، وفي خبر من أخبار الوليد بن يزيد (١) أنه كان جالساً في قصره على شفير بركة مرصصة مملوءة خمراً ليست بالكبيرة ولكنها يدور الرجل فيها سباحة .

وكما كانت البرك مبثوثة في القصور فكذلك كانت مبثوثة في الطرق في خارج

---

(١) الجزء ٣ الصفحة ٩٥

دمشق ، فقد ركب المأمون (١) بدمشق يتصيد حتى بلغ جبل الثلج فوقف في بعض الطريق على بركة عظيمة في جوانبها أربع سروات لم يرأحسن منها ولا أعظم فنزل المأمون وجعل ينظر الى آثار بني أمية ويعجب منها ويذكرهم .

وهذا دليل آخر على أن آثار بني أمية في الشأم كانت على زمن المأمون وكان يعجب منها . —

أما قصور بني العباس في بغداد فمما وقع الينا من وصفها ما يلي: قال مخارق (٢) : مرّت بي ليلة ما مرّ بي قط مثلها ، جاءني رسول محمد الأمين وهو خليفة فأخذني وركض بي إليه ركضا فحين وافيت أتى بابراهيم بن المهدي على مثل حالي فنزلنا وإذا هو في صحن لم أرَ مثله قد ملىء شمعاً من شمع محمد الأمين الكبار ، فاذا به واقف ، ثم دخل في الكرّج والدار مملوءة بالوصائف يغنين على الطبول والسرنايات ومحمد في وسطهن يرتكض في الكرّج فجاءنا رسوله فقال: قوما في هذا الباب مما يلي الصحن فارفعا أصواتكما مع السرنايي أين بلغ وإياكما أن أسمع في أصواتكما تقصيراً عنه قال: فأصغينا فاذا الجواري والمخنثون يزمّرون ويضربون:

هذي دنانير تنساني وأذكرها وكيف تنسى محباً ليس ينساها

فما زلنا نشقّ حلوقنا مع السرنايي ونتبعه حذراً من أن نخرج عن طبقته أو نقصر عنه الى الغداة ومحمد يجول في الكرّج ما يسأمه ، يدنو الينا مرة في جولانه ويتباعد مرة ويحول الجواري بيننا وبينه حتى أصبحنا .

ليس في هذه القصور ، قصور بني العباس في بغداد، إشارة الا الى الصحون، وإلا الى الشمع في وسط الصحن ، وقد نجد الاشارة الى الصحون في أخبار ثانية ففي بعض الأخبار أن الرشيد كان يشتهي الصحون الواسعة وقد كان مرة جالساً على كرسي في وسط الصحن وانه صاح بالخدام فوافاه مائة وصيف وإذاهم بالأروقة

---

(١) الجزء ٤ الصفحة ٩٦

(٢) الجزء ١٦ الصفحة ١٣

مستترون بالأساطين حتى لا يراهم .[١]

من هذا يتبين لنا أن قصور بني العباس في بغداد كانت تشتمل على صحون وأروقة وأساطين ، وأظن أن هذه الأخبار كلها لا تخلو من مادة تعيننا على معرفة البناء وأطواره في الحجاز والشأم والعراق ، فمن الجص والآجر في الحجاز ، الى الرخام الأخضر وقضبان الذهب وحيطان الذهب والبرك والسروات في دمشق الى الصحون والأروقة والأساطين في بغداد.

هذه صورة من قصور الخلفاء في عصر بني أمية ، لا أقول انها كاملة ، ولكني أقول انها كافية ، وعلى هذا النحو إذا بحثنا في كتاب الأغاني فاننا نستطيع أن نستخرج منه أمثال هذه الصور في أكثر آفاق الحياة ، فاذا اجتمعت لنا طائفة من هذه الصور استطعنا أن نحيط بعض الاحاطة بموضوعات الأغاني المبعثرة في أضعاف الكتاب .

❀❀❀

(١) الجزء ٥ الصفحة ٣١

الحياة الاجتماعية

الاندية والمطاعم والخانات والقصاص والمصورون

أريد بالحياة الاجتماعية في هذا المقام كل شيء يدل على مجتمعات الناس في عصورنا البعيدة ، وعلى لهوهم في هذه المجتمعات وعلى أسواقهم ومطاعمهم وفنادقهم ومجالس سمّارهم وحرّاسهم ومصوريهم ، مما أشار اليه أبو الفرج عرضاً في تضاعيف أخباره التي بعثرت في كتاب الأغاني ، فلم ينسق هذه الأخبار تنسيقا ولكننا في هذا العصر إذا لممناها وضممنا بعضها إلى بعض استطعنا أن نجد في خلالها أفقاً من آفاق الحياة الاجتماعية .

أين كانوا يجتمعون .قال ابن سريج (١):

مررت ببعض أندية مكة وفيه جماعة ، فحضرت فقلت : كيف أجوزهم مع تعبي وما أنا فيه ، فسمعتهم يقولون : قد جاء ابن سريج ، فقال بعضهم ممن لم يعرفني ومن ابن سريج ، فقال: الذي يغني :

ألاهل هاجك الأظعا ن إذ جاوزن مطّلحا

قال ابن سريج : فلما سمعت ذلك قويت نفسي واشتدت منّتي ومررت بهم أخطر في مصبغاتي، فلما حاذيتهم قاموا بأجمعهم فسلّموا عليّ ثم قالوا لأحداثهم : امشوا مع أبي يحي .

وبعد هذا الخبر نجد خبراً هذا نصه :

قال ابن سريج : دعاني فتية من بني مروان ، فدخلت إليهم وأنا في ثياب الحجاز

---

(١) الجزء ١ الصفحة ١١٩

الغلاظ الجافية ، وهم في القوهي والوشي يرفلون كأنهم الدنانير الهرقلية، فغنيتهم وأنا محتقر لنفسي عندهم لحنا لي وهو :

أبا لفرع لم تظعن مع الحيّ زينب ... بنفسي على النأي الحبيبُ المغيَّبُ

بوجهك عن مس التراب مضنة ... فلا تبعدي اذ كل حي سيعطب

فتضاءلوا في عيني حتى ساويتهم في نفسي لما رأيتهم عليه من الاعظام لي ، ثم غنيتهم :

ودع لبابةَ قبل أن تترحلا ... واسأل فانّ قلاله أن تسألا

فطربوا وعظّموني وتواضعوا لي حتى صرتُ في نفسي كمنزلتهم لما رأيتهم عليه وصاروا في نفسهم كمنزلتي ثم غنيتهم :

ألا هل هاجك الأظعا ... ن إذ جاوزن مطّلحا

فطربوا ، ومثلوا بين يديّ ، ورموا بحللهم كلها عليّ حتى غطّوني بها فمثّلت لي نفسي أنها نفس الخليفة وانهم لي خوَل ، فما رفعت طرفي إليهم بعد ذلك .

فهذان الخبران يصفان لنا الحياة الاجتماعية في الحجاز على أيام بني مروان ، فقد كانت على أيامهم أندية ، يجتمون فيها ويسمعون الغناء ، إن كلمة أندية تمثل لنا ضربا من الحيــاة الاجتماعية ، انها تمثّل لنا ان الناس كانوا يجتمعون في مجتمعات غير دورهم ومنازلهم ، وإذا أحببنا أن نصل إلى شيء من معرفة تلك المجتمعات فلنسمع ما قاله أبو الفرج(١):

كان عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان الجمحي قد اتخذ بيتاً ، فجعل فيه شطرنجات ونردات وقرْقات ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل في الجدار أوتاداً فمن جاء علّق ثيابه على وتد منهـا ثم جرّ دفتراً فقرأه أو بعض مايلعب به فلعب به مع بعضهم .

هذه السطور القليلة تغنينا عن كتاب ، ففيها وصف ناد من أنديتهم في الحجاز

---

(١) الجزء ٤ الصفحة ٥١

فيها وصف اللعب في هذا النادي ووصف أنواع الكتب التي كانوا يطالعونها في النادي هذه الكتب تشتمل على كل علم ، ثم فيها ذكر الأوتاد التي كانوا يعلّقون ثيابهم عليها ، فاذا شئنا أن نصف ناديا من أندية عصرنا في دمشق ، أفنجد في هذا النادي أكثر مما وجدناه في أندية مكة ، ومهما تكن الطبقات التي تختلف الى ناد في هذا العصر ، أفتكون هذه الطبقات أرفع من طبقات تختلف الى ناد فيه كتب تشتمل على كل علم ، هذه السطور القليلة عرضت لنا الحياة الاجتماعية في أحد عصورنا البعيدة في أكمل معارضها وأوضحها ، فإذا أحببنا أن نوازن بين حياتنا في هذه الأيام وبين حياتهم في تلك الأيام وجدنا ان حياتهم الاجتماعية كاملة من بعض الوجوه ، حتى كأنهم يعيشون في عصرنا هذا .

❀❀❀

واذا خرجنا من هذه الأندية وأحببنا أن نجول في الأسواق فماذا نجد في هذه الأسواق من متممات الحياة الاجتماعية .

لاشك في أنه يهمنا أن نعرف هل تشتمل أسواقهم على المطاعم أو على الفنادق و كانوا يسمون الفنادق في تلك العصور : الخانات .

نجد في ترجمة سائب خاثر المغني(١) انه كان تاجراً موسراً يبيع الطعام بالمدينة.

إني أقف على هذه العبارة الأخيرة وحدها وأعدل عن كل ماجاء في الترجمة فان قوله : يبيع الطعام في المدينة يدل على أن المدينة كانت تحتوي أسواقها على مطاعم وذلك على زمن معاوية ، والمطاعم تدلنا على حياة اجتماعية ، فاذا شئنا ان نركّب عصر معاوية من ناحيته الاجتماعية وجدنا في مادة المطاعم التي اهتدينا اليها في الأغاني عنصراً من عناصر هذا التركيب .

وإذا اضفنا الى هذه العبارة عبارة ثانية وقعت إلينا في ترجمة اسماعيل بن يسار(٢)

---

(١) الجزء ٧ الصفحة ١٧٩

(٢) الجزء ٤ الصفحة ١١٨

انكشفت لنا الحياة الاجتماعية من ناحية المطاعم انكشافا كاملا ، فقد جاء في ترجمة إسماعيل بن يسار أنه كان طيبا مليحاً مندرا بطّالا مليح الشعر، وفد الى عبد الملك ابن مروان وعاش عمراً طويلا الى ان أدرك آخر سلطان بني أمية، ولم أذكر هذا الكلام الا للدلالة على العصر الذي عاش فيه وهو عصر أوائل بني مروان ، اما العبارة التي أحفل بها فهي قول أبي الفرج : وانما سمي اسماعيل بن يسار النسائي لأن أباه كان يصنع طعام العرْس ويبيعه فيشتريه منه من أراد التعريس من المتجمّلين وممن لم تبلغ حاله اصطناع ذلك .

وفي خبر آخر انه لقّب بذلك لأن أباه كان يكون عنده طعام العرسيات مصلحا أبداً فمن طرقه وجده عنده مُعدّا .

فهذا الخبر متمم للذي قبله ، فكما عرفنا أن الأسواق كانت تشتمل على المطاعم فقد عرفنا أنها كانت تشتمل على رجال يصنعون طعام الأعراس ويبيعونها، واشتقوا من ذلك كلمة العرسيات وهي كلمة خصبة المعنى تدل على أفق خاص من آفاق الحياة الاجتماعية وهو أفق طعام الأعراس ، فاذا قابلنا بين ما يجري في عصرنا هذا من صنع طعام العرس في بعض الفنادق الكبيرة أو المطاعم المشهورة وبين ما كان يجري في عصورنا البعيدة من هذا القبيل وجدنا أن الحياة الاجتماعية في الماضي والحاضر متماثلة في هذا الباب ، فلولا كلمات يسيرة مثل العرسيات أو مثل صنع طعام العرس، لكانت الحياة الاجتماعية غامضة من بعض وجوهها ، فان لفظا من الألفاظ يلقي في بعض الأحوال ضياء عليها فتنكشف ظلماتها .

وفي خبر آخر أن إسمعيل بن يسار كان يبيع النّجد والفرش التي تتخذ للعرائس فقيل له إسمعيل بن يسار النسائي .

أفرأينا كيف يتمم بعضُ الأخبار بعضا ،فكما علمنا بشكل من أشكال أعراسهم من ناحية الطعام فكذلك علمنا بشكل من أشكال هذه الأعراس من ناحية النّجد والفرش ، فقد كان عندهم رجال يهيئون هذا كله ، يهيئون الطعام والنجد والفرش على نحو ما نشاهد في هذه الأيام ، فاذا قلت ان كتاب الأغاني يشتمل على نماذج من صور الحياة الاجتماعية فلا أنحرف في قولي هذا عن الحق ، فكل نموذج من

هذه النماذج مستقل بذاته ، منفرد بنفسه ، مثل نموذج قصور الخلفاء أو مثل نموذج الكتاتيب .

وإذا عرفنا أن الأسواق كانت تحتوي على المطاعم وعلى رجال يهيئون للعرائس الطعام والنجد والفرش فقد يلزمنا أن نعرف أين كان ينزل المسافرون والغرباء في مدينة من المدن .

نجد في بعض التراجم ، مثل ترجمة بكر بن النطاح أنه خرج يونس الكاتب(١) من المدينة يريد الشأم بتجارة ، فبلغ الوليد بن يزيد مكانه فأتته رسله وهو في الخان وذلك في خلافة هشام والوليد يومئذ أمير .

ونجد أيضاً في أخبار عريب المغنية أن أبا محلم قدم بغداد فنزل بقرب دار صالح المسكين في خان هناك(٢) . —

نستنبط من هذا أن التجّار والغرباء والمسافرين كانوا ينزلون في خانات في دمشق أو بغداد وغيرهما ، فالفنادق في تلك الأيام كانت تسمّى : الخانات ، ولا نزال نرى في دمشق آثار هذه الخانات ، وقد كان ينزلها من ثلاثين أو أربعين سنة ناس يجيئون من أرياف دمشق ، وتجّار من بلاد أبعد من الأرياف ، فيبيتون فيها ويجعلون فيها ما يشترونه من أسواق دمشق من البضائع ، إلى أن يعودوا إلى أهلهم وبلادهم وأريافهم ، فوجود الخانات في دمشق في عصرنا هذا يمثّل لأذهاننا خانات تلك العصور في دمشق وبغداد ولست أعتقد أن بين النوعين من هذه الخانات اختلافا عظيما ، أفرأينا كيف دلتنا كلمة الخان على ناحية من النواحي الاجتماعية في دولة بني أمية أو دولة بني العباس ، فالألفاظ هي التي تضيء لنا الظلمات في بعض الأحيان .

نستمر الآن في تركيب العصور التي مضت ، فليس بقليل أن نعرف هذه الأشياء التي عرفناها ، ونحب أن نلم بطائفة من ملاهي تلك العصور ، غير الملاهي

---

(١) الجزء ١٧ الصفحة ١٦٧ .

(٢) الجزء ١٨ الصفحة ١٩١

التي تكلمت عليها في فصل ماض ، أين كانوا يجتمعون في المساء أو في الليل .

المسارح في عصرنا ودور السينما هي التي تشغل الناس في الليل ، فيجدون فيها ما يسلّون به خواطرهم أو يهذّبون به قلوبهم ، وقديماً كانت القصص هي التي تقوم مقام المسارح في يومنا هذا ، وإذا شئنا أن نعرف شيئاً عن طبيعة هذه القصص فلنقرأ الخبر الآتي(١) ، فقد مرّ بشّار بقاص في المدينة فسمعه يقول في قصصه : من صام رجباً وشعبان ورمضان بنى الله له قصراً في الجنّة صحنه ألف فرسخ وعلوّه ألف فرسخ وكل باب من أبواب بيوته ومقاصره عشرة فراسخ في مثلها ، فالتفت بشّار إلى قائده فقال : بئست والله الدارُ هذه في كانون الثاني .

فالقصص كان مستفيضاً في تلك الأيام ، والظاهر ان الناس كانوا يُقبلون إلى القاص ويدفعون إليه شيئاً كما يدفع الناس في أيامنا إلى أصحاب المسارح ، قال أشعب : قدم علينا قاص كوفي يقص في رُفقته وفيها ألف بعير ، فخرجنا وأحرمنا من الشجرة بالتلبية فأقبل الناس إليّ وتركوه فجاء إلى عبد الله بن عمرو بن عثمان ابن عفان فقال : إن مولاك هذا قد ضيّق عليّ معيشتي(٢) .

فقوله : قد ضيّق عليّ معيشتي يدل على ان الناس كانوا يدفعون إلى القاص شيئاً من المال يعيش به .

وإذا خرجنا من دور القصص وجلنا في الأسواق سمعنا فيها أصوات الحرّاس على نحو ما كان يجري في دمشق من عهدٍ قريب ، ففي خبر من أخبار سعيد بن حميد وهو كاتب شاعر مترسل حسن الكلام ، فصيح ، نجد هذه العبارة(٣) : وجعل الفتى ينتظر الأذان حتى أمسى وسمع صوت الحارس .

وكذلك نجد في أخبار أبي نواس الخبر الآتي : كان حارس درب عوْن يقال

---

(١) الجزء ٣ الصفحة ٣٠

(٢) الجزء ١٧ الصفحة ٨٦

(٣) الجزء ١٧ الصفحة ٥٣

له المبارك، وكان يلبس ثيابا نظيفة سرية ويركب حماراً فيطوف عليه السوق بالليل ويكريه بالنهار فاذا رآه من لا يعرفه ظن أنه من بعض التجار وكان يصل إليه في كل شهر من السوق ما يسعه ويفضل عنه(١) .

❀❀❀

أجتهد على قدر الامكان في أن يتصل بعض هذه الأخبار ببعض حتى تكون الصورة التي أعرضها متناسقة ، فبين الأندية والمطاعم والخانات ودور القصص والحراس في الليل شيء من التناسق ، فاذا وقع نظرنا على هذه الصورة استطعنا أن نرى فيها نموذجاً من الحياة الاجتماعية ، يوضح لنا بعض التوضيح كيف كانت الأندية التي يجتمعون فيها والخانات التي ينزلون فيها وكيف كانوا يصنعون طعام أعراسهم وفرشها ، وكيف كانوا يسلون خواطرهم في الليل تسلية لا غناء فيه ولا شراب يجتمعون إلى قاص فيروض خيالاتهم ، أو يشحذ أوهامهم ، أو يهذب في بعض الحالات عقولهم وقلوبهم ، وكيف كان حراسهم يطوفون في الليل فيرفعون أصواتهم ، هذه كلها صور ناطقة إذا كنا لا نجد فيها فن الروايات فانا نجد فيها مادة للروايات نحيي بها تأريخنا ومجتمعاتنا حتى يكون الحاضر متصلا بالماضي فلا تفصل بينها هذه الفواصل المظلمة ، فاذا أعوزنا شيء فانما يعوزنا إحياء هذا التأريخ وهذه المجتمعات .

ولا بأس بأن أختم هذا الفصل بخبر طريف يدلنا على شيء ما كان يخطر ببال أحدنا ، هل كان يقع في خلد امريء منا أن الأسواق كان فيها مصورون ؟ فقد كان بالبصرة رجل يقال له حمدان الخراط(٢) فاتخذ جاماً لانسان كان بشار عنده فسأله بشار أن يتخذ له جاماً فيه صور طير تطير فاتخذه له وجاءه به فقال له : ما في هذا الجام ، فقال له : صور طير تطير ، فقال : كان ينبغي ان تتخذ فوق هذه الطير طائراً من الجوارح كأنه يريد صيدها ، فانه كان أحسن ، قال لم أعلم ، قال بلى ،

---

(١) الجزء ١٨ الصفحه ٦٦
(٢) الجزء ٣ الصفحة ٢٧

قد علمت ولكن علمت أني أعمى لا أبصر شيئاً وتهدده بالهجاء ، فقال له حمدان : لا تفعل ، فانك تندم ، قال أو تهددني أيضاً ، قال : نعم ، قال : فأي شيء تستطيع أن تصنع بي ان هجوتك ، قال : أصورك على باب داري بصورتك هذه ، وأجعل من خلفك قرداً ينكحك حتى يراك الصادر والوارد ، قال بشّار : اللهم اخزه ! أنا أمازحه وهو يأبى الا الجد !

❀❀❀

يدلنا هذا الخبر على أن التصوير كان مستفيضاً في البصرة في أيام بشّار ، فالمصورون كانوا يصورون الحيوان أو النبات أو الانسان على الزجاج بأيديهم ، ثم يدلنا من جهة ثانية على مبلغ تصوير الهزل أو هزل التصوير من النفوس فان بشاراً الذي لم يسلم من لسانه أحد ، لا كبير ولا صغير كان يخاف هذا النوع من التصوير فكأن هذا النوع أعظم وقعاً في النفوس في نظره من الشعر نفسه .

❀❀❀

خصائص
أهل الحجاز والشام والعراق

وهذا باب خاص من أبواب الأغاني ، جمعت تفاريقه وقد بعثرت في أضعاف الكتاب ، هذا باب تدخل فيه خصائص طائفة من بلاد العرب ، كالحجاز والشام والعراق ، فقد يهمنا أن نعرف خصائص كل بلد من هذه البلدان ، فالذي عرفناه من كتاب الأغاني أن ثياب أهل الحجاز غلاظ جافية ، واذا قلنا : أهل الحجاز أردنا بذلك عامة الناس لاخاصتهم ، اذ أنه مر بنا في الفصل الماضي أن ابن سريج لما دخل الى فتية من بني مروان كانوا في القوهي والوشي ، يرفلون كأنهم الدنانير الهرقلية ، وأن ابن سريج كان في ثياب الحجاز الغلاظ الجافية ، فقوله : في ثياب الحجاز ، قول عام ، يراد به أهل الحجاز عامة ، ولولا ذلك لقال : كنت في ثيابي الغلاظ الجافية .

فهذه العبارة ، على وجازتها ، وضّحت لنا بعض التوضيح صورة ثياب الحجاز ، والخبر الآتي يوضّح لنا بعض عقليتهم .

قال أبو الفرج[1] بعد الاسانيد :

جاء سندة الخياط المغني الى الأفلح المخزومي وكان يوصف بعقل وفضل ، قال له : من أين أقبلت ، والى أين تمضي ، فقال : اليك قصدت من مجلس لبعض القرشيين أقبلت محاكماً اليك ، قال : فماذا ، قال : كنت عند هذا الرجل ، وحضرت مجلسه رقطاء الحبطيين وصفراء العلقميين ، فتناولنا بينهما رمل ابن سريج .

---

(1) الجزء ١ الصفحة ١٢١

ليت شعري كيف أبقى ساعة	مع ما ألقى اذا الليل حضر
من يذقْ نوماً ويهـــدأ ليلة	فلقـد بدّلت بالنوم السهر
قلت : مهـلاً ، انهـا جنية	إن تخالطها تفز منها بشر

فغنيناه جميعاً ، واختلفنا في تفضيلها ، ففضّل كل فريق منا إحداها ، فرضينا جميعاً بحكمك ، فاحكم بينها وبيننا ، قال : فوجم ساعة ، وأهل الحجاز اذا أرادوا أن يحكموا تأملوا ساعة ، ثم حكموا ، فاذا حكم المحكم مضى حكمه كأننا ما كان ، ففضّل من فضّله وأسقط من أسقطه ، اذا تراضى الخصمان به ، فكره الأفلح أن يرضي قوماً ويسخط آخرين ، فقال لسندة : صفها أنت لي كيف كانتا اذ غنتاه واشرح لي مذهبها فيه كما سمعت ، وأنا أحكم بعد ذلك ، فقـال سندة : أما جارية الجبطيين فانها كانت تلوك لحنه كما يلوك الفرس العتيق لجامه ، ثم تلقيه في هامة لدنة ثم تخرجه من منخر أغن" والله ما ابتدأته فتوسطته وأنا أعقل ، ولا فرغت منه فأفقت الا" وأنا أظن أني رأيته في نومي ، وأما صفراء العلقميين فانها أحسنهما حلقاً، وأصحها صوتاً ، وألينها تثنياً ، والله ما سمعها أحد قط فانتفع بنفسه ولا دينه ، هذا ما عندي ، فاحكم أنت يا أخابني مخزوم ، فقال: قدحكمت بأنها بمنزلة العينين في الرأس فبأيهما نظرت أبصرت ، ولو كان في الدنيا من عبيد ابن سريج خلف لكانتا ، قال : فانصرفوا جميعاً راضين بحكمه .

❀❀❀

إنا نرى في هذا الخبر أن النتيجة مطابقة للمقدمة ، ففي المقدمة يقول صاحب الخبر : وأهل الحجاز اذا أرادوا أن يحكموا تأملوا ساعة ثم حكموا ، فهـذا التأمل يدل على الروية وإعمال الفكر ، وفي الخاتمة يقول : فانصرفوا جميعاً راضين بحكمه فهذا الرضى بالحكم ابن التأمل الذي أشار اليه ، معنى هذا أن الحكم قلّب وجوه الرأي في الأمر فدلته فطنته على مخرج يرضى به الفريقان .

هذه خاصية من خصائص أهل الحجاز العقلية ، وفي خبر نجد نوعاً آخر من

هذه الخصائص ، فقد قدم جرير المدينة واحتشد له أهل المدينة ، ومعهم أشعب وقد ألح عليه أشعب يسأل فقال جرير:(١) والله اني أراك أوقحهم وجهاً وأراك ألأمهم حسباً ، فقد أبرمتني منذ اليوم ، قال : اني والله أنفعهم وخيرهم لك ، فانتبه جرير وقال : ويحك كيف ذاك ، قال : اني أملّح شعرك وأجيد مقاطعه ومباديه فقال : قل ويحك ، فاندفع أشعب فنادى بلحن ابن سريج :

يا أخت ناجية السلام عليكم ... قبل الرحيل وقبل عذل العذّل

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم ... يوم الرحيل فعلت مالم أفعل

فطرب جرير وجعل يزحف نحوه حتى ألصق ركبته ركبته وقال: لعمري، لقد صدقت، انك لأنفعهم لي ، وقد حسّنته وأجدته ، أحسنت والله، ثم وصله وكساه ، قال راوي هذا الخبر : فلما رأينا إعجاب جرير بذلك الصوت قال له بعض أهل المجلس: فكيف لو سمعتَ واضع هذا الغناء ، قال : وإن له لواضعا غير هذا ، فقلنا : نعم ، قال فأين هو ، قلنا بمكة ، قال: فلست بمفارق حجازكم حتى أبلغه،فمضى ومضى معه جماعة ممن يرغب في طلب الشعر في صحابته و كنت فيهم ، فأتيناه جميعاً فاذا هو في فتية من قريش كأنهم المها ، مع ظرف كثير ، فأدنوا ورحّبوا وسألوا عن الحاجة ، فأخبرناهم الخبر ، فرحّبوا بجرير وأدنوه وسُروا بمكانه وأعظم عبيد بن سريج موضع جرير وقال : سل ماتريد جعلت فداءك ، قال : أريد أن تغنيني بلحن سمعته بالمدينة أزعجني إليك ، قال : وما هو ، قال :

يا أخت ناجية السلام عليكم ... قبل الرحيل وقبل عذل العذّل

فغناه ابن سريج وبيده قضيب يوقعُ به وينكت، فوالله ما سمعت شيئاًقط أحسن من ذلك ، فقال جرير : يا أهل مكة ! ماذا أعطيتم والله لو أن نازعاً نزع اليكم ليقيم بين أظهركم فيسمعَ هذا صباحَ مساءَ لكان أعظمَ الناس حظاً ونصيباً ، فكيف

---

(١) الجزء ١ الصفحة ١١٣

ومع هذا بيت الله الحرام ، ووجوهكم الحسان ، ورقة ألسنتكم ، وحسن شارتكم وكثرة فوائدكم .

خصائص كل قطر لا تحصر ، فاذا دلتنا الأخبار الماضية على روية أهل الحجاز أو على حسن وجوههم ورقة ألسنتهم وحسن شارتهم ، فقد يدلنا الخبر الآتي على بعض عيوبهم ، قال أبو الفرج[1] :

أخبرني الحسين بن الوراق قال : حدثنا الزبير قال : حدثني أسعد بن عبد الله المزني عن إبراهيم بن سعيد بن بشر بن عبد الله بن عقيل الخارجي عن أبيه قال : والله إنني لمع أبي عبيدة بن عبد الله بن زَمعَة في حواءٍ له اذ جاءه كثيّر ، فحيّاه ، فاحتفى به ودعا بالغداء فشرعنا فيه وشرع معنا كثيّر وجاء رجل فسلم فرددنا عليه السلام واستدنيناه فاذا نصيب في بزة جميلة وقد وافى الحج قادماً من الشآم ، فأكب على أبي عبيدة ، فعانقه وسأله ثم دعاه إلى الغداء ، فأكل مع القوم ، فرفع كثيّر يده وأقلع عن الطعام وأقبل عليه أبو عبيدة والقوم جميعاً يسألونه أن يأكل ، فأبى ، فتركوه وأقبل كثيّر على نصيب فقال: والله يا أبا محجن إن أثر أهل الشآم عليك لجميل ، لقد رجعت هذه الكرة ظاهر الكبر ، قليل الحياء ، فقال له نصيب : لكن أثر الحجاز عليك يا أبا صخر غير جميل ، وانك لزائد النقص ، كثير الحماقة .

إنا نرى في هذا الخبر مايدل على نقص أهل الحجاز وحماقتهم ، وهذه أحكام لا نجدها مطردة ، عامة ، ولكنها على كل حال لا تخلو من إضاءة بعض الظلمات في هذا المعنى ، وإذا مضينا في هذه السبيل انكشفت لنا خصائص ثانية لها صلة بطبائع القوم وأمزجتهم .

قال أبو الفرج بعد الأسانيد:[2]

قال عبد الله بن عمر العمري : خرجت حاجا فرأيت إمرأة جميلة تتكلم بكلام

---

(١) الجزء ١ الصفحة ١٤١

(٢) الجزء ١ الحفحة ١٥٥

رفثت فيه ، فأدنيت ناقتي منها ثم قلت لها : يا أمة الله ألست حاجة ! أما تخافين الله ،
فسفرت عن وجه يبهر الشمس حسناً ، ثم قالت : تأمل ياعم ! فانني ممن عناه
العَرْجي بقوله :

أماطت كساء الخزّ عن حرّ وجهها   وأدنت على الخدين برداً مهلهلا
من اللاء لم يحججن يبغين حسبة   ولكن ليقتلن البريء المغفّلا

قال : فقلت لها: فاني أسأل الله ان لايعذب هذا الوجه بالنار . قال: وبلغ ذلك
سعيد بن المسيب فقال : أما والله لو كان من بعض بغضاء العراق لقال لها : اعزبي
قبّحك الله ، ولكنه ظرف عبّاد أهل الحجاز .

يشير هذا الخبر إلى ظرف أهل الحجاز وقديماً كان يقولون : طاعة أهل الشام
ودهاء أهل العراق وظرف أهل الحجاز ولا شك في أن معرفة هذه الخصائص
تعيننا كثيراً على تركيب عناصر روح الأمة ، سيمر بنا في باب من الأبواب ان
الغناء العربي نشأ في الحجاز ، وفي ذكر الخبر الآتي مايدل على أن أهل الحجاز
مفطورون على حب الغناء .

خرج ابن عائشة المغني (١) من عند الوليد بن يزيد وقد غناه :

أبعدك معقلا أرجو وحصنا   قد أعيتني المعاقل والحصون

فأطربه ، فأمر له بثلاثين ألف درهم وبمثل كارة القصّار كسوة ، فبينا ابن
عائشة يسير إذ نظر اليه رجل من أهل وادي القرى كان يشتهي الغناء ويشرب
النبيذ فدنا من غلامه وقال: من هذا الراكب، قال : ابن عائشة المغني، فدنا منه وقال:
جعلت فداءك ! أنت ابن عائشة أم المؤمنين : قال : لا ، أنا مولى لقريش وعائشة أمي
وحسبك هذا ، فلا عليك أن تكثر ، قال : وما هذا الذي أراه بين يديك من المال
والكسوة قال : غنيت أمير المؤمنين صوتا فأطربته فكفر وترك الصلاة وأمر لي بهذا

---

(١) الجزء ٢ الصفحة ٧٠

المال وهـــذه الكسوة ، قال : جعلت فداءك ، فهل تمنّ علي بأن تسمعني ما أسمعته إياه ؟ فقال له : ويلك أمثلي يكلم بمثل هذا في الطريق ! قال : فما أصنع قال الحقني بالباب ، وحرّك ابن عائشة بغلة شقراء كانت تحته لينقطع عنه ، فعدا معه حتى وافيا الباب كفرسي رهان ، ودخل ابن عائشة ، فمكث طويلاً طمعاً في أن يضجر فينصرف ، فلم يفعل ، فلما أعياه قال لغلامه : أدخله ، فلما دخل قال له : ويلك من أين صبّك الله عليّ قال: أنا رجل من أهل وادي القرى أشتهي هذا الغناء ، فقال له : هل لك فيما هو أنفع لك منه ، قال : وما ذلك ؟ قال: مائتا دينار وعشرة أثواب تنصرف بها الى أهلك ، فقال : جعلت فداءك ، والله إن لي لبنيّة ما في أذنها علم الله حلقة من الورق فضلاً عن الذهب، وانّ لي لزوجة ما عليها يشهد الله قميص ، ولو أعطيتني جميع ما أمر لك به أمير المؤمنين على هذه الخلة والفقر اللذين عرفتكهما واضعفت لي ذلك لكان الصوت أعجب الي وكان ابن عائشة تائها لا يغني الا لخليفة أو لذي قدر جليل من إخوانه ،فتعجب ابن عائشة منه ورحمه ودعا بالدواة وكان يغني مرتجلا ،فغناه الصوت،فطرب له طرباً شديداً وجعل يحرك رأسه حتى ظن أن عنقه سينقصف ثم خرج من عنده ولم يرزأه شيئاً وبلغ الخبرُ الوليد ابن يزيد فسأل ابن عائشة عنه فجعل يغيب عن الحديث ، ثم جدّ الوليد به فصدقه عنه، وأمر بطلب الرجل فطلب حتى أحضر ووصله صلة سنية وجعله في ندمائه ووكله بالسقي ، فلم يزل معه حتى مات . .

فالرجل الذي يزهد في مائتي دينار وعشرة أثواب وله بنيّة ما في أذنها حلقة ، وزوجة ما عليها قميص ، ويحرص على سماع الغناء لمفطور على حب هذا الغناء .

ولكن هذه الأحكام كما قلت ليست مطردة .

أما أهل الشأم فقد وقع الينا من خصائصهم في كتاب الأغاني كبرهم وقلة حيائهم على نحو ما جاء في الخبر المتعلق بنصيب وكثيّر ، وقد روى أبو الفرج خبراً

آخر في حقهم فقال (١) :

قدم عروة بن الزبير على عبد الملك بن مروان فدخل فأجلسه معه على السرير، فجاء قوم فوقعوا في عبد الله بن الزبير ، فخرج عروة فقال للآذن : ان عبد الله بن الزبير ابن أمي وأبي ، فاذا أردتم أن تقعوا فيه فلا تأذنوا لي عليكم ، فذكر ذلك لعبد الملك بن مروان ، فقال له عبدالملك: قد أخبرني الآذن بما قلت ، وان أخاك لم يكن قتلنا إياه لعداوة ولكنه طلب أمراً وطلبناه فقتل دونه ، وان الشآم قوم من أخلاقهم أن لا يقتلوا أحدا الا شتموه ، فاذا أذنا لأحد قبلك فقد جاء من يشتمه فلا تدخل ، وإذا أذنا لأحد وأنت جالس فانصرف .

واما أهل العراق فقـــد أحطنا بشيء من طبائعم في الخبر الذي صور ظرف أهل الحجاز فان الفرق بين من يقول لامرأة يبهر وجهها الشمس حسنا : اعزُبي قبحك الله ، وبين من يقول لها : أسأل الله أن لا يعذب هذا الوجه بالنار انما هو فرق غير قليـل .

وقد نجد أخيراً في الخبر الآتي دليلا على تفاوت الأذواق بين بلد وبلد .

قال داود الثقفي :(٢)

كنا في حلقة ابن جريج وهو يحدثنا وعنده جماعة فيهم عبد الله بن المبارك وعدة من العراقيين إذ مرّ به ابن تيزن المغني وقد ائتزر بمئزر على صدره وهي إزرة الشطّار عندنا ، فدعاه ابن جريج فقال له : أحب أن تسمعني ، قال: أنا مستعجل ، فألح عليه فقال: إمرأته طالق ان غناك أكثر من ثلاثة أصوات، فقال له: ويحك ما أعجلك الى اليمين،غنني الصوت الذي غناه ابن سريج في اليوم الثاني من أيام منى على جمرة العقبة ، فقطع طريق الذاهب والجائي حتى تكسرت المحامل فغناه :

عوجي علي فسلمي جَبْر !

---

(١) الجزء ١٦ الصفحة ٤٤

(٢) الجزء ١ الصفحة ١٥٧

فقال : يابن جريج أحسنت والله ، ثلاث مرات، ويحك أعده ،قال : من الثلاثة، فاني قد حلفت ، قال : أعده فأعاده ، فقال : أحسنتَ ، فأعده من الثلاثة ، فأعاده وقام ومضى وقال : لولا مكان هؤلاء الثقلاء عندك لأطلتُ معك حتى نقضي وطرك ، فالتفت ابن جريج الى أصحابه فقال : لعلكم أنكرتم مافعلت ، فقالوا : إنا لننكره عندنا بالعراق ونكرهه ، قال : فما تقولون في الرجز يعني الحُداء قالوا : لا بأس به عندنا ، قال : فما الفرق بينه وبين الغناء .

***

العادات القديمة

في الافراح والاحزان

أحب بعد أن فرغت من الكلام على طائفة من الخصائص التي تكشف لنا القناع عن بعض حالات العقول والطبائع والأمزجة أن أتعرض لوصف جملة من العادات في الأفراح والأحزان ، وهذا كله يزيدنا قدرة على تنسيق روح الأمة ويهمني أن أكرر في هذا المقام أن غايتي انما هي التنبيه على خصب الموضوعات التي جال فيها صاحب الأغاني ، فان الأخبار المشتتة في تضاعيف كتابه تهدينا إلى كثير من نواحي تاريخنا الاجتماعي الغامض .

من عادات القوم في الماضي النوح أو النياحة على الموتى قال سياط:(١) كان ابن سريج أول من غنّى الغناء المتقن بالحجاز بعد طُوَيسٍ ، وكان مولده في خلافة عمر بن الخطاب وأدرك يزيد بن عبد الملك وناح عليه ، ومات في خلافة هشام ، وكان قبل أن يغني نائحاً ولم يكن مذكوراً حتى ورد الخبر مكةّ بما فعله مسرف ابن عُقبة بالمدينة فعلا على أبي قُبيسٍ وناح بشعر هو اليوم داخل في أغانيه وهو:

يا عين جودي بالدموعِ السفاح   وابكي على قتلى قريش البطاح

فاستحسن الناس ذلك منه ، فكان أولَ ماند. به .

قال ابن جامع : وحدّثني جماعة من شيوخ أهل مكة أنهم حدّثوه ان سُكينةَ بنت الحسين عليها السلام بعثت الى ابن سريجٍ بشعر أمرته ان يصوغ فيه لحناً يناح به فصاغ فيه وهو الآن داخل في غنائه ، والشعر :

يا أرض ويحك أكرمي أمواتي   فلقد ظفرت بسادتي وحماتي

---

(١) الجزء ١ الصفحة ٩٦

فقدّمه ذلك عند أهل الحرمين على جميع ناحة مكة والمدينة والطائف .

قال : وحدّثني ابن جامع وابن أبي الكنّات جميعاً أن سكينة بعثت اليه بمملوك لها يقال له : عبد الملك ، وأمرته أن يعلمه النياحة فلم يزل يعلمه مدة طويلة ثم توفي عمها أبو القاسم محمد بن الحنفية عليه السلام وكان ابن سريج عليلاً علة صعبة ، فلم يقدر على النياحة ، فقال لها عبدها عبد الملك : أنا أنوح لك نوحاً أنسيك به نوح ابن سريج ، قالت : أوتحسن ذلك ، قال : نعم ، فأمرته ، فناح ، فكان نوحه في الغاية من الجودة ، وقال النساء : هذا نوح غريض فلقّب عبد الملك الغريضَ ، وأفاق ابن سريج من علته بعد أيّام وعرف خبر وفاة ابن الحنفية فقال لهم : فمن ناح عليه ، قالوا : عبد الملك ، غلام سكينة، قال : فهل جوّز الناس نوحه ، قالوا : نعم ، وقدّمه بعضهم عليك ، فحلف ابن سريج ان لاينوح بعد ذلك اليوم وترك النوح وعدل الى الغناء ، فلم ينح حتى ماتت حبابة وكانت قد أخذت عنه وأحسنت اليه فناح عليها ، ثم ناح بعدها على يزيد بن عبد الملك ثم لم ينح بعده حتى هلك ، قال : ولمّا عدل ابن سريج عن النوح إلى الغناء عدل معه الغريض اليه ، فكان لايغني صوتا الا عارضه فيه .

فالنياحة كانت مستفيضة في تلك العصور ، وكانوا يعلّمونها الناس تعليما ، ولا يزال شيء منها في أيامنا هذه في بعض بلادالعرب، مثل القاهرة ولكنهم في القاهرة لاينوحون الا في جنائز الطبقات العامة .

وفي الخبر الآتي مايدل على تأثير النوح في القديم ، قال ابن مناذر لمحمد بن عمر الخرّاز:(١) ويحك ! لست أرى نساء ثقيف ينحن على عبد المجيد نياحةً على استواء قلت : فما تحب ، قال : تخرج معي حتى أطارحك ، فطارحني القصيدة التي يقول فيها:

ان عبد المجيد يوم تولّى ... هدّ ركنا ما كان بالمهدود
هدّ عبد المجيد ركني وقد كنـ ... ـت بركن أنوء منه شديد

---

(١) الجزء ١٧ الصفحة ١٤

قال : فما زلت حتى حفظتها ووعيتها ووضعنا فيها لحناً ، فلما كان في الليلة التي يناح بها على عبد المجيد فيها صلينا العشاء الآخرة في المسجد الجامع ثم خرجنا الى دارهم وقد صعد النساء على السطح ينحن عليه ، فسكتن سكتة لهن ، فاندفعنا ، أنا وهو ننوح عليه ، فلما سمعننا أقبلن يلطمن ويصحن حتى كدن ينقلبن من السطح إلى أسفل من شدة تشرفهن علينا ، وإعجابهن بما سمعنه منا ، وأصبح أهل المسجد ليس لهم حديث غيرنا ، وشاع الخبر بالبصرة وتحدث به الناس حتى نقل من مجلس الى مجلس .

فكما دلنا هذا الخبر على مبلغ النوع في القديم فقد دلنا على ان النساء كن في المآتم يلطمن وجوههن .

لقد عرفنا بعض عاداتهم في الأحزان فلنبحث عن عاداتهم في الأفراح ، مثل أفراح الختان ولنشهد مجلساً من تلك المجالس .

قال عبد الرحمن بن ابراهيم المخزومي :(١)

أرسلتني أمي وأنا غلام أسأل عطاء بن أبي رباح عن مسئلة ، فوجدته في دار يقال لها دار المعلّى ، وعليه ملحفة معصفرة وهو جالس على منبر ، وقد ختن ابنه والطعام يوضع بين يديه وهو يأمر به أن يفرّق في الخلق ، فلهوت مع الصبيان باللعب بالجوز حتى أكل القوم وتفرقوا وبقي مع عطاء خاصته فقالوا : يا أبا محمد ! لو أذنت لنا فأرسلنا الى الغريض وابن سريج ، فقال : ما شئتم ، فأرسلوا اليهما ، فلما أتيا قاموا معهما وثبت عطاء في مجلسه ، فلم يدخل ، فدخلوا بهما بيتاً في الدار ، فتغنيا وأنا أسمع فبدأ ابن سريج ، فنقر بالدف وتغنى بشعر كثيّر .

من هذا نستنبط أنهم في الختان كانوا يدعون الناس الى الأكل والى سماع الغناء ، وقد كانت هذه العادات كثيرة في دمشق ، وأخذت في عصرنا هذا تبطل شيئاً فشيئاً ، فالذين يبحثون عن تاريخنا الاجتماعي لا مندوحة لهم عن الرجوع الى أشباه هذه الأخبار حتى يصلوا بعضها ببعض ، وأهل دمشق يسمعون الختان : طهوراً

---

(١) الجزء ١ الصفحة ١٠٦

وقد استعمل هذا اللفظ في القديم مرادفاً للختان ، ولكنهم بدلاً من الطهور كانوا يقولون الطهر . قال أبو الفرج :(١)

أخبرني جعفر بن قدامة قال : حدثنا حماد ابن إسحق عن أبيه قال : كان زياد بن عبد الله الحارثي أبخل خلق الله ، فأولم وليمة لطهر بعض أولاده وكان الناس يحضرون ويقدم الطعام فلا يأكلون منه الا تعللاً وتشعثاً لعلمهم به ، فقدم فيما قدم جدي مشوي فلم يعرض له أحد وجعل يردده على المائدة ثلاثة أيام والناس يجتنبونه الى أن انقضت الوليمة فأصغى أشعب الى بعض من كان هناك فقال : امرأته طالق ان لم يكن هذا الجدي بعد أن ذبح أطول عمراً وأمد حياة منه قبل أن يذبح فضحك الرجل وسمعها زياد فتغافل .

وكما كانوا يختنون أبناءهم فكذلك كانوا يختنون بناتهم ، فقد ختن زيد بن ثابت الأنصاري بنته(٢) فأولم فاجتمع اليه المهاجرون والأنصار وعامة أهل المدينة وحضر حسان بن ثابت وقد كُفّ بصره يومئذ وثقل سمعه وكان يقول اذا دعي: أعرس أم عِذار ، فحضر ووضع بين يديه خُوان ليس عليه الا عبد الرحمن ابنه ، فكان يسأله : أطعام يد أم يدين ، يعني باليد الثريد ، وباليدين الشواء لأنه ينهش نهشاً ، فلم يزل يأكل حتى جاءوا بالشواء فقال : طعام يدين ، فأمسك يده حتى اذا فرغ من الطعام ثنيت وسادة وأقبلت الميلاء وهي يومئذ شابة ، فوضع في حجرها مزهر فضربت به ثم تغنت فكانت أول ما ابتدأت به شعر حسان :

فلازال قبر بين بصرى وجلّق ... عليه من الوسمي جود ووابل

قال: فطرب حسان وجعلت عيناه تنضحان وهو مصغ لها .

* * *

لقد حضرنا بعض مجالسهم في النياحة واللطم والختان ، فلنحضر مجالسهم في الأعياد ، فمن عاداتهم في الأعياد زينة النساء وظهورهن للرجال ، قال أبو الفرج :(٣)

(١) الجزء ١٧ الصفحة ١٠١
(٢) الجزء ١٦ الصفحة ١٣
(٣) الجزء ٧ الصفحة ٧٦

قال الزبير : وحدّثني أيضاً الأسباط بن عيسى بن عبد الجبّار العذري أن جميل ابن معمر خرج في يوم عيد ، والنساء إذ ذاك يتزيّن ويبدو بعضهن لبعض، ويبدون للرجال في كل عيد ، وان جميلاً وقف على بثينة وأختها أم الحسين في نساء من بني الأحب وهنّ بنات عم عبد الله بن قطبة أخي أبيه لحًّا فرأى منهنّ منظراً وأعجبنه وعشق بثينة وقعد معهنّ ثم راح وقد كان معه فتيان من بني الأحب فعلم أن القوم قد عرفوا في نظره حب بثينة ووجدوا عليه فراح وهو يقول :

عجل الفراق وليته لم يعجل	وجرت بوادر دمعك المتهلل
طربا وشاقك مالقيت ولم تخف	بين الحبيب غداة بُرقة مِجول
لن تستطيع الى بثينة رِجعة	بعد التفرق دون عام مقبل

قال : وان بثينة لما أخبرت أن جميلا قد نسب بها حلفت بالله لا يأتيها على خلاء إلا خرجت إليه ولا تتوارى منه ، فكان يأتيها عند غفلات الرجال ، فيتحدث اليها ومع أخوانها حتى نمي الى رجالها أنه يتحدث اليها إذا خلا منهم وكانوا أصلافاً غيراء أو قال : غيارى ، فرصدوه بجماعة نحو من بضعة عشر رجلا وجاء على الصهباء ناقته حتى وقف على بثينة وأمّ الحسين وهما يحدثانه وهو ينشدها يومئذ :

حلفت برب الراقصات الى منى	هُويّ القطا تجتزن بطن دفين
لقد ظن هذا القلب ان ليس لاقياً	سليمي ولا أم الحسين لحين
فليت رجالا فيك قد نذروا دمي	وهموا بقتلي يابثين لقوني

فبينما هو على تلك الحال إذ وثب عليه القوم فرماهم بها فسبقت به وهو يقول :

إذا جمع الاثنان جمعاً رميتهم	بأركانها حتى تخلى سبيلها

فكان هذا أول سبب المهاجاة بينه وبين عبيد الله بن قطبة .

❀ ❀ ❀

وإذا كانت زينة النساء مباحةً في الأعياد ، فقد كانت محظورة في غير الأعياد

قال أبو الفرج(١) :

أخبرني الحرمي بن أبي العلاء قال : حدثنا الزبير بن بكار قال ، حدثتني ظبية مولاة فاطمة بنت عمر بن مصعب قالت : أرسلتني مولاتي فاطمة في حاجة ، فمررت برحبة القضاء فاذا بضبيعة العبسي ، خليفة جعفر بن سليمان يقضي بين الناس ، فأرسل اليّ فدعاني ، وقد كنت رجّلت شعري وربطت في أطرافه من ألوان العهن ، فقال: ماهذا ، فقلت : شيء أتملّح به ، فقال ياحرسي ! قنعها بالسوط ، قالت : فتناولت السوط بيدي وقلت : قاتلك الله ، ماأبينَ الفرق بينك وبين سعد بن ابراهيم ، سعد يجلد الناس في السماجة ، وأنت تجلدهم في الملاحة ، وقد قال الشاعر .

جلد العادلُ سعد ابن سلم في السماجة
فقضى الله لسعد من أمير كل حاجة

قالت : فضحك حتى ضرب بيديه ورجليه وقال : خل عنها .

* *
*

فاذا أضفنا هذه الأخبار ، بعضها إلى بعض ، ثم ألفنا بينها ونسقناها تنسيقاً استطعنا أن نهتدي الى صورة تكشف لنا القناع عن خصائص روحنا وأخلاقنا وعاداتنا وتقاليدنا في الماضي ، فالخبر الأخير يدلنا من جهة على نزعة المرأة الى الزينة وإظهار هذه الزينة وهذا داخل في طبائعها ، ومن جهة ثانية يدلنا على الوقوف في سبيل هذه النزعة ، والرجوع إلى هذه الأخبار كلها والى الأشعار المتصلة بها يعيننا كما قلت على كشف أخلاقنا القديمة وخصائصنا الماضية ، فان هذه الأخبار والاشعار مادة يلجأ اليها بعض رجال الفلسفة في الغرب في تمحيص أخلاق الأمة التي ينتمون اليها .

ومن أطرف العادات التي تناهت الينا التحية بالرياحين وقد اشتقوا من هذه

(١) الجزء ٥ الصفحة ١٣١

المادة لفظاً وقالوا : التحيات ، وعمل التحيات ، قال أبو الفرج[1] بعد الأسانيد :

كان حنين غلاما يحمل الفاكهة بالحيرة ، وكان لطيفاً في عمل التحيات فكان إذا حمل الرياحين الى بيوت الفتيان ومياسير أهل الكوفه وأصحاب القيان والمتطربين إلى الحيرة ورأوا رشاقته وحسن قدّه وحلاوته وخفة روحه استحلوه وأقام عندهم وخف لهم وكان يسمع الغناء ويشتهيه ويصغي إليه ويستمعه ويطيل الاصغاء اليه ، فلا يكاد ينتفع به في شيء إذا سمعه حتى شدا منه أصواتاً فأسمعها وكان مطبوعا ، حسن الصوت واشتهوا غناءه والاستماع منه وعشرته وشهر بالغناء ومهر فيه وبلغ منه مبلغاً كثيراً ثم رحل الى عمر بن داود الوادي والى حكم الوادي وأخذ منهما وغنّى لنفسه في أشعار الناس فأجاد الصنعة وأحكمها ولم يكن بالعراق غيره فاستولى عليه في عصره وقدم ابن محرز حينئذ إلى الكوفة فبلغ خبره حنيناً وقد كان يعرفه فخشي أن يعرفه الناس فيستحلوه ويستولي على البلد فيسقط هو فقال له : كم منّتك نفسك من العراق ، قال : ألف دينار ، قال: فهذه خمسمائة دينار عاجلة فخذها وانصرف واحلف لي أنك لاتعود الى العراق ، فأخذها وانصرف .

وقد قال الذين تولوا طبعة الأغاني الجديدة في تعليقهم على لفظ التحيات : التحيات جمع تحية وهي مايحيّا به من نحو السلام، ومن المحتمل أن يراد منه مايقدم عند التحية من باقات الرياحين وقد كان العرب في الجاهلية يفعلون ذلك في عيد لهم ، يقال له : يوم السباسب ، قال النابغة :

يُحيّوْن بالريحان يوم السباسب .

وقد كان حنين نفسه الذي عرفنا جملة من ترجمته يحبي ضيوفه بالرياحين ، قال أبو الفرج :

أخبرني الحسين بن يحي قال : قال حمّاد بن اسحق: قرأت على أبي وقال أبو عبيدة الله الكاتب حدّثني سليمان بن بشر بن عبدالملك بن مروان قال :

---

(١) الجزء ٢ الصفحة ١١٨

وكان بعض ولاة الكوفة يذمّ الحيرة في أيام بني أمية فقال له رجل من أهلها، وكان عاقلا ظريفاً : أتعيب بلدةً بها يضرب المثل في الجاهلية والاسلام ، قال : وبماذا تمدح ، قال بصحة هوائها ، وطيب مائها ، ونزهة ظاهرها ، تصلح للخف والظلف ، سهل وجبل ، وبادية وبستان ، وبر وبحر ، محل الملوك ومزارهم ، ومسكنهم ومثواهم وقد قدمتها ، أصلحك الله ، مخفاً فرجعت مثقلاً ووردتها مقلا فأصارتك مكثراً قال : فكيف نعرف ما وصفتها به من الفضل قال : بأن تصير اليّ ، ثم أدعُ ماشئت من لذات العيش ، فوالله لا أجوز بك الحيرة فيه ، قال : فاصنع لنا صنيعاً واخرجْ من قولك ، قال : أفعلُ ، فصنع لهم طعاماً وأطعمهم من خبزها وسمكها وما صيد من وحشها من ظباء ونعام وأرانب وحبارى ، وسقاهم ماءَها في قِلالها ، وخمرها في آنيتها ، وأجلسهم على رقمها ، وكان يتخذُ بها من الفرش أشياء ظريفة ، ولم يستخدم لهم حرا ولا عبداً الا من موّلديها ومولّداتها من خدم ووصائف ووصفاء كأنهم اللؤلؤ ، لغتهم لغة أهلها ، ثم غناهم حنين وأصحابه في شعر عدي بن زيد شاعرهم ، وأعشى همدان لم يتجاوزها ، وحيّاهم برياحينها ، ونقلهم على خمرها ، وقد شربوا بفواكهها ، ثم قال له : هل رأيتني استعنت على شيء مما رأيت وأكلت وشربت وافترشتَ وشممت وسمعت بغيرما في الحيرة ، قال : لا والله ! ولقد أحسنتَ صفة بلدك ونصرته فأحسنت نصرته والخروجَ مما تضمنته فبارك الله لكم في بلدكم !

→ shows characters
Abb. el.
shows society

المرأة في كتاب الأغاني

أنتقل من أفق عام في كتاب الأغاني الى أفق خاص ، من أفق الحياة المادية الى أفق الحياة المعنوية على تعبير هذا العصر ، لقد نظرنا حتى اليوم في طائفة من موضوعات الأغاني التي لها صلة بأخبار العامة والكتاتيب والملاهي والدور والفرش والثياب وقصور الخلفاء والأندية والمطاعم والحانات والقصّاص والمصورين وخصائص بعض بلدان العرب وعادات الناس في الأفراح والأحزان وما شابه ذلك ، الاّ أن كتاب الاغاني يشتمل على موضوعات من غير هذا الشكل ، من جملة موضوعاته : الحرية والعبودية في العصور الماضية .

للحرية مظاهر شتّى في كتاب الأغاني ،أدقّ هذه المظاهر حرية المرأة ، ولقد ظهرت هذه الحرية على أوجه كثيرة ، أعرض لطائفة منها على سبيل الاستشهاد .

نجد في أخبار دريد بن الصمة (١) انه مرّ بالخنساء بنت عمرو بن الرشيد وهي تهنأ بعيرا لها وقد تبذّلت حتى فرغت منه ثم نضت عنها ثيابها فاغتسلت ودريد بن الصمّة يراها وهي لا تشعر به فأعجبته فانصرفت الى رحله وأنشأ يقول :

حيّوا تماضرَ وأربعوا صحبي	وقفوا فانّ وقوفكم حسبي
أخناسُ قد هام الفؤاد بكم	وأصابه تَبْلٌ من الحب
ما إن رأيتُ ولا سمعت به	كاليوم طالي أينق جُرْب
متبذلا تبدو محاسنه	يضع الهناء مواضع النقْب
متحسرا نضح الهناء به	نضح العبير بريْطة العطب

---

(١) الجزء ٩ الصفحة ١٠

فسليهم عني خناسُ إذا عض الجميع الخطبُ : ما خطبي

قالوا : وتماضر اسمها ، والخنساء لقب غلب عليها ، فلما أصبح غدا على أبيها يخطبها إليه ، فقال له أبوها : مرحباً بك أباقرة ! انك لكريم لا يطعن في حسبه ، والسيد لا يرد عن حاجته ، والفحل لا يقرع أنفه ، وقال أبو عبيدة خاصة : فكان لا يطعن في عيبه ، ولكن لهذه المرأة في نفسها ما ليس لغيرها ، وانا ذاكرك لها وهي فاعلة ، ثم دخل اليها ، وقال لها : ياخنساء أتاك فارس هوازن وسيد بني جُشم ، دريد بن الصِمة يخطبك وهو ممن تعلمين ، ودريد يسمع قولهما ، فقالت : ياأبت أتراني تاركة بني عمي مثلَ عوالي الرماح ، وناكحة شيخ بني جُشم ، هامةَ اليوم أو غد ، فخرج إليه أبوها فقال : يا أبا قرة قد امتنعت ، ولعلها أن تجيب فيما بعد ، فقال : قد سمعت قولكما وانصرف .

يدلنا هذا الخبر على أن المرأة كانت تملك حرية الزواج حتى في الجاهلية ، فاذا خطبها أحد استشارها أهلها في ذلك ، فاما أن تمتنع واما أن تجيب ، وهذه الحرية انما هي رأس الحريات ، لأن الزواج المبني على الاكراه إنما عواقبه غير محمودة ، ولا نزال نرى آثار هذه الحريةفي كثير من قرى الشام .

ولم تكن حرية الزواج في الجاهلية وحدها ، وإنما كانت هذه الحرية في الاسلام ، كلنا نعلم مكانة الحجاج في عصر بني أمية ، وعلى الرغم من شدة سلطانه كان اذا خطب إمرأة لا بد لأهلها من الرجوع الى رأيها في الزواج ، فقد خطب هنداً بنت أسماء بن خارجة الفزاري وكانت زوج عبيد الله بن زياد ثم زوج بشر ابن مروان وهذه قصة هذه الخطبة (١) :

بعث الحجاج أبا بردة بن أبي موسى الأشعري وهو قاضيه الى أسماء يقول له : إن قبيحاً بي مع بلاء أمير المؤمنين عندي أن أقيم بموضع فيه إبنا اخيه بشر ،

---

(١) الجزء ١٨ الصفحة ١٢٩

لأضمّها اليّ وأتوالّى منها مثل ما أتولّى من ولدي ، فاسأل هنداً أن تطيب نفسا عنها وقال عمر بن شُبّة في خبره ، وأعلمها أنه لابد من التفرقة بينها وبينها حتى أؤدبها قال أبو بردة : فاستأذنت ، فأذن لي وهو يأكل وهند معه ، فما رأيت وجهاً ولا كفاً ولا ذراعاً أحسن من وجهها وكفها وذراعها ، وجعلت تحفني وتضع بين يدي.

قال أبو زيد في خبره : فدعاني الى الطعام فلم أفعل ، وجعلت تعبث بي وتضحك فقلت : أما والله لو علمت ماجئت له لبكيت ، فأمسكت يدها عن الطعام ، فقال أسماء : قد منعتها الأكل ، فقل ماجئت له ، فلما بلّغتُ أسماء ما أرسلتُ به بكت فلم أر والله دموعاً قط سائلةً من محاجر أحسن من دموعها على محاجرها ، ثم قالت : نعم ، أرسل بها اليه ، فلاأحد أحق بتأديبها منه ، وقال أسماء : انما عبدالملك ثمرة قلوبنا ، يعني عبد الملك بن بشر ، أنسنا به ، ولكن أمر الأمير طاعة ، فأتيت الحجاج فأعلمته جوابها وهيئتها ، فقال : ارجع فاخطبها عليّ ، فرجعت وهما على حالها ، فلما دخلت قلت : قد جئت بغير الرسالة الأولى ، قال : اذكر ما أحببت قلت : قد جئت خاطباً ، قال : أعلى نفسك ، فما بنا عنك رغبة ، قلت : لا ، على من هو خير لها مني وأعلمته ما أمرني به الحجاج ، فقال : ها هي تسمع ما أديت ، فسكتت ، فقال أسماء : قد رضيت وقد زوجته إياها.

وشاهد آخر على هذه الحرية ما رواه أبو الفرج في زواج هند بنت أبي عبيدة قال :(1) لما مات عبد الله بن عبد الملك رجعت هند بميراثها منه فقال عبد الله بن حسن لأمه فاطمة : اخطبي عليّ هنداً ، فقالت : اذا تردك أتطمع في هند ، وقد ورثت ما ورثته ، وأنت ترب لامال لك ، فتركها ومضى الى أبي عبيدة أبي هند فخطبها إليه ، فقال : في الرحب والسعة ، أمّا مني ، فقد زوجتك ، مكانك ! لاتبرح ودخل على هند وقال يابنية : هذا عبد الله بن حسن أتاك خاطباً ، قالت : فما قلت له قال : زوجته ، قالت : أحسنت ، قد أجزت ما صنعت ، وأرسلت الى عبد الله :

---

(1) الجزء ١٨ الصفحة ٢٠٨

لاتبرح حتى تدخل على أهلك ، قال : فتزينت له ، فبات بها مُعرِساً من ليلته ، ولا تشعر أمه ، فأقام سبعاً ، ثم أصبح يوم سابعه غادياً على أمه ، وعليه رَدْع الطيب ، وفي غير ثيابه التي تعرف ، فقالت له : يابنيّ من أين لك هذا! قال: من عندالتي زعمت أنها لاتريدني .

وقد تمرّ بنا أخبار طريفة في حرية الزواج ، أذكر منها على سبيل الاستشهاد الخبر الآتي (١) :

كانت سكينة عند عمر بن حكيم بن حِزام ، ثم تزوجها بعد ذلك زيد ابن عمرو بن عثمان بن عفان ، ثم تزوجها مصعب بن الزبير ، فلما قتل مصعب خطبها إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، فبعثت إليه : أبلغ من حمقك أن تبعث الى سكينة بنت الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تخطبها ، فأمسك عن ذلك ، قال : ثم تنفست يوماً بنانةُ جارية سكينة وتنهدت حتى كادت أضلاعها تنحط ، فقالت لها سكينة : مالك ويلك ! قالت : أحب أن أرى في الدار جَلَبة تعني العرس ، فدعت مولى تثق به ، فقالت له : اذهب الى إبراهيم بن عبد الرحمن ابن عوف ، فقل له ان الذي ندفعك عنه قد بدا لنا فيه ، أئت أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال فجمع عدة من بني زُهْرةَ وأعيان قريش من بني جُمح ، وغيرهم نحواً من سبعين أو ثمانين رجلاً ، ثم أرسل الى علي بن الحسين وحسن بن الحسن وغيرهم من بني هاشم ، فلما أتاهم الخبر اجتمعوا وقالوا : هذه السفيهة تريد أن تتزوج إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، قالوا : فتنادى بنو هاشم واجتمعوا وقالوا لايخرج منكم إنسان الا ومعه عصا ، فجاؤا وما بقي الا الكلام ، فقال: اضربوا بالعصيّ ، فتضاربوا هم وبنو زهرة حتى تشاجوا ، فشج بينهم يومئذ اكثر من مائة إنسان ثم قالت بنو هاشم : أين سكينة ، قالوا في هذا البيت ، فدخلوا اليها ، فقالوا : أبلغ هذا من صنعك ، ثم جاءوا بكساء طاروقي ، فبسطوه ، ثم حملوها وأخذوا بجوانبه

---

(١) الجزء ١٤ الصفحة ١٦٢

أو قال بزواياه الأربع ، فالتفتت الى بنانة ، فقالت: اي بنانة ! أرأيت في الدار جلبة
قالت: أي والله ، الا انها شديدة !

❀❀❀

لم أستدل بهذا الخبر على حرية الزواج فان آثار الضغط ظاهرة عليه ، ولكن سكينة لما صنعت صنعها هذا لم ترد به الزواج ، فقد ردّت ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف من أول الأمر وحمّقته ، وانما أرادت به العبث ، ويدل على ذلك قولها في آخر الخبر : أي بنانة أرأيت في الدار جلبة !

ولم تقتصر المرأة على حرية الزواج وحده وانما فكّرت في أن يكون أمر الطلاق اليها .
كان الخارجي واسمه محمد بن بشير[1] شاعراً فصيحاً ، ويكنى أبا سليمان ، فقدم البصرة في طلب ميراث له ، فخطب عائشة بنت يحي بن يعمر الخارجية من غزوان فأبت أن تتزوجه الا بعد أن يقيم معها بالبصرة ويترك الحجاز ويكون أمرها في الفرقة اليها ، فأبى ان يفعل ذلك وقال :

أرق الحزين وعاده سُهدُه	لطوارق الهمّ الذي يرده
وذكرت من لانت له كبدي	فأبى فليس تلين لي كبده
وأبى فليس بنازلٍ بلدي	أبداً وليس بمصلحي بلدُه
فصدعت حين أبى مودته	صدع الزجاجة ، دائمٌ أبده
وعرفت أن الطير قد صدقت	يوم الكدانة شرّ ما تعده
فاصبر فان لكل ذي أجل	يوماً يجيءُ ، فينقضي عدده
ماذا تعاتب من زمانك ان	ظعن الحبيب وحلّ بي كمده

وخاطب أباها يحي بن يعمر في ذلك ، فقال له : انها امرأة برزة عاقلة ، ولا

---

(١) الجزء ١٤ الصفحة ١٤٣

يفتات على مثلها بأمرها ، وما عنك من رغبة ، ولكنها امرأة في خلقها شدة ، ولها غيرة ، وقد بلغني أن لك زوجتين وما أراها تصبر على أن تكون ثالثة لهما ، فانظر في أمرك وشاور فيه ، فاما أن أقمت بالبصرة معها ، فعفت لك عن صاحبتيك ، اذ لامجاورة بينها وبينها ، ولا عشرة ، وان شئت مفارقتها وإخراجها معك ، فصار الى رحله مغموماً ، وشاور ابن عم له يقال له ورّاد بن عمرو في ذلك فقال له : ان في يحي ابن يعمر لرغبة لثروته وكثرة ماله وما ذكر من جمال ابنته ، وما نحب ان تفارق زوجتيك وكانت احداها بنة عمه ، والاخرى من أشجع ، فتقيم معها السنة بالبصرة وتمضي بخير ، فان رغبت فيها تمسكت بها وأقمت بمكانك ، وإن رغبت في العود الى بلدك كتبت الينا فجئناك حتى تنصرف معنا ، ففكر ليلته أجمع ، ثم غدا عازماً على الرجوع الى الحجاز .

وكما كانت المرأة تملك حريتها في الزواج وتفكر في أن يكون أمر الطلاق لها فكذلك كانت تملك حريتها في التحدث الى الرجال في بعض الأوقات ، فبينا الأخطل جالس عند امرأة من قومه[1] وكان أهل البدو اذ ذاك تحدث رجالهم الى النساء لايرون بذلك بأساً ، وبين يديه باطية شراب ، والمرأة تحدثه ، وهو يشرب ، اذ دخل رجل ، فثقل على الأخطل وكره أن يقول له : قم ، استحياء منه وأطال الرجل الجلوس الى أن أقبل ذباب ، فوقع في الباطية في شرابه ، فقال الرجل : يا أبا مالك ! الذباب في شرابك ، فقال :

وليس القذى بالعود يسقط في الخمر	ولا بذباب نزعه أيسر الأمر
ولكن قذاها زائر لانحبه	رمتنا به الغيطان من حيث لاندري

قال: فقام الرجل ، فانصرف.

فاذا دققنا في هذه المظاهر الثلاثة: حرية المرأة في الزواج والطلاق والاجتماع الى الرجال وجدنا أن المرأة العربية في القديم لاتقل شأناً عن أرقى نساء هذا

---

(١) الجزء ٧ الصفحة ١٧٥

العصر في الأمم الحديثة من حيث الحرية ، أو من حيث النزعة الى هذه الحرية .

ولا بأس بأن نستمر في هذا الباب حتى نهتدي إلى طائفة من تقاليد المرأة في عصورنا الغابرة .

صحب بن محمد بشير رفقة من قضاعة(١) فكان إلى مكة ، وكانت فيهم امرأة جميلة ، فكان يسايرها ويحادثها ، ثم خطبها إلى نفسه ، فقالت : لاسبيل إلى ذلك ، لأنك لست لي بعشير ولا جار في بلدي ولا أنا ممن تطمعه رغبة عن بلده ووطنه ، فلم يزل يحادثها ويسايرها حتى انقضى الحج ، ففرق بينها نزوعها إلى أوطانها فقال في ذلك :

أستغفر الله ربي من مخدّرة	يوما بدا لي منها الكشح والكتد
من رفقة صاحبونا في نداتهم	كلٌ حرام فما ذموا ولا حمدوا
حتى إذا البُدْنُ قاست في مناحرها	يعلو المحاسن منها مُزْبد جمد
حلّق القوم واعتمّوا عمائمهم	حلّ كل حرام رأسه لبد
أقبلتُ أسألها مابال رفقتها	وما أبالي أغاب القوم أم شهدوا
تفرّقت لي واحلولت مقالتها	وخوفتني وقالت : بعض ماتجد
انّى ينال حجازي بحاجته	احدى بني القين إذ ما داوها يرد

للعشير معنيان : القريب والصديق ، فاذا جعلنا معنى العشير في هذا الخبر : القريب، استنبطنا من ذلك أن المرأة كانت تختار في زواجها أحد أقاربها أوجيرانها وإذا جعلنا معنى العشير : الصديق ، أستخرجنا من ذلك أن الزواج يصحبه شيء من الصداقة أو العشرة قبل أن يتم ، فاذا أرادت المرأة ان تتزوج خبرت أخلاق من يخطبها قبل الزواج .

ليست غايتي في الكلام على حرية المرأة أن أستقصي في هذا الكلام ، وإنما غايتي أن أذكر بعض نماذج من حال المرأة في حريتها ، على أختلاف أشكال هذه

---

(١) الجزء ١٤ الصفحة ١٤٦

الحرية ، أو أذكر نماذج تشير إلى إجتماعاتها وغير ذلك ، والأمثال في هذا الباب كثيرة وأنا ذاكر منها ماتيسر .

نجد في أخبار الفرزدق(١) أنّ ليلى الأخيلية كانت سافرة لم ير الفرزدق كحسنها وهيئتها قط ، ماينشدها شعراً إلا أنشدته أحسن منه ، وكان الشباب يتحدثون اليها .

وإذا دلّ هذا الخبر على سفور المرأة فان الخبر الآتي يدل على حجابها ، ففي أخبار عاتكة زوج عبد الله بن أبي بكر الصديق(٢) أن عمر بن الخطاب خطبها بعد أن مات زوجها من السهم الذي أصابه بالطائف ، فقالت : قد كان أعطاني حديقة على أن لا أتزوج بعده ، قال لها عمر فاستفتي ، فاستفتت علي بن أبي طالب فقال : ردي الحديقة على أهله وتزوجي ، فتزوجت عمر ، فسرّح عمر إلى عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيهم علي بن أبي طالب ، صلوات الله عليه ، يعني دعاهم لمّا بنى بها ، فقال له علي : إن لي الى عاتكة حاجة أريد أن أذكرها إياها ، فقل لها تستتر ، حتى أكلّمها ، فقال لها عمر : استتري ياعاتكة ، فان ابن أبي طالب يريد أن يكلمك ، فأخذت عليها مِرْطها ، فلم يظهر منها إلا ما بدا من براجمها .

لقد كثرت الشواهد في كتاب الأغاني على اجتماع الرجال إلى النساء ، فقد بلغت النساء من الحرية كل مبلغ ، قالت سكينة(٣) لعائشة بنت طلحة : أنا أجمل منك ، وقالت عائشة : بل أنا ، فاختصمتا إلى عمر بن أبي ربيعة ، فقال : لأقضينّ بينكما ، أما أنت يا سكينة فأملح منها ، وأما أنت ياعائشة فأجمل منها ، فقالت سكينة : قضيت لي والله ، وكانت سكينة تسمي عائشة : ذات الأذنين ، وكانت عظيمة الأذنين .

فهذا النمط من الحرية لانكاد نجد نظيره في عصرنا هذا .

---

(١) الجزء ١٩ الصفحة ٢٦

(٢) الجزء ١٦ الصفحة ١٢٩

(٣) الجزء ١٤ الصفحة ١٦٢ .

وبلغت النساء من حرية الاجتماع مبلغاً يشبه ما بلغته النساء في أعظم الأمم في عصرنا هذا فقد كن يعقدن مجالس أدب ، تشبه مانسميه في هـــذه الأيام : الصالونات ، من هذه المجالس مجالس سكينة بنت الحسين ، ولا بأس بأن نحضر هذا المجلس .

اجتمع في ضيافة سكينة بنت الحسين عليه السلام[1] جرير والفرزدق و كثير وجميل ونصيب ، فمكثوا أياما ثم أذنت لهم ، فدخلوا عليها فقعدت حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم ثم أخرجت وصيفة لها وضيئة قد روت الأشعار والأحاديث فقالت : أيكم الفرزدق ، فقال لها : ها أناذا ، قالت : أنت القائل :

هما دلتاني من ثمانين قامة ... كما انحط باز أقتم الريش كاسره

فلما استوت رجلاي بالأرض قالتا ... أحي يرجى أم قتيل نحاذره

فقلت ارفعوا الأمراس لايشعروا بنا ... وأقبلت في أعجاز ليل أبادره

أبادر بوابين قد وكلا بنا ... وأحمر من ساج تبص مسامره

قال : نعم ، قالت فما دعاك إلى إفشاء سرها وسرك ، هلا سترت عليها وعليك ، خذ هذه الألف والحق بأهلك ، ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : أيكم جرير ، قال : ها أناذا ، فقالت أنت القائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... حين الزيارة فارجعي بسلام

تجري السواك على أغر كأنه ... برد تحدر من متون غمام

لو كان عهدك كالذي حدثتنا ... لوصلت ذاك وكان غير لمام

اني أواصل من أردت وصاله ... بحبال لا صلف ولا لوام

قال : نعم ، قالت أولا أخذت بيدها وقلت لها مايقال لمثلها ، أنت عفيف وفيك ضعف ، خذ هذه الألف والحق بأهلك ، ثم دخلت إلى مولاتها وخرجت فقالت : أيكم كثير ، قال : ها أنذاك ، قالت أنت القائل :

وأعجبني يا عز منك خلائق ... كرام إذا عد الخلائق أربع

---

(١) الجزء ١٤ الصفحة ١٦٦

دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا　　　ودفعك أسباب المنى حين يطمع
فوالله ما يدري كريم مماطل　　　أينساك اذ باعدت أو يتصدع

قال : نعم ، قالت : ملحت وشكلت ، خذ هذه الثلاثة الآلاف والحق بأهلك ، ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : أيكم نصيب ، قال : ها أنا ، فقالت : أنت القائل :

ولولا أن يقال صبا نصيب　　　لقلت بنفسي النشأ الصغار
بنفسي كل مهضوم حشاها　　　اذا ظلمت فليس لها انتصار

فقال : نعم ، فقالت : ربيتنا صغارا ومدحتنا كباراً ، خذ هذه الالف والحق بأهلك ، ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : ياجميل مولاتي تقرئك السلام وتقول لك والله ما زالت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة　　　بوادي القرى اني اذاً لسعيد
لكل حديث بينهن بشاشة　　　وكل قتيل عندهن شهيد

جعلت حديثنا بشاشة ، وقتلانا شهداء ، خذ هذه الألف دينار والحق بأهلك

الأخبار من هذا النوع كثيرة في كتاب الأغاني ، اكتفي منها بذكر ما أستشهد به على اجتماع النساء الى الرجال في مجالس أدب ، تشبه مجالس أعظم الأمم شأناً ، إلا أن المهم في هذه الاجتماعات أن النساء كن لايبرزن للرجال فان العبارة التي وردت في الخبر الماضي : فقعدتْ حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم ، انما هي عبارة واضحة ، وكذلك العبارة التي وردت في زواج عمر بن الخطاب ، فقد قال عمر لعاتكة : استتري ياعاتكة فان ابن ابي طالب يريد ان يكلمك ، فهذه عبارة تدل على الحجاب .

وقد كثرت الشواهد على الحجاب مرة وعلى السفور مرة ، ورأينا هذا الأمر في أثناء كثير من الأخبار التي أشرت إليها ، وكيف كانت الحال فأن إجتماع الرجال إلى النساء كان واقعاً لاشك فيه .

ولكن المرأة كانت تبرز مرة وتستتر مرة في هذه الاجتماعات ، وأرى أن أختم هذا المعنى بأخبار قليلة تتصل به .

خلاصة

خرج النصيب أبو محجن(١) هو وكثير والأحوص غب يوم أمطرت فيه السماء ، فقال : هل لكم في أن نركب جميعاً فنسير حتى نأتي العقيق فنمتع فيه أبصارنا ، فقالوا : نعم ، فركبوا أفضل ما يقدرون عليه من الدواب ولبسوا أحسن ما يقدرون عليه من الثياب ، وتنكروا ثم ساروا حتى أتوا العقيق ، فجعلوا يتصفحون ويرون بعض مايشتهون حتى رفع لهم سواد عظيم فأموه حتى أتوه فاذا وصائف ورجال من الموالي ونساء بارزات فسألنهم ان ينزلوا ، فاستحيوا أن يجيبوهن من أول وهلة فقالوا : لانستطيع أو نمضي في حاجة لنا ، فحلفنهم أن يرجعوا اليهن ففعلوا وأتوهن فسألنهم النزول فنزلوا ودخلت امرأة من النساء فاستأذنت لهم فلم تلبث أن جاءت المرأة فقالت : ادخلوا ، فدخلنا على امرأة جميلة برزة على فرش لها فرحبت وحيت وإذا كراسي موضوعة فجلسنا جميعاً في صف واحد ، كل انسان على كرسي فقالت : ان احببتم ان ندعو بصبي لنا فنصيحه ونعرك اذنه فعلنا وإن شئتم بدأنا بالغداء فقلنا : بل تدعين بالصبي ولن يفوتنا الغداء فأومأت بيدها الى بعض الخدم فلم يكن الا كلا ولا حتى جاءت جارية جميلة قد سترت عليها بمطرف فأمسكوه عليها حتى ذهب بهرها ثم كشف عنها وإذا جارية ذات جمال قريبة من جمال مولاتها فرحبت بهم وحيتهم فقالت لها مولاتها : خذي ويحك من قول النصيب عافى الله أبا محجن :

ألا هل من البين المفرق من بد   وهل مثل أيام بمنقطع السعد

تمنيت أيامي أولئك والمنى   على عهد عاد ماتعيد ولا تبدي

فغنته فجاء كأحسن ماسمعته قط بأحلى لفظ وأشجى صوت ، وبقية الخبر على هذا الشكل ، والمرأة من بني أمية .

وفي خبر من أخبار مجنون بني عامر(٢) كان المجنون أول ماعلق ليلى كثير

---

(١) الجزء ١ الصفحة ١٣٧

(٢) الجزء ١ الصفحة ١٧٦

الذكر لها والاتيان اليها والعرب ترى ذلك غير منكر أن تحدث الفتيان الى الفتيات.

فاذا كانت المرأة برزة في بعض المجالس ، فقد كانت مستترة في مجالس ثانية ، ففي أخبار عمر بن أبي ربيعة أنه دخل الى كلثم بنت سعد المخزومية فتهيأت أجمل تهيئة وزينت نفسها ومجلسها وجلست له وراء ستر[1].

والخلاصة كانت صلة المرأة بالرجل في تلك العصور شديدة جداً.

كانت حبشية من مولدات مكة ظريفة[2] ، صارت الى المدينة ، فلما أتاهم موت عمر بن أبي ربيعة اشتد جزعها وجعلت تبكي وتقول : من لمكة وشعابها وأباطحها ونزهها ووصف نسائها وحسنهن وجمالهن ووصف مافيها ، فقيل لها : خفّضي عليك فقد نشأ فتى من ولد عثمان رضي الله عنه يأخذ مأخذه ويسلك مسلكه ، فقالت أنشدوني من شعره فأنشدوها ، فمسحت عينها وضحكت وقالت: الحمد لله الذي لم يضيع حرمه !

واني أرى أن هذه الحبشية كانت تمثّل نساء عصرها في نظرة المرأة الى الرجل وفي ذوقها الأدبي وطبيعة ثقافتها .

وقد كان السفور مباحاً في بعض حالات ، فقد حدث علويه قال : قال ابراهيم الموصلي يوماً إني قد صنعت صوتاً وما سمعه مني أحد بعد وقد أحببت ان أنفعك وأرفع منك بأن ألقيه عليك وأهبه لك ، ووالله مافعلت هذا باسحق قط ، وقد خصصتك به ، فانتحله وادعه ، فلست انسبه الى نفسي ، وستكسب به مالا فأتى علي قوله :

اذا كان لي شيئان ياأم مالك فان لجاري منهما ماتخيرا

فأخذته وادعيته وسترته طول أيام الرشيد خوفاً من أن أتهم فيه وطول أيام الأمين حتى حدث عليه ماحدث وقدم المأمون من خراسان ، وكان يخرج الى الشماسية دائماً يتنزه ، فركب في زلال وجئت اتبعه فرأيت حراقة علي بن هشام

(١) الجزء ١ الصفحة ٨٠

(٢) الجزء ١ الصفحة ١٤٩

فقلت للملاح : اطرح زلالي على الحراقة ففعل ، واستؤذن لي فدخلت وهو يشرب مع الجواري ، وكانوا يحجبون جواريهم في ذلك الوقت مالم يلدن ، فاذا بين يديه متيّم وبذل ، جواريه ، فغنيته الصوت فاستحسنه جداً وطرب عليه وقال : لمن هذا؟ فقلت : هذا صوت صنعته وأهديته لك ، ولم يسمعه أحد قبله ، فازداد عجباً وطربا وقال لها : خذيه عنه فألقيته عليها حتى أخذته ، فسر بذلك وطرب وقال : مالي ما أجد لك مكافأة على هذه الهدية إلا ان أتحول عن هذه الحراقة بما فيها وأسلمه اليك أجمع ، فتحول الى أخرى ، وسلمت الحراقة بخزانها وجميع الاتها اليّ وكل شيء فيها فبعت ذلك بمائة وخمسين ألف درهم واشتريت بها ضيعتي الصالحية .

*

* *

فهذا الخبر صريح ، فقد كانوا في بعض الأوقات لا يحجبون جواريهم مالم يلدن وأرى أن أذكر شيئاً آخر من اجتماع النساء الى الرجال .

لم تحرم المرأة حق الاجتماع الى الرجال ، سواء أكانت برزة أم كانت مستترة في أمثال هذه الاجتماعات ، الا ان هذه الحرية التي كانت تتمتع بها كان يصحبها شيء من الثقافة الأدبية ، واذا قلت الثقافة الأدبية ، فاني لم أرد بذلك إلا حفظ المرأة لبعض شعر العرب ، وحسن ذوقها في هذا الحفظ ، وصواب نقدها في بعض الأحيان .

وما أحببت أن أتكلم على بعض ثقافة المرأة في هذا الفصل إلا لأبين ان حريتها لم تتمتع بها في حالة جهلها ، وإنما تمتعت بها في حالة أدبها وعلمها وكمالها .

من هذه الثقافة حفظ المرأة للشعر . قال ابو الحسن اليَنْبُعي [1] :

بينا انا وصديق لي من قريش نمشي بالبلاط ليلاً إذا بظل نسوة في القمر ، فالتفتنا فاذا بجماعة نسوة ، فسمعت واحدةً منهن وهي تقول : أهو ، هو ، فقالت

---

(١) الجزء ١٥ الصفحة ١٤٨

١٦٧ ص
١
٨
ثقافة المرأة
حفظ المرأة للشعر

الاخرى : نعم والله ، انه لهو هو ، فدنت مني ، ثم قالت :يا كهل قل لهذا الذي معك:

ليست لياليك في خاخ بعائدة كما عهدتَ ولا أيام ذي سلم !

فقلت له : أجب ، فقد سمعت ، فقال : قد والله ُقطع بي ، وأرتج عليّ فأجب عني ، فالتفت اليها ثم قلت :

فقلت لهـا يا عزّ كل مصيبـة اذا وطّنت يوما لها النفس ذلّت

فقالت المراة : أوه ! ثم مضت ومضينا ، حتى إذا كنا بمفرق طريقين مضى الفتى إلى منزله ، ومضيت أنا إلى منزلي ، فاذا أنا بجويرية تجذب ردائي ، فالتفت إليها فقالت : المرأة التي كلمتك تدعوك ، فمضيت معها حتى دخلَت داراً ، ثم صرت إلى بيت فيه حصير ، وثنيت لي وسادة فجلست عليها ، وقالت ، انت المجيب ، قلت نعم ،قالت: ما كان أفظ جوابك وأغلظه ، قلت : والله ماحضرني غيره ، فبكت ثم قالت لي : والله ماخلق الله خلقا أحب إلي من انسان كان معك ، قلت : وأنا الضامن لك عنه ما تحبين ، قالت : أوتفعل ، قلت : نعم فوعدتها أن آتيها به في الليلة القابلة وانصرفت فاذا الفتى ببابي ، فقلت ماجاء بك قال : علمت أنها سترسل إليك وسألت عنك فلم أجدك فعلمت أنك عندها فجلست أنتظرك ، فقلت : فقد كان كل ماظننت ،ووعدتها أن آتيها بك في الليلة القابلة ، فمضى ، ثم أصبحنا فتهيأنا ورحنا فاذا الجارية تنتظرنا ، فمضت أمامنا حتى دخلنا الدار ، فاذا برائحة الطيب ، وجاءت فجلست ملياً ثم أقبلت عليه فعاتبته طويلا ثم قالت :

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني وأشمت بي من كان فيك يلوم

وأبرزتني للنـاس ثم تركتني لهم غرضاً أرمى وأنت سليم

فلو أن قولا يكلم الجسم قد بدا بجسمي من قول الوشاة كلوم

ثم سكتت فسكت الفتى هنيهة ، ثم قال :

غدرتَ ولم أغدر وخنت ولم أخن وفي دون هذا للمحب عزاء

جزيتك ِضعف الود ، ثم صرمتني فحبك في قلبي اليـك إداء

فالتفتْ إليّ وقالت: ألا تسمع مايقول،قد أخبرتك،قال :فغمزته فكف ثم قالت:

تجاهلتَ وصلي ثم لجّتْ عمايتي   وهلاّ صرمت الحبل اذ أنا مبصر
ولي من قوى الحبلِ الذي قد قطعته   نصيب واذ رأيي جميع موفّر
ولكنما آذنت بالصرم بغتــــة   ولستُ على مثل الذي جئتَ أقدر

قال الفتى مجيباً لها :

لقد جعلتْ نفسي وأنت اجترمتِه   وكنت أحب الناس عنك تطيب

فبكت ثم قالت : أو قد طابت نفسك ، لا والله ، مافيك خير بعدها ، فعليك السلام ، ثم قامت والتفتتْ إلي وقالت : قد علمت أنك لاتفي بضمانك عنه وانصرفنا.

فاذا كانت المرأة تتمتع بحرية الاجتماع الى الرجال فان هذا المجلس الذي شهدناه يدلنا على طبيعة الأحاديث التي كان الرجال والنساء يتساقطونها بينهم ، وهي أحاديث أدبية ، تصور لنا ذوق المرأة في فهم الشعر ، وبراعتها في الاستشهاد به ، فكان النساء يحفظن الشعر ويتغنين به ، حدث الزبير بن بكار (١) قال : حدثتني ظبيـة مولاة فاطمة بنت عمر بن مصعب قالت : مررت بجدك عبدالله بن مصعب وانا داخلة منزله وهو بفنائه ومعي دفتر ، فقال : ماهذا معك ، ودعاني فجئته وقلت : شعر عمر ابن أبي ربيعة ، فقال : ويحك ! تدخلين على النساء بشعر عمر بن أبي ربيعة ، إن لشعره لموقعاً من القلوب ، ومدخلا لطيفاً ، لو كان شعر يسحر لكان هو فارجعي به ، قالت : فعلت .

* * *

فاذا كان النساء يحفظن شعر عمر بن أبي ربيعة ويكتبنه في الدفاتر ويحرصن عليه ، علمنا مبلغ أذواقهن في الشعر ، وفي خبر من أخبار عمر بن ربيعة ، يرجع إليه من أراد في مظنته (٢) نجد عمر يصف فاطمة بنت عبد الملك بن مروان فيقول فكلمت آدب الناس وأعلمهم بكل شيء !

هكذا كانت ثقافة بعض النساء في تلك العصور ، وقد وصف بعضهن بحضور الذهن وسرعة الجواب، قال رجل من بني أسد(٣).

---

(١) الجزء ١ الصفحة ٣٥.
(٢) الجزء ١ الصفحة ٧٥
(٣) الجزء ٢ الصفحة ١٥١

(جبري . ص ١٦١)
حفظ شعر ابن أبي ربيعة

خرج يزيد بن عمر بن هبيرة يسير بالكوفة ، فانتهى الى مسجد بين غاضرة ، وقد أقيمت الصلاة ، فنزل يصلي ، واجتمع الناس لمكانه في الطريق وأشرف النساء من السطوح ، فلما قضى صلاته قال : لمن هذا المسجد ، قالوا : لبني غاضرة ، فتمثل قول الشاعر :

ما إن تركن من الغواضر مُعْصراً   إلا قصمن بساقها خلخالا

فقالت له امرأة من المشرفات :

ولقد عطفن على فزازة عطفةً   كرّ المنيح وجلن ثم مجالا

فقال يزيد : من هذه ، فقالوا بنت الحكم بن عبدل ، فقال : هل تلد الحية الاّ الحية وقام خجلا .

واذا أردنا أن نعلم مقدار عمل الشعر في قلوب المرأة في تأريخنا البعيد فلنقرأ هذا الخبر(١) .

روى أبو الفرج أن تاجراً من أهل الكوفة قدم المدينة بخُمُرٍ فباعها كلها ، وبقيت السود منها فلم تُنفق ، وكان صديقاً للدارمي فشكا ذلك اليه ، وقد كان نسك وترك الغناء وقول الشعر فقال له : لاتهتم بذلك ، فاني سأنفقها لك حتى تبيعها أجمع ثم قال :

قل للمليحة في الخمار الأسود   ماذا صنعت براهب متعبد

قد كان شمّر للصلاة ثيابه   حتى وقفتِ له بباب المسجد

وغنّى فيه ، وغنّى فيه أيضاً سنان الكاتب ، وشاع في الناس وقالوا قد فتك الدارمي ورجع عن نسكه ، فلم تبق في المدينة ظريفة الا ابتاعت خماراً أسود حتى نفد ما كان مع العراقي منها فلما علم بذلك الدارمي رجع الى نسكه ولزم المسجد .

وقد استفاض مثل هذه الثقافة في القيان والمغنيات خاصة ، حتى قيل في عريب

---

(١) الجزء ٢ الصفحة ١٧٣

ما خلفت عريب امرأة مثلها في الغناء والرواية والصنعة(١) .

والشواهد على هذا النمط من الثقافة كثيرة في كتاب الأغاني ، ولا بأس بالاكثار منها لأن في ذلك توضيحاً لحالة المرأة في القديم ، ولمعرفة مقدار فصاحتها وأدبها .

أتى نصيب مكة(٢) فأتى المسجد الحرام ليلاً ، فبينما هو كذلك اذ طلع ثلاث نسوة فجلسن قريباً منه وجعلن يتحدثن ويتذاكرن الشعر والشعراء واذا هن من أفصح النساء وآدبهن فقالت إحداهن : قاتل الله جميلا حيث يقول :

وبين الصفا والمروتين ذكرتكم بمختلف ما بين ساع وموجف

وعند طوافي قد ذكرتك ذكرة هي الموت ، بل كادت عن الموت تضعف

فقالت الأخرى : بل قاتل الله كثيرعزة حيث يقول :

طلعن علينا بين مروة والصفا يمرْنَ على البطحاء مَورْ السحائب

فكدن لعمر الله يحدثن فتنة لمختشع من خشية الله تائب

فقالت الأخرى: قاتل الله ابن الزانية نصيبا حيث يقول :

ألام على ليلى ولو أستطيعها وحرمة مابين البنيَّة والستر

لملت على ليلى بنفسي ميلة ولو كانَ في يوم التحالق والنحب

فقام نصيب اليهن ، فسلّم عليهنّ فرددن عليه السلام فقال لهن : إني رأيتكن تحادثن شيئاً عندي منه علم ، فقلن : ومن أنت ، فقال : اسمعن أولا ، فقلن: هات، فأنشدهن قصيدته التي أولها :

ويوم ذي سلم شاقتك نائحة ورقاء في فنن والريح تضطرب

فقلن له : نسألك بالله وبحق هذه البنية من أنت ،فقال أنا ابن المظلومة المقذوفة بغير جرم ، نصيب ، فقمن اليه فسلمن عليه ورحّبن به ، واعتذرت اليه القائلة وقات

---

(١) الجزء ١٨ الصفحة ١٩٠

(٢) الجزء ١ الصفحة ١٤٥

والله ماأردت سوءاً وانما حملني الاستحسان لقولك على ماسمعت ، فضحك وجلس إليهن فحادثهن الى أن انصرف .

❀❀❀

وهكذا نجد أن المرأة كانت حكماً في كثير من أمور الأدب ، وكذلك كانت حكماً في أمور الغناء .

وفد ابن سريج والغريض وسعيد بن مِسْجَح ومسلم بن مُحرز المدينة لبعض من وفدوا عليه(١)، فأجمع رأيهم على النزول على جميلة ، مولاة بهْز ، فنزلوا عليها فخرجوا يوما الى العقيق متنزهين ، فوردوا على معبد وابن عائشة فجلسوا اليهما فتحدثوا ساعة ثم سأل معبد ابن سريج وأصحابه أن يعرضوا عليهم بعض مااتّفقوا فقال ابن عائشة : إن للقوم أعمالا كثيرة حسنة ولك أيضاً ياأبا عبّاد ، ولكن قد اجتمع علماء مكة وأنا وأنت من أهل المدينة فليعمل كل واحد منا صوتا ساعته ثم يغني به،قال معبد : يابن عائشة قد أعجبتك نفسك حتى بلغتك هذه المرتبة، قال ابن عائشة: أو غضبت ياأبا عبّاد : اني لم أقل هذا وأنا أريد أن أتنقّصك فانك لأنت المفاد منه ،قال معبد : أما إذ قد اختلفنا وأصحابنا المكيون سكوت فلنجعل بيننا حكما ،قال ابن عائشة : ان اصحابنا شركاء في الحكومة، قال ابن سريج : على شريطة قال : على أن يكون ماتغني به من الشعر ماحكيّمت فيه إمرأة، قال ابن عائشة ومعبد رضينا وهي أم جُنْدَب فأجمع رأيهم على الاجتماع في منزل جميلة من غد فلما حضروا قال ابن عائشة : ماترى ياأبا عبّاد ، قال: أرى أن يبتدئ أصحابنا أو أحدهم ، قال ابن سريج : بل أنتما أولى ، قالا: لم نكن لنفعل، فأقبل ابن سريج على سعيد بن مسجح فسأله أن يبتدئ فأبى فأجمع رأي المكيين على أن يبتدئ فغنّى ابن سريج ومعبد وابن مسجح وابن عائشة وابن محرز والغريض فقالت جميلة : كلكم محسن وكلكم

---

(١) الجزء ٧ الصفحة ١١٩

مجيد في معناه ومذهبه ، قال ابن عائشة : ليس هذا بمقنع دون التفضيل ، فقالت :
أما أنت ياأبا يحي فتضحك الثكلى بحسن صوتك ، ومشاكلته للنفوس ، وأما أنت
ياأبا عبّاد فنسيج وحده بجودة تأليفك وحسن نظمك مع عذوبة غنائك ، وأما
أنت ياأبا عثمان فلك أولية هذا الأمر وفضيلته وأما أنت ياأبا جعفر فمع الخلفاء تصلح
وأما أنت ياأبا الخطاب فلو قدمت أحداً على نفسي لقدمتك ، وأما أنت يامولى العبلات
لو ابتدأت لقدمتك عليهم ثم سألوها جميعاً أن تغنيهم لحناً كما غنوا فغنتهم بيتا لامرئ
القيس وأربعة أبيات لعلقمة فكلهم أقروا لها وفضّلوها فقالت لهم : ألا أحدثكم
بحديث يتم به حسن غنائكم وتمام اختياركم قالوا : بلى والله ، قال الغريض: قد والله
فهمته ياسيدتي، قالت: لعنك الله يامخنث! ماأجود فهمك وأحسن وجهك ومايلام فيك
أبو يحي إذ عرفته فهاته حدثنا قال : ياسيدتي وسيدة من حضر والله لانطقت بحرف
منه وأنت حاضرة ولك الفضل والعتبى، قالت: نازع امرؤ القيس علقمة بن عبدة
الفحل الشعر فقال له : قد حكمت بيني وبين امرأتك أم جُندَب قال : قد رضيت
فقالت لهما : قولا شعرا على روي واحد ، وقافية واحدة ، صفافيه الخيل، فقال
امرؤ القيس :

خليلي مرّا بي على أم جُندَب ⁂ أقضّ لبانات الفؤاد المعذب

وقال علقمة :

ذهبت من الهجران في غير مذهب ⁂ ولم يك حقاً كل هذا التجنب

وأنشداها، فغلّبت علقمة فقال لها زوجها : بأي شئ غلبته، قالت: لأنك قلت

فللسوط ألهوب وللساق درّة ⁂ وللزجر منه وقع أهوج مِنْعب

فجهدت فرسك بسوطك ومريته بساقك وزجرك وأتعبته بجهدك وقال علقمة:

فولىّ على آثارهن بحاصب ⁂ وغيبة شؤبوب من الشد مُلهب

فأدركهن ثانيا من عنانه ⁂ يمرّ كمرّ الرائح المتحلّب

فلم يضرب فرسه بسوط ولم يمره بساق ولم يتعبه بزجر فقال ابن عائشة :

جعلت فداك ، أتأذنين أن أحدث ، قالت : هيه ! قال : انما تزوج أم ُجندب حين هرب من المنذر بن ماء السماء فأتى جبلي طيء وكان ُمفركا فبينا هو معها ذات ليلة إذ قالت له : قم ياخير الفتيان فقد أصبحت ، فلم يقم ، فكرّرت عليه فقام فوجد الفجر لم يطلع فرجع فقال لها : ماحملك على ماصنعت ، فأمسكت وألح عليها فقالت حملني أنك ثقيل الصدر خفيف العجيزة سريع الاراقة بطيء الافاقة فعرف تصديق قولها وسكت فلما أصبح أتى علقمة وهو في خيمته وخلفه أم جندب فتذاكروا الشعر فقال امرؤ القيس : أنا أشعر منك وقال علقمة مثل ذلك فتحا كما إلى أم جندب ففضلت أم جندب علقمة على امرئ القيس فقال لها : بم فضلته علي قالت: فرَس عبدَةَ أجود من فرسك زجرت وضربت وحركت ساقيك وابن عبدَةَ جامد لا مقتدر، فغضب من قولها وطلقها وخلف عليها علقمة فقالت جميلة: ماأحسن مجلسنا لو دام اجتماعنا ثم دعتْ بالغداء فأتي بألوان الأطعمة وأنواع من الفاكهة ثم قالت:لولا شناعة مجلسنا لكان الشراب معداً ولكن الليل بيننا فلم يزالوا يومهم ذلك بأطيب مجلس وأحسن حديث فلما جنهم الليل دعت بالشراب ودعت لكل رجل بعود وأخذت هي عوداً فضربت ثم قالت اضربوا فضربوا عليها بضرب واحد وغنت بشعر امرئ القيس :

أأذكرت نفسك مالن يعودا	فهاج التذكر قلبا عميدا
تذكرت هندا وأترابها	وأيام كنت لهـــا مستقيدا
ويعجبك اللهو والمسمعات	فأصبحت أزمعت عنها صدودا
ونادمت قيصر في ملكه	فأوجهني وركبتُ البريدا

فما سمع السامعون بشيء أحسن من ذلك ثم قالت : تغنوا جميعاً بلحن واحد فغنوها هذا الشعر والصوت بعينه كما غنته وعلم القوم ماأرادت بهذا الشعر فقال ابن عائشة : جعلت فداك، نرجو أن يدوم مجلسنا ويؤثر أصحابنا المقام بالمدينة فنواسيهم من كل ماتملكه قال أبو عباد : وكيف بذاك فباتوا بأنعم ليلة وأحسنها.

فالمرأة ظفرت بنصيب وافر من الثقافة في الأدب والغناء حتى كانت حكماً في هذين الأمرين، تعقد لها المجالس ثم يحضر في هذه المجالس الغداء فيتغدى القوم بأنواع من الأطعمة الحارة والباردة ومن الفاكهة الرطبة واليابسة ثم يدعى بأنواع الأشربة وحسبنا أن نعرف طبقة الشعراء الذين كانوا يحضرون هذه المجالس أمثال ابن أبي عتيق وابن أبي ربيعة والأحوص وجرير والفرزدق وكثيّر وجميل ونصيب من الشعراء وأمثال ابن سريج ومعبد وابن مسجح وابن عائشة وابن محرز والغريض من المغنين.

وفي أخبار جميلة كثير من هذه المجالس، ولا غرابة في ذلك فقد كان معبد يقول(١): أصل الغناء جميلة وفرعه نحن، ولولا جميلة لم نكن نحن مغنين.

ولسنا نستطيع أن نتصور حرية المرأة في تلك العصور البعيدة الا اذا حضرنا مجلساً من تلك المجالس فرأينا كيف كانت دار جميلة تغصّ بالناس وكيف كانت الجواري يقمن على رؤسهم بالمناديل والمراوح الكبار بين كل عشرة نفر جارية تروّح وكيف كانت جميلة ترقص ويرقص معبد والغريض وابن عائشة ومالك وفي يد كل واحد منهم عود يضرب به على ضرب جميلة ورقصها وكيف كانت جميلة في بعض المجالس تجعل على رؤس جواريها شعوراً مسدلة كالعناقيد الى أعجازهن وتلبسهن الثياب المصبغة وتضع فوق الشعور التيجان وتزينهن بأنواع الحليّ.

لانستطيع أن نتصور هذه الحرية الا اذا رجع كل واحد منا الى هذه الأخبار فقرأها وتدبرها ثم استنبط منها ما شاء أن يستنبط فاذا فعل هذا قال في نفسه: أبلغت المرأة من الحرية في تلك العصور مبلغاً أقل من مبلغ المرأة في عصرنا هذا.

هذا يسير من الشواهد على اجتماع النساء الى الرجال في حالتي السفور والحجاب، وعلى ثقافتهن، واذا أحببت أن أصف تلك المجالس فاني ألجأ إلى ألفاظ استعملها

---

(١) الجزء ٧ الصفحة ١١٨

أبو الفرج في وصف شعر بن المعتز ، قال في خلال هذا الوصف[١]: ليس عليه أن يتشبه بفحول الجاهلية ، فليس يمكن واصفاً لصبوح في مجالس شكل ظريف ، بين ندامى وقيان ، وعلى ميادين من النور والبنفسج والنرجس ومنضود من أمثال ذلك الى غير ماذكرته من جنس المجالس وفاخر الفرش ومختار الآلات ورقة الخدم أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام السبط الرقيق الخ ...

فاذا أردنا أن نتصور مجالس الرجال والنساء في تلك العصور ، وخاصة في عصر بني العباس فهذه العبارة تصورها لنا واجتماع الندامى والقيان فيها اكبر دليل على حرية المرأة .

اذا رجعنا إلى أخبار الأغاني في هذا المعنى نجد في بعض المواطن هذا اللفظ : وكان مجلسا عاما ، فنستنبط من هذا أن المجلس العام يشبه مانسميه في عصرنا هذا : حفلة عامة ، مثل حفلة أم كلثوم أو غيرها . فلنشهد مجلساً من هذه المجالس العامة .

كان الأحوص[٢] معجباً بجميلة ، ولم يكن يكاد يفارق منزلها اذا جلست فصار اليها يوما بغلام جميل الوجه ، يفتن من رآه فشغل أهل المجلس ، وذهبت اللحون عن الجواري وخلطن في غنائهن ، فأشارت جميلة الى الأحوص أن أخرج الغلام ، فالخلل قد عمّ مجلسي وأفسد عليّ أمري ، فأبي الأحوص وتغافل ، وكان بالغلام معجبا ، فآثر لذته بالنظر الى الغلام مع السماع ، ونظر الغلام الى الوجوه الحسان من الجواري ونظرن اليه وكان مجلسا عاما ، فلما خافت عاقبة المجلس وظهور أمره أمرت بعض من حضر باخراج الغلام ، فأخرج وغضب الأحوص وخرج مع الغلام ولم يقل شيئا ، فحمد أهل المجلس ما كان من جميلة وقال لها بعضهم : هذا كان الظن بك ، أكرمك الله ، فقالت : انه والله ما استأذني في المجيء به ولا

---

(١) الجزء ٩ الصفحة ١٣٤

(٢) الجزء ٧ الصفحة ١٣٩

علمت به حتى رأيته في داري ولا رأيت له وجهاً قبل ذلك ، وانه ليعزّ علي غضب الأحوص ولكن الحق أولى ، وكان ينبغي له أن لايعرّض نفسه واياي لما نكره مثله ...

واذا أحببت أن أفتش عن نموذج من امرأة تلك الأحقاب ، اذا أحببت أن أفتش عن نموذج من امرأة تلك العصور التي كانت تتمتع بحريتها أوفر تمتع واكمله فلا أجد هذا النموذج إلا في سكينة بنت الحسين ، فقد كانت عفيفة سلمة ، برزة من النساء ، تجالس الأجلة من قريش وتجتمع اليها الشعراء وكانت ظريفة مزّاحة(١) .

وبلغ من تأثيرها في عصرها أنها كانت أحسن الناس شعراً وكانت تصفّف جمتها تصفيفا لم ير أحسن منه حتى عرف ذلك وكانت تلك الجمة تسمى السكينية وكان عمر بن عبد العزيز اذا وجد رجلاً يصفف جمته السكينية جلده وحلقه .

ومن مجالسها العامة ما رواه أبو الفرج(٢) فقد اجتمع ابن سريج والغريض ومعبد وتذاكروا أمر حنين الحيري وقالوا: مافي الدنيا أهل صناعة شرّ منا ، لنا أخ بالعراق ونحن بالحجاز لانزوره ولا نستزيره فكتبوا اليه ووجهوا له نفقة وكتبوا يقولون : نحن ثلاثة وأنت وحدك ، فأنت أولى بزيارتنا فشخص اليهم فلما كان على مرحلة من المدينة بلغهم خبره فخرجوا يتلقونه ، فلم ير يوم كان أكثر حشراً ولا جمعاً من يومئذ ، ودخلوا فلما صاروا في بعض الطريق قال لهم معبد: صيروا إلي ، فقال له ابن سريج : إن كان لك من الشرف والمروءة مثل ما لمولاتي سكينة بنت الحسين عطفنا اليك ، فقال : مالي من ذلك شيء ، وعدلوا إلى منزل سكينة فلما دخلوا اليها أذنت للناس أذناً عاماً فغصّت الدار بهم وصعدوا فوق السطح وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا منها ثم انهم سألوا حنينا أن يغنيهم صوته الذي أوله :

---

(١) الجزء ١٤ الصفحة ١٥٩ .

(٢) الجزء ٢ الصفحة ١٢٢

هلاّ بكيت على الشباب الذاهب .

فغناهم إياه بعد أن قال لهم : ابدءوا أنتم ، فقالوا : ما كنا لنتقدمك ولا يغنّى قبلك حتى نسمع هذا الصوت ، فغناهم إياه وكان من أحسن الناس صوتاً فازدحم الناس على السطح وكثروا ليسمعوه فسقط الرواق على من تحته فسلموا جميعاً وأخرجوا أصحاء ومات حنين تحت الهدم فقالت سكينة عليها السلام : لقد كدّر علينا حنين سرورنا ، انتظرناه مدة طويلة ، كأنا والله كنا نسوقه إلى منيته .

❀❀❀

ومن مزح سكينة(١) أن سليمان بن عبد الملك حج وهو خليفة فاستأذن زيد ابن عمرو بن عثمان بن عفان زوجه سكينة وأعلمها أنها أول سنة حج فيها الخليفة وانه لا يمكنه التخلف عن الحج معه وكانت لزيد ضيعة يقال لها العرْج وكان له فيها جوار فأعلمته أنها لا تأذن له إلا أن يخرج أشعب معه فيكون عيناً لها عليه ، ومانعا له من العدول إلى العرج ومن اتخاذ جارية لنفسه ، فقنع بذلك وأخرج أشعب معه ولما انصرف سليمان من حجه انصرف زوج سكينة يريد المدينة ، ودعا أشعب في الطريق فأحضره وصرصرةً فيها أربعمائة دينار أوهبها له حتى يأذن له في المسير إلى ضيعته فأخذها أشعب وأذن له في السير إلى حيث أحب وحلف له أنه سيحلف لسكينة بالأيمان المحرجة أنه ما صار إلى ضيعته ولا اتخذ جارية منذ فارق سكينة إلى أن رجع اليها .

هذا بدء الخبر وقد تصرفت فيه بعض التصرف ، فلما رجع زيد إلى المدينة سألت سكينة أشعب عن خبره ، قال أشعب لابنه :

فأخبرتها أني لم أنكر عليه شيئاً ولم أمكنه من ابتياع جارية ولم أطلق له الاجتياز بالعرج ، فاستحلفتني على ذلك ، فلما حلفت لها بالأيمان المحرجة ، فيها

(١) الجزء ٢ ٤ الصفحة ١٦٠

طلاق أمك ، وثب (يعني زيداً) فوقف بين يديها وقال : والله يابنت رسول الله ، لقد كذبك العلج ، أقمت بها يوما وليلة وغسلت بها من عدة جواري وها أنا تائب إلى الله مما كان مني وقد جعلت توبتي منهن ، وتقدمت في حملهن اليك وهن موافيات المدينة في عشية هذا اليوم ، فبيعهن وعتقهن اليك ، وأنت أعلم بما ترين في العبد السوء ، فأمرتني باحضار الأربعمائة دينار فلما أحضرتها أمرت بابتياع خشب بثلثمائة دينار وليس عندي ولا عند أحد من أهل المدينة علم بما تأمر به ثم أمرت بأن تخذ بيت من عود وجعلت النفقة عليه من أجر النجارين من المائة الباقية ، ثم أمرت بابتياع بيض وتبن وسرجين بما بقي من المائة الدينار بعد أجرة النجارين ثم أدخلتني والبيض والتبن والسرجين في البيت وحلفت بحق جدها لاأخرج من ذلك البيت حتى أحضن ذلك البيض كله إلى أن يفقس ففعلت ذلك ولم أزل أحضنه حتى فقس كله ، فخرج الفراريج وربيت في دار سكينة وكانت تنسبهن وتقول : بنات أشعب .—

❀❀❀

وبلغ من حرية المرأة في بعض الأحيان أنها كانت تشرب ولا حرج عليها حتى في عصر بني أمية ، فقد كانت أم حكيم[1] زوج هشام بن عبد الملك منهومة بالشراب ، مدمنة عليه ، لاتكاد تفارقه ، وكأسها الذي كانت تشرب فيه مشهور عند الناس في زمن بني العباس وهو في خزائن الخلفاء منهم وفيه يقول الوليد بن يزيد :

علّلاني بعاتقات الكروم	واسقياني بكأس أم حكيم
انهـــا تشرب المدامة صرفاً	في اناء من الزجاج عظيم
جنبوني أذاة كل اثيم	انه ماعلمت شر نديم
ثم ان كان في الندامى كريم	فأذيقوه بعض مس النعيم

---

(١) الجزء ١٥ الصفحة ٤٨

ليت حظي من النساء سليمى إنّ سلمى ُجنينْتي ونعيمي
فدعوني من الملـــلامة فيها إنّ من لامني لغير رحيم

فيقال ان الشعر بلغ هشاماً فقال لأم حكيم : أو تفعلين ماذكره الوليد ، فقالت: أو تصدق الفاسق في شيء فتصدقه في هذا، قال :لا ، قالت :فهو كبعض كذبه.

وهذا وصف كأس أم حكيم(٢)

قال إسماعيل بن مجمع : كنا نخرج مافي خزائن المـأمون من الذهب والفضة ونزكي عنه ، فكان فيما يزكّى عنه قائم كأس أم حكيم ، وكان فيه من الذهب ثمانون مثقالا ، قال محمد بن موسى : سألت إسماعيل بن مجمع عن صفته ، فقـال : كأس كبير من زجاج أخضر ، مقبضه من ذهب هكذا ذكر إسماعيل ، ووصفه آخر فقال : لما أخرج المعتمد مافي الخزائن ليباع في أيام ظهور النـاجم بالبصرة أخرج إلينا كأس مدوّر على هيئة القحف يسع ثلاثة أرطال ، يقوّم أربعة فعجبنا من حصول مثله في الخزانة مع خساسته ، فسألنـا الخازن عنه فقال : هذا كأس أم حكيم فرددناه إلى الخزانة ولعل الذهب الذي كان عليه أخذ منه حينئذ ثم أخرج ليباع ، قال محمد بن موسى : وذكر لي عبيد الله بن محمد عن ابن الأغر قال : كنا مع محمد بن الجنيد الختلي أيام الرشيد فشرب ذات ليلة فكان صوته :

علّلاني بعاتقات الكروم واسقياني بكأس أم حكيم

فلم يزل يقترحه ويشرب عليه حتى السحر، فوافاه كتاب خليفته في دار الرشيد ان الخليفة على الركوب ، وكان محمد أحد أصحاب الرشيد ومن يقدم دابّته ، فقال ويحكم كيف أعمل والرشيد لايقبل لي عذراً وأنا سكران ، فقالوا : لابد من الركوب ، فركب على تلك الحال ، فلما قدّم إلى الرشيد دابته قال له : يامحمـد : ماهذه الحال التي أراك عليها ، قال: لم أعلم برأي أمير المؤمنين في الركوب ، فشربت

---

(١) الجزء ١٥ الصفحة ٤٩

ليلي أجمع ، قال : فما كان صوتك ، فأخبره ، فقال له : عد إلى منزلك ، فلا فضل فيك ، فرجع إلينا وخبرنا بما جرى ، وقال : خذوا بنا في شأننا ، فجلسنا على سطح فلما متع النهار إذا خادم من خدم أمير المؤمنين قد أقبل الينا على برذون في يده شيء مغطى بمنديل ، قد كاد ينال الأرض ، فصعد الينا وقال : يامحمد : أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول لك : قد بعثنا اليك بكأس أم حكيم لتشرب فيه وبألف دينار تنفقها في صبوحك ، فقام محمد ، فأخذ الكأس من الخادم وقبّلها وصبّ فيها ثلاثة أرطال وشربها قائماً وسقانا مثل ذلك ووهب للخادم مائتي دينار وغسل الكأس وردها إلى موضعها وجعل يفرق علينا تلك الدنانير حتى بقي معه أقلها .

لقد شغل كأس أم حكيم أدبنا وتأريخنا بعض الشيء ، ولكننا لم نهتم به إلا بقدر مافيه إشارة إلى حرية المرأة في الشراب .

❀❀❀

الحرّيات

لم يتعقب أبو الفرج في كتاب الأغاني حرية المرأة وحدها ، وانما تتبع أخبار الحريات كلها ، فقد تتبع أخبار حرية الكلام في مقامات الخلفاء وحرية الرأي وحرية المعتقد وحرية القضاء وحرية التربية ، وإذا وازنا بين تلك الأنواع من الحرية وبين الأنواع التي نراها في عصرنا هذا وجدنا أن عصورنا الفائتة قد وصلت في كثير من الأحيان الى حرية لاتقل عن حرية أعرق الأمم فيها ، وما كنا لنعرف هـذا كله لولا الأخبار التي رواها أبو الفرج في هذا المعنى ، وأظن أن ضرب الأمثال لذلك أنطق دليل على ما أقول .

فلندخل قصور الخلفاء ، ولنشهد مقامات الأمراء والعمال حتى نرى أثار هذه الحرية التي نعم الناس بها في ظلالهم .

قال أبو الفرج[1] :

أخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهري قال : حدثنا عمر بن شبة قال : حدثني أحمد بن معاوية عن الهيثم بن عدي قال : حجّ معاوية حجتين في خلافته ، وكانت له ثلاثون بغلة يحج عليها نساؤه وجواريه ، قال : فحج في أحداها فرأى شخصاً يصلي في المسجد الحرام عليه ثوبان أبيضان ، فقال : من هذا ، قالوا : شعبة بن غريض وكان من اليهود ، فأرسل اليه يدعوه ، فأتاه رسوله فقال : أجب أمير المؤمنين قال : أو ليس قد مات أمير المؤمنين ، قيل : فأجب معاوية ، فأتاه : فلم يسلم عليه بالخلافة ، فقال له معاوية : مافعلت أرضك التي بتيماء ، قال : يكسى فيها العاري ويرد فضلها على الجار ، قال : أفتبيعها ، قال : نعم ، قال : بكم ، قال : بستين ألف دينار

---

(١) الجزء ٣ الصفحة ١٨

ولولا خلة أصابت الحي لم أبعها ، قال:لقد أغليت ، قال : أما لو كانت لبعض أصحابك لأخذتها بستمائة ألف دينار ثم لم تبال ، قال: أجل ، واذ بخلت بأرضك فأنشدني شعر أبيك يرثي نفسه ، فقال : قال أبي :

يا ليت شعري حين أندب هالكاً ماذا تؤبنني به أنواحي

أيقلن : لا تبعد فرب كريهة فرجتها ببشارة وسماح

ولقد ضربت بفضل مالي حقه عند الشتاء وهبة الأرواح

ولقد أخذت الحق غير مخاصم ولقد رددت الحق غير ملاح

واذا دعيت لصعبة سهلتها أدعى بأفلح مرة ونجاح

فقال : أنا كنت بهذا الشعر أولى من أبيك ، قال : كذبت ، ولوءمت ، قال : أما كذبت فنعم ، وأما لؤمت ، فلم ، قال:لأنك كنت ميت الحق في الجاهلية وميته في الأسلام ، أما في الجاهلية فقاتلت النبي صلى الله عليه وسلم والوحي حتى جعل الله كيدك المردود ، وأما في الاسلام فمنعت ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلافة وما أنت وهي ، وأنت طيلق ابن طليق ، فقال معاوية : قد خرف الشيخ ، فأقيموه ، فأخذ بيده فأقيم .

❀❀❀

لست أعرف حرية في مقام الخلفاء مثل هذه الحرية ، لقد عرّض صاحبها بهوى معاوية في أصحابه فكأنه طعن على نزاهة مذهبه ، ثم عرّض بانحرافه عن الحق في سياسته فلم يبال معاوية بكل ذلك ، وإنما اكتفى بتهمة الشيخ بالخرف ، وما أظن أن أحداً يستطيع أن يجابه الرؤساء في يومنا هذا بما جابهوا به معاوية وهو أمير المؤمنين .

ولقد جاوزوا في مقام معاوية الحد في هذه الحرية فخرجوا عن التعريض به الى التشبيب بابنته ، قال أبو الفرج[1]:

---

(١) الجزء ١٤ الصفحة ١١٧

أخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهري وحبيب بن نصر المهلبي قالا : حدثنا عمر بن شبة قال : حدثنا يحي الزبيري قال : حدثني ابن أبي زريق قال : تشبب عبد الرحمن بن حسّان برملة بنت معاوية فبلغ ذلك يزيد بن معاوية فغضب ودخل على معاوية فقال : ياأمير المؤمنين ! ألا ترى إلى هذا العلج من أهل يثرب يتهكم بأعراضنا ويشبب بنسائنا فقال : من هو ، قال : عبد الرحمن بن حسان ، فأنشده ماقال ، فقال : يايزيد ! ليس العقوبة من أحد أقبح منها بذوي المقدرة ، ولكن أمهِلْ حتى يقدم وفد الأنصار ، ثم ذكرني به ، فلما قدِموا ذكره به ، فلما دخلوا قال : ياعبد الرحمن ! ألم يبلغني أنك تشبب برملة بنت أمير المؤمنين قال: بلى، ولو علمتُ أن أحداً أشرفُ لشعري منها لذكرته قال : فأين أنت عن أختها هند ، قال : وان لها لأختاً يقال لها هند ، قال نعم. وإنما أراد معاوية أن يشبب بهما جميعاً فيكذب نفسه ، وللخبر تتمة .

وقد تطاول أمر هذه الحرية من بعد معاوية فاستمرت في خلافة بني أمية وبني العباس زمناً طويلا . وأنا ذاكرٌ منها أنماطاً مختلفة .

قال ابو الفرج(٢):

أخبرني الأخفش عن محمد بن الحسن بن حرون قال : حدثنا السكري عن الأصمعي قال : قال عبد الملك للأقيشر : أنشدني أبياتك في الخمر فأنشده :

تريك القذى من دونها وهي دونه لوجه أخيها في الاداء قطوب
كميت اذ أُفضت وفي الكأس وردة لها في عظام الشاربين دبيب

فقال له : أحسنت يا أبا معرض ! ولقد أجدت وصفها واظنك قد شربتها ، فقال والله يا أمير المؤمنين انه ليريبني منك معرفتك بهذا ،

ومنها قال أبو الفرج(٢)

---

(١) الجزء ١٠ الصفحة ٨٨

(٢) الجزء ٦ الصفحة ١٢٦

أخبرني عمي عن الكراني عن دماذ عن أبي عبيدة قال ، قال رجل لأبي عمرو : ياعجباً للأخطل ، نصراني كافر يهجو المسلمين ، فقال أبو عمرو ، ياالكع ، لقد كان الأخطل يجيء وعليه جبة خز وحرز خز ، في عنقه سلسلة ذهب ، فيها صليب ذهب ، تنفض لحيته خمراً حتى يدخل على عبد الملك بن مران بغير إذن !

ففي هذا الخبر مايدل على مسامحة الخلفاء في استقبال أهل الذمة في قصورهم وهم على الحال التي سمعنا وصفها .

وقد كان للأخطل خاصة دالة على خلفاء بني أمية وأمرائهم لانراها لغيره فقد دخل على عبد الملك ابن مران(١) ، فاستنشده فقال : قد يبس حلقي ، فمر من يسقيني ! فقال : اسقوه ماء ، فقال : شراب الحمار وهو عندنا كثير ، قال : فاسقوه لبناً ، قال : عن اللبن فطمت ، قال : فاسقوه عسلاً ، قال : شراب المريض ، قال : فتريد ماذا ، قال : خمراً ياأمير المؤمنين ! قال : أو عهدتني أسقي الخمر ، لا أم لك لولا حرمتك بنا لفعلت بك وفعلت ، فخرج فلقي فراشاً لعبدالملك فقال : ويلك ، ان أمير المؤمنين استنشدني ، وقد صحل صوتي فاسقني شربة خمر فسقاه ، فقال : اعدله بآخر ، فسقاه آخر ، فقال : تركتهما يعتركان في بطني ، اسقني ثالثاً فسقاه ثالثاً ، فقال : تركتني أمشي على واحدة ، اعدل ميلي برابع ، فسقاه رابعاً ، فدخل على عبد الملك فأنشده :

خف القطين فراحوا منك وابتكروا وأزعجتهم نوى في صرفها غير

فقال عبد الملك : خذ بيده ياغلام فأخرجه ، ثم ألقى عليه من الخلع مايغمره وأحسن جائزته وقال : ان لكل قوم شاعراً وإن شاعر بني أمية الأخطل .

واذا نعم الأخطل بهذه الدالة وهو في حضرة أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فأخلق به أن ينعم بها وهو في حضرة أخيه بشر بن مروان(٢) فقد دخل على بشر بن مروان وعنده الراعي فقال له بشر : أنت أشعر أم هذا ، قال : أنا أشعر منه

(١) الجزء ٧ الصفحة ١٦٧

(٢) الجزء ٧ الصفحة ١٦٧

وأكرم ، فقال للراعي ما تقول ، قال : أما أشعر مني فعسى ، وأمّا أكرم ، فأن كان في أمهاته من ولدت مثل الأمير فنعم ، فلما خرج الأخطل قال له رجل : أتقول لخال الأمير أنا أكرم منك ، قال : ويلك ! ان أبا نسطوس وضع في رأسي أكؤساً ثلاثاً ، فوالله ما أعقل معها .

أفرأينا كيف كان الأخطل يدخل على الخلفاء والأمراء وهو سكران ، ثم يفاخرهم فلا يجدون بأساً بذلك وهذا على ما أعتقد منتهى الحرية .

والظاهر أن أبناء مروان من الخلفاء والأمراء كانو يذوقون الحرية ويقدرونها حق قدرها فلهذا كانوا يحتملون مظاهرها ويصبرون على مرارتها فانا نجد في أخبار نصيب[1] في قدومه مصر وبها عبد العزيز بن مروان خبراً يقول في أضعافه نصيب مابلي : فدخلت على عبد العزيز فسلمت ، فصعّد فيّ بصره وصوّب ، ثم قال : أنت شاعر ويلك ، قلت: نعم ، أيها الأمير، قال : فأنشدني ، فأنشدته ، فأعجبه شعري وجاء الحاجب فقال : أيها الأمير! هذا أيمن بن خريم الأسدي بالباب ، قال : ائذن له ، فدخل ، فاطمأن ، فقال له الأمير : يا أيمن بن خريم كم ترى ثمن هذا العبد ، فنظر اليّ فقال : والله لنعم الغادي في أثر المخاض هذا ، أيها الأمير ، أرى ثمنه مائة دينار ، قال : فان له شعراً وفصاحة ، فقال لي أيمن : أتقول الشعر قلت : نعم قال : قيمته ثلاثون ديناراً ، قال: يا أيمن أرفعه وتخفضه أنت ، قال لكونه أحمق أيها الأمير ، ما لهذا وللشعر ، أمثل هذا يقول الشعر ، أو يحسن شعراً ، فقال : أنشده يانصيب فأنشدته ، فقال له عبد العزيز : كيف تسمع يا أيمن ، قال: شعر أسود ، هو أشعر أهل جلدته قال : هو والله أشعر منك ، قال أمني أيها الأمير ، قال أي والله ، منك قال : والله أيها الأمير إنك لملول ، طرف ، قال: كذبت والله ، ما انا كذلك ولو كنت كذلك ماصبرت عليك تنازعني التحية وتوآكلني الطعام وتتكئ على وسائدي وفرشي وبك مابك ، يعني وضحاً كان بأيمن ، قال ائذن لي ، أخرج الى بشر بالعراق واحملني

---

(١) الجزء ١ الصفحة ١٢٧

على البريد ، قال : قد أذنت لك وأمر به فحمل على البريد الى بشر .

لاشك في أن مكاشفة الأمراء بعيوبهم وطبائعهم وأمزجتهم تدل على كثير من الحرية وكذلك وعظهم حتى يؤدي هذا الوعظ الى بكائهم وإفساد لذتهم .

من ذلك ما رواه أبو الفرج بعد الأسانيد عن لسان خالد بن صفوان بن الأهتم (١)

والخبر طويل ، من شاء فليرجع اليه ، وانما الذي يهمنا منه آخره ، فان هشاماً لما سمع الوعظ بكى حتى أخضل لحيته وبلّ عمامته وأمر بنزع أبنيته وبنقلان قرابته وأهله وحشمه وغاشيته من جلسائه ولزم قصره فأقبلت الموالي والحشم على خالد بن صفوان فقالوا : ماأردت إلى أمير المؤمنين ، أفسدت عليه لذته ونغّصت عليه مأدبته فقال : اليكم عني ! فاني عاهدت الله عزّ وجلّ ألا أخلو بملك الا ذكرته الله عزّ وجلّ .

فاذا دققنا في بواطن هذا الخبر وجدنا ان الحرية كان لها مقام خاص في نفوس الخلفاء فقد كانوا يذوقونها ويشعرون بها ويفسحون للناس في مجالسها كانوا يتذممون من قوارصها .

وقد كثرت الشواهد على اتساع صدر هشام بن عبد الملك للحرية ، من ذلك الخبر الآتي : قال أبو الفرج في خبر خالد بن عبد الله نقلا عن المدائني :(٢)

كان خالد بن عبد الله قريباً من هشام بن عبد الملك مكينا عنده ، فأدل وتمرّغ عليه حتى انه التفت يوماً الى ابنه يزيد بن خالد فقال له : كيف بك يابني اذا احتاج إليك أمير المؤمنين ، قال : اواسيهم ولو في قميصي ، فتبين الغضب في وجه هشام واحتملها قال المدائني : حدثني بذلك عبد الكريم مولى هشام ، انه كان واقفاً على رأس هشام فسمع هذا من خالد قال : وكان إذا ذكر هشام قال له : ابن الحمقاء ، فسمعها رجل

---

(١) الجزء ٢ الصفحة ٣٣

(١) الجزء ١٩ الصفحة ٦٢

من أهل الشام ، فقال لهشام : ان هذا الأشر البطر الكافر لنعمتك ونعمة أبيك واخوتك يذكرك بأسوأ حال ، فقال : ماذا يقول الأحول ، قال : لا والله، ولكن ما تنشق به الشفتان قال ، فلعله قال : ابن الحمقاء ، فأمسك الشامي ، فقال: قد بلغني كل ذلك عنه .

وبلغ من أمر الحرية في زمن هشام بن عبد الملك أن صعد خالد القسري عامله على العراق المنبر[١] فقال : الى كم يغلب باطلنا حقكم ، أما آن لربكم أن يغضب لكم وكان زنديقاً ، أمه نصرانية ، فكان يولّي النصارى والمجوس على المسلمين ويأمرهم بامتهانهم وضربهم وكان أهل الذمة يشترون الجواري المسلمات ويطؤنهن ، فيطلق لهم ذلك ولا يغيّر عليهم .

والظاهر ان هشاما صبر على هذا كله ولم يعزله عن العراق الا بعد أن بلغه أنه قال : ما ابني يزيد بن خالد بدون مسلمة بن هشام[٢] .

وقد كان يحتمل الحرية حتى الجبابرة من الأمراء مثل إبراهيم بن هشام وهو خال هشام بن عبد الملك فقد قال أبو الفرج بعد الأسانيد[٣]:

كان إبراهيم بن هشام جباراً وكان يقيم بلا اذن اذا كان على المدينة الأشهر فاذا أذن للناس أذن معهم لشاعر فينشد قصيدة مديح لهشام بن عبد الملك وقصيدة مديح لابراهيم بن هشام فأذن لهم يوما وكان الشاعر الذي أذن له معهم نصيب وعليه جبة وشي فاستأذنه في الانشاد فأذن له فأنشده قصيدة لهشام بن عبد الملك ثم قطعها وأنشد قصيدة مديح لابراهيم بن هشام وقصيدة هشام أشعر فأراد الناس ممالحة نصيب فقالوا: ما أحسن هذا يا أبا محجن ! أعد هذا البيت ، فقال إبراهيم : أكثرتم

---

(١) الجزء ١٩ الصفحة ٥٩

(٢) الجزء ١٩ الصفحة ٦٠

(٣) الجزء ٦ الصفحة ١٥٨

انه لشاعر وأشعر منه الذي يقول في ابن الأزرق :

ان تُمْسِ من مَنْقَلِي نجران مرتحلا يَبِن من اليمن المعروف والجود
مازلت في دفعات الخير تفعلها لما اعترى الناس لأواء ومجهود

وحمي نصيب ، فقال: انا والله مانصنع المديح الا على قدر الرجال ، كما يكون الرجل يمدح ، فعم الناس الضحك وحلم عنه ، وقال الحاجب : ارتفعوا ، فلما صاروا في السقيفة ضحكوا وقالوا : أرأيتم مثل شجاعة هذا الأسود على هذا الجبّار ، وحلم من غير حلم .

وقد استمر الناس في استعمال الحرية في مقام الخلفاء على زمن بني أمية قال أبو الفرج(١) أخبرني الحسن بن علي قال : حدثنا ابن مهرويه قال : حدثنا عبدالله ابن عمرو قال : قال الهيثم ، حدثني ابن عياش قال : دخل ابن الأقرع على الوليد ابن يزيد فقال له : أنشدني قولك في الخمر ، فأنشده قوله :

كميت اذا شُجت وفي الكأس وردة لها في عظام الشاربين دبيب
تريك القذى من دونها وهي دونه لوجه أخيها في الاناء قطوب

فقال الوليد : شربتها يا ابن الأقرع ، ورب الكعبة ، فقال: يأمير المؤمنين ائن كان نعتي لها رابك لقد رابني معرفتك بها .

فالشاعر يضع نفسه في هـــذا المقام موضع الخليفة نفسه ، فيخاطبه كما يخاطب النظراء .

وبلغ من الحرية في بعض العصور أن الأمراء كانوا يحرصون على إضحاك الناس ، وهذا أقوى دليل على الصلة الوثيقة بين الوالي وبين الرعية في تلك الأيام من ذلك مارواه أبو الفرج(٢) قال :

حدثنا محمد بن العباس اليزيدي قال : حدثنا الخليل بن أسعد قال : حدثنا ابن

---

(١) الجزء ٦ الصفحة ١٢٣
(٢) الجزء ١ الصفحة ١٢٩

أسد قال : حدثنا عبد الله بن صالح بن مسلم قال : حدثنا كليب بن إسماعيل ، مولى بني أمّية وكان حدثاً ، أي حسن الحديث قال :

بلغني أن نصيباً كان حبشياً يرعى إبلا لمواليه فأضلّ منها بعيراً فخرج في طلبه حتى أتى الفسطاط وبه إذ ذاك عبد العزيز بن مروان ، وهو ولي عهد عبد الملك بن مروان فقال نصيب : مابعد عبد العزيز واحد اعتمده لحاجتي ، فأتى الحاجب فقال : استأذن لي على الأمير فاني قد هيأت له مديحاً،فدخل الحاجب فقال : أصلح الله الأمير ، بالباب رجل أسود يستأذن عليك بمديح قدهيأه لك ، فظن عبدالعزيز أنه ممن يُهزأ به ويضحكهم فقال : مرْه بالحضور ليوم حاجتنا اليه ، فغدا نصيب وراح إلى باب عبد العزيز أربعة أشهر وأتاه آت من عبد الملك فسرّه فأمر بالسرير فأبرز للناس ، وقال : عليّ بالأسود وهو يريد أن يضحك منه الناس إلى آخر الخبر

هذا شئ من الحرية في أيام بني أمية ، لقد تجلّت هذه الحرية في الاستطالة على الخلفاء والطعن على نزاهتهم والحط من مقادير سياستهم والتشبيب ببناتهم كما تجلّت في سعة صدورهم وسماع مايكرههم ويغضبهم ويبكيهم .

وإذا انحدرنا من عصر بني أمية إلى عصر بني العباس وجدنا آثاراً كثيرة من الحرية حتى في المعتقدات والاستخفاف بالمقدّسات .

انّا نعرف ماوصلت إليه عداوة بني أمية وبني العباس وعلى الرغم من شدةهذه العداوة لم يسمح خليفة مثل أبي العباس السفاح بالاشتطاطفي سب بني أمية في مجاسه فـأصغى الى كلام مواليهم الذين استعملوا من الحرية في الدفاع عنهم مالا يُنتظر احتمال مثله من قبل السفاح، قال أبو الفرج(١):

وقال أبو عبيدة : ذكر إسماعيل بن عبد الله القسْري بني أمية عندأبي العباس السفاح في دوله بني هاشم فذمهم وسبّهم وقال له حماس الشاعر مولى عثمان بن عفان ياأمير المؤمنين ، أيسب بني عمك وعمّالهم رجل إجتمع هو والخرّيت في نسب ، إن

(١) الجزء١٩ الصفحة ٦٠

بني أمية لحمك ودمك فكلهم ولا تؤكلم ،فقال له : صدقت ، وأمسك إسماعيل فلم يحر جواباً .

وقد بلغ من حرية الناس في مقام الخلفاء في بعض الأحيان أنهم كانوا يستخفون بالمقدسات . قال أبو الفرج(١) :

أخبرني الحرمي بن أبي العلاء قال : حدثنا الزبير بن بكار قال : حدثني جعفر ابن الحسين المهلبي قال: كان أبو جعفر المنصور قد أمر أصحابه بلبس السواد وقلانس طوال تدعم بعيدان من داخلها وأن يعلقوا السيوف في المناطق ويكتبوا على ظهورهم فسيكفيهم الله وهو السميع العليم ، فدخل عليه أبو دلامة في هذا الزي ، فقال له أبو جعفر : ماحالك قال : شر حال ، وجهي في نصفي ، وسيفي في استي ، و كتاب الله وراء ظهري ، وقد صبغت بالسواد ثيابي ، فضحك منه وأعفاه وحده من ذلك وقال له : إياك أن يسمع هذا منك أحد .

وقد تراخى شبه هذه الحرية في خلفاء بني العباس تجري في مقامهم مثل ما كان يجري في مقام الخلفاء من بني أمية،قال أبو الفرج بعد الأسانيد(٢):

أنشد عكاشة بن عبد الصمد المهدي قوله في الخمر :

حمراء مثل دم الغزال وتارة   عند المزاج تخالها زرْيابا

فقال له المهدي : لقد أحسنت في وصفها إحسان من قدشربها ، ولقداستحققت بذلك الحدّ فقال : أيؤمنُنّي أمير المؤمنين حتى أتكلم بحجتي ، قال : قد أمنتك ، قال:وما يدريك ياأمير المؤمنين أني أحسنت وأجدتُ صفتها إن كنت لاتعرفها ،فقال له المهدي:اعزُبْ قبحك الله.

وأفضى الأمر بالشعراء إلى هجاء الخلفاء وسكوت الخلفاء عنهم ، من ذلك

---

(١) الجزء ٩ الصفحة ١١٥

(٢) الجزء ٣ الصفحة ٧٧

مارواه أبو الفرج في أغانيه(١) قال : أخبرني الصولي قال : حدثني عبد الله بن محمد الفارسي عن ثمامة بن أشرس، قال الصولي : وحدّثنيه عون بن محمد عن عبدالله بن العباس بن الفضل بن الربيع ، قال : لما قدم المأمون من خراسان وصار إلى بغداد أمر بأن يسمى له قوم من أهل الأدب ليجالسوه ويسامروه فذُكر له جماعة فيهم الحسين بن الضحّاك وكان من جلساء محمد الخلوع ، فقرأ أسماءهم حتى بلغ إلى إسم الحسين فقال: أليس هو الذي يقول في محمد:

هلا بقيتَ لسدّ فاقتنا ... أبداً وكان لغيرك التلف

فلقد خلفت خلائفاً سلفوا ... ولسوف يعوز بعدك الخلف

لاحاجة لي فيه والله لايراني أبداً إلا في الطريق ، ولم يعاقب الحسين على ما كان من هجائه له وتعريضه به وقال : وانحدر الحسين إلى البصرة فأقام بها طول أيام المأمون .

وكما سكت المأمون عن الحسين بن الضحاك فقد سكت عن دعبل قال أبو الفرج(٢):

أخبرني علي بن سليمان الأخفش قال : حدّثني محمد بن يزيد قال كان أبو سعد المخزومي قد كان يستعلي على دعبل في أول أمره وكان يدخل إلى المأمون ، فينشده هجاء دعبل له وللخلفاء ويحرضه عليه ، فلم يجد عند المأمون ماأراده فيه ، وكان يقول : الحق في يدك والباطل في يد غيرك ، والقول لك ممكن فقل مايكذّبه فاما القتل فاني لست أستعمله الاّ فيمن عظم ذنبه .

ومثل هذا مارواه أبو الفرج(٣) عن لسان أبي سعد المخزومي الذي قال :

أنشدت المأمون قصيدتي الدالية التي رددت فيها على دعبل قوله :

---

(١) الجزء ٦ الحفحة ١٦٦

(٢) الجزء ١٨ الصفحة ٥٤

(٣) الجزء ١٨ الصفحة ٥٥

ويسومني المأمون خطة عاجزٍ أو ما رأى بالأمس رأس محمد

وأول قصيدتي :

أخذ المشيب من الشباب الأغيد والنائبات من الأنام بمرصد

ثم قلت له : يا أمير المؤمنين ، ائذن لي أن أجيئك برأسه ، قال: لا ، هذا رجل فخر علينا فافخر عليه كما فخر علينا، فأمّا قتله بلا حجة ، فلا .

وأظن انّا إذا فتشنا عن مثل هذه الحرية في عصرنا هذا فلا نجدها إلا في قليل من الأمم،هذا فضل أبي الفرج في الاستقصاء في أشباه هذه الاخبار وتتبعها انها تدلنا على سعة العقول في تلك العصور وفسحة الصدور ولولاها لما عرفنا شيئاً عن أخلاق الخلفاء والأمراء في هذا الباب وعن استعداد الناس لمجابهتهم بمثل هذا الطرز من الحرية ولم يقتصر أبو الفرج على ذكر أخبار متماثلة في هذا المعنى ، وانما نوّع الاخبار تنويعاً حتى وقفنا على أنماط كثيرة من الحرية وعلى ضروب مختلفة منها

وقد اشتهر المأمون باطلاق الحرية في عصره فكما أن صدره اتسع لهجاء الشعراء له فكذلك اتسع عقله للمناظرات ، على الرغم من غضبه في هذه المناظرات في بعض الأحيان قال أبو الفرج[1] :

وذكر محمد بن الفضل الهاشمي قال : حدثنا أبي قال : كان المأمون قد أطلق لأصحابه الكلام والمناظرة في مجلسه ، فناظر بين يديه محمد بن العباس الصولي عليّ ابن الهيثم حولنا في الامامة فتقلدها أحدهما ودفعها الآخر فلجّت المناظرة بينهما الى ان نبط محمد عليا فقال له عليّ انما تكلمت بلسان غيرك ولو كنت في غير هذا المجلس لسمعت أكثر مما قلت. فغضب المأمون وأنكر على محمد ماقاله وكان منه من سوء الأدب بحضرته ونهض عن فرشه ونهض الجلساء فخرجوا وأراد محمد الانصراف فمنعه علي بن صالح صاحب المصلى وهو اذ ذاك يحجب المأمون وقال : أفعلت مافعلت

---

(١) الجزء ١٤ الصفحة ٣٥

بحضرة أمير المؤمنين ونهض على الحال التي رأيت ثم تنصرف بغير إذن ، اجلس حتى نعرف رأيه فيك ، وأمر بان يجلس ، قال : ومكث المأمون ساعة فجلس على سريره وأمر بالجلساء فردوا اليه فدخل إليه علي بن صالح فعرَّفه ما كان من قول علي بن محمد في الانصراف وما كان من منعه إياه ، فقال : دعه ينصرف الى لعنة الله ،فانصرف ،وقال المأمون لجلسائه :أتدرون لمَ دخلت إلى النساء في هذا الوقت قالوا : لا ، قال انه لما كان من أمر هذا الجاهل ما كان لم آمن فلتات الغضب وله بنا حرمة فدخلت النساء فعانقتهن حتى سكن غضبي .

لاشك في أن هذا النوع من المناظرات يدل على استعداد للحرية عظيم .

وقد دفعت الناس حريتهم في مقام الخلفاء الى حريتهم في حضرة القواد والكتاب ومن هم في هذه الطبقة فقد روى أبو الفرج عن لسان هرون بن سعدان بعد الأسانيد هذه الرواية(١) قال هرون :

كنت مع أبي نواس قريباً من دور بني بخت بنهر طابق وعنده جماعة فجعل يمر به القوّاد والكتاب وبنو هاشم فيسلمون عليه وهو متكيء ممدود الرجل لا يتحرك لأحدمنهم حتى نظرنا اليه قد قبض رجليه ووثب وقام إلى شيخ قد أقبل على حمار له فاعتنق أبا نواس ووقف أبو نواس يحادثه فلم يزل واقفاً به يراوح بين رجليه يرفع رجلا ويضع اخرى ثم مضى الشيخ ورجع الينا أبو نواس وهو يتأوه فقال له بعض من حضر :والله لأنت اشعر منه ، فقال : والله مارأيته قط الا ظننت انه سماء وأنا أرض .—

❀❀❀

و كما استفاضت حرية الناس في مقام رجال سياستهم فقد استفاضت هذه الحرية في معتقداتهم فقد ذكر أبو الفرج بعد الأسانيد عن لسان سعيد بن سلام انه قال(٢)

(١) الجزء ٣ الصفحة ١٥٦
(٢) الجزء ٣ الصفحة ٢٤

كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام : عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وبشّار الأعمى وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبي العوجاء ورجل من الأزد . قال أبو أحمد ، يعني جرير بن حازم ، فكانوا يجتمعون في منزل الأزدي ويختصمون عنده ، فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال ، وأما عبد الكريم وصالح فصحّحا التوبة ، وأما بشار فبقي متحيراً مخلطاً وأما الأزدي فمال إلى قول السُّمَنيّة وهو مذهب من مذاهب الهندو بقي ظاهره على ما كان عليه قال : فكان عبد الكريم يفسد الأحداث ، فقال له عمرو بن عبيد : قد بلغني أنك تخلو بالحدث من أحداثنا فتفسده وتدخله في دينك فان خرجت من مصرنا وإلا قمت فيك مقاما آتي فيه على نفسك فلحق بالكوفة ، فدُلّ عليه محمد بن سليمان فقتله وصلبه بها .

وبلغ من حرية الناس في بعض الأوقات انهم كانوا يستخفون بمقدسات الأمور. قال ابو الفرج:(١)

أخبرني أحمد بن عبد العزيز قال : حدثنا عمر بن شبة قال : حدثني خلاد الأرقط قال أشاع بشّار في الناس أن حمّاد عجرد كان ينشد شعراً ورجل بازائه يقرأ القرآن وقد اجتمع عليه الناس، فقال حمّاد: علام اجتمعوا، فوالله لما أقول أحسن مما يقول ، قال : وكان بشّار يقول : لما سمعت هذا من حماد مقته عليه .

وكان الناس إذا استظرفوا زنديقاً لا يبالون بالاعراب عن هذا الاستظراف فقد كان يحيى بن زياد يُرمى بالزندقة وكان من أظرف الناس وأنظفهم فكان يقال : أظرف من الزنديق(٢)

وامتدت آفاق هذه الحرية إلى كثير من نواحي الحياة فقد امتدت الى الدور والى القضاء وإلى الفقهاء أنفسهم .

أما في الدور فان قصة إسحق بن إبراهيم الموصلي مع أبيه إبراهيم وابن جامع مشهورة فقد سأله أبوه إبراهيم عن رأيه فيه وفي ابن جامع فقال إسحق لأبيه : رأيتك

(١) الجزء ١٣ الصفحة ٧٤

(٢) الجزء ١٧ الصفحة ١٥

ولا شيء أكبر عندي منك ، قد صغرت عندي في الغناء حتى صرت كلا شيء (١)

ومن هذا القبيل ماروواه أحمد بن حمدون قال: (٢)

قال لي إسحق : من غناء أبي الذي أكرهه وأستزريه صوته في شعر العباس ابن الأحنف :

أبكي ومثلي بكى من حب جارية — لم يخلق الله لي في قلبها لينا

فما أعلم له فيه معنى الا استحسانه للشعر فان العباس أحسن فيه جداً .

وقد تكررت حرية إسحق في نقد أبيه حتى كان يغضبه في بعض الأحيان ، قال أبو الفرج : (٣)

أخبرني الحسن بن علي وعمي ، قالا : حدثنا عبد الله بن أبي سعد قال : حدثني محمد بن عبد الله بن مالك عن إسحق قال : لما صنع أبي لحنه في :

ليت هنداً أنجزتنا ماتعد — وشفت أنفسنا مما تجد

خاصمته وعبته في صنعته وقلت له : أما بازائك من ينتقد أنفاسك ويعيب محاسنك وأنت لاتفكر ، تجيء إلى صوت قد عمل فيه ابن سريج لحنا ، فتعارضه بلحن لايقاربه والشعر أوسع من ذلك ، فدع ماقد اعتورته صناعة القدماء وخذ في غيره ، فغضب وكنت لاأزال أفاخره بصنعتي وأعيب مايعاب من صنعته فان قبل مني فذلك ، وإن غضب داريته وترضيته ، فقال لي : مايعلم الله اني أدعك أو تفاخرني بخير صوت صنعته في الثقيل الثاني في طريقة هذا الصوت ، فلما رأيت الجد منه اخترت صنعي في هذا اللحن :

قل لمن صد عاتباً — ونأى عنك جانبا

قد بلغت الذي أرد — ت وان كنت لاعبا

(١) الجزء ١ الصفحة ٦

(٢) الجزء ٥ الصفحة ١٦

(٣) الجزء ٥ الصفحه ٢١

وكان ما تجارينا ونحن نتساير خارجين الى الصحراء نقطع فضلة خمار بنا ، فقال من تحب أن يحكم بيني وبينك ، فقلت : من ترى أن يحكم ههنا ، قال : أول من يطلع أغنيه لحني وتغنيه لحنك ، فطمعت فيه وقلت : نعم ، فأقبل شيخ نبطي يحمل شوكا على حمار له فأقبل عليه أبي فقال : اني وصاحبي هذا قد تراضينا بك في شيء ، قال : وأي شيء هو ، فقلنا : زعم كل واحد منا انه أحسن غناء من صاحبه ، فتسمع مني ومنه وتحكم ، فقال : على اسم الله . فبدأ أبي فغنى لحنه ، وتبعته فغنيت لحني ، فلما فرغت أقبل علي فقال لي : قد حكمت عليك ، عافاك الله ومضى فلطمني أبي لطمة ما مر بي مثلها منه قط ، وسكت ، فما أعدت عليه حرفا ولا راجعته بعد ذلك في هذا المعنى حتى افترقنا .

فهذا الطراز من الكلام يدل على شيء من الاستقلال فكأنهم كانوا في تربية أولادهم يدربونهم على حرية الرأي والكلام وما شابه ذلك .

وكما امتدت الحرية الى الدور والمنازل فقد امتدت الى القضاء كما يدل على ذلك الخبر الآتي. —(۱)

قال أبو الفرج : أخبرني جحظة قال : حدثني أبو حشيشة قال : كنت يوماً عند عمرو بن بانة، فزاره خادم كان يحبه فطلب عمرو في الدنيا كلها من يضرب عليه فلم يجد أحداً فقال له جعفر الطبال : ان أنا غنيتك اليوم على عود يضرب به عليك أي شيء لي عندك قال : مائة درهم ودستيبنجة نبيذ ، وكان جعفر حاذقا متقدما بادراً نادراً طيباً بذل الهمة فقال: أسمعني مخرج صوتك ففعل ، فسوى عليه طبله كما يسوي الوتر واتكأ عليه بركبته ووقع عليه ولم يزل عمرو يغني بقية يومه على ايقاعه لا ينكر منه شيئاً حتى انقضى يومنا ودفع اليه مائة درهم وأحضر الدستيبنجة فلم يكن له من يحملها فحملها جعفر على عنقه وغطاها بطيلسانه وانصرفنا . قال أبو حشيشة : فحدثت بهذا اسحق بن عمرو بن بزيع وكان صديق إبراهيم بن المهدي فحدثني أن إبراهيم

---

(۱) الجزء ١٤ الصفحة ٥١

ابن المهدي قال : ياجعفر! حذّق فلانة الجارية ضرب الطبل ولك مائة دينار أعجّل لك منها خمسين، قال: نعم، فعجلت له الخمسون فلما حذقت طالب ابراهيم بتتمة المائة فلم يعطه فاستعدى عليه أحمد بن أبي دواد الحسني خليفته ، فأعداه ، ووكل ابراهيم وكيلا فلما تقدموا القاضي مع الوكيل أراد الوكيل أن يكسر حجة جعفر فقال : أصلح الله القاضي ، سله : من أين له هذا الذي يدعي ، وما سببه ، فقال جعفر : أصلح الله القاضي ، أنا طبال، وشارطني ابراهيم على مائة دينار على أن أحذّق جاريته فلانة وعجل لي خمسين ديناراً ومنعني الباقي بعد أن رضي حذقها فيحضر القاضي الجارية وطبلها وأحضر أنا طبلي ويسمعنا القاضي فان كانت مثلي قضى لي عليه والا حذّقتها فيه حتى يرضى القاضي ، فقال له القاضي: قم عليك لعنة الله وعلى من يرضى بذلك منك ومنها، فأخذ الأعوان بيده فأقاموه .

ان خبراً مثل هذا الخبر يدلنا على استعمال الناس حريتهم في القضاء على الرغم من حرمة هذا القضاء ، فاذا كان كلام جعفر الطبال ضربا من الهزل فان احتمال القاضي له دليل على سعة صدره واذا كان هذا الكلام نوعاً من الجد فهذا دليل على أن الناس كانوا أحرارا في مرافعاتهم .

ومن الأخبار التي تدل على سعة صدور القضاة الخبر الآتي ، قال أبو الفرج[١]:

قال إسحق وحدثني الزبيري أن دحمان شهد عند عبد العزيز بن المطلب بن حنْطب وهو يلي القضاء لرجل من أهل المدينة على رجل من أهل العراق بشهادة فأجازها وعدلها فقال له العراقي : انه دحمان ، قال: أعرفه ، ولو لم أعرفه لسألت عنه فقال : انه يغني ويعلّم الجواري الغناء قال : غفر الله لنا ولك وأينا لايتغنى ، اخرج الى الرجل عن حقوق دحمان !

ولم يتصف بسعة الصدر القضاة وحدهم ولكن كبار الفقهاء قد اتسعت صدورهم

---

(١) الجزء ٥ الصفحة ١٣٣

لمثل هذه الأمور فقد كان لأبي حنيفة(١) جار بالكوفة يغني فكان اذا انصرف وقد سكر يغني في غرفته ويسمع أبو حنيفة غناء فيعجبه وكان كثيراً مايغني :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فلقيه العسس ليلة فأخذوه وحبس ففقد أبو حنيفة صوته تلك الليلة فسأل عنه من غدفأخبر ، فدعابسواده وطويلته فلبسها وركب الى عيسى بن موسى فقال له : ان لي جاراً أخذه عسسك البارحة فحبس وما علمت منه الا خيراً ، فقال عيسى : سلموا الى أبي حنيفة كل من أخذه العسس البارحة ، فأطلقوا جميعافلما خرج الفتى دعا به أبو حنيفة وقال له سراً : ألست كنت تغني يافتى كل ليلة :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا .

فهل أضعناك ! قال : لا والله أيها القاضي ، ولكن أحسنت وتكرمت ، أحسن الله جزاءك ، قال : فعد الى ما كنت تغنيه ، فاني كنت آنس به ولم أر به بأساً قال : أفعل .

هذا مظهر من مظاهر العقول الكبيرة والصدور الواسعة في عصور بني العباس فقد تتبع أبو الفرج أخبارها وحققها ودونها ، فصور لنا في تضاعيفها نوعاً من الحياة ، لولا تصويره هذا لما رأينا في هذه الحياة الا ظلمات بعضها فوق بعض .

ولكن إلى أي شيء انتهت هذه الحرية كلها .

بويع ابراهيم بن المهدي(٢) ببغداد وقد قل المال عنده وكان قد لجأ اليه أعراب من أعراب السواد وغيرهم من أوغاد الناس فاحتبس عنهم العطاء ، فجعل إبراهيم يسوفهم ولا يرونله حقيقة الى ان خرج اليهم رسوله يوماً وقد اجتمعوا وضجوا فصرح لهم بانه لامال عنده فقال قوم من غوغاء أهل بغداد أخرجوا الينا خليفتنا ليغني لأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات ولأهل هذا الجانب ثلاثة اصوات فتكون عطاء لهم ، وأنشد دعبل بعد ذلك بأيام قوله :

---

(١) الجزء ١ الصفحة ١٥٩

(٢) الجزء ١٨ الصفحة ٤٣

يا معشر الأجناد لاتقنطوا   وارضوا بما كان ولا تسخطوا
فسوف تعطون حنينيـة   يلتذها الأمرد والأشمط
والمعبـــديات لقوادكم   لاتدخل الكيس ولا تُرْبط
وهكذا يرزق قوّاده   خليفـة مصحفـه البربط

❀❀❀

الى هذا النوع من الاستخفاف بالخلافة وصلت الحرية في آخر الأمر وهكذا فان الحرية اذا جعلت في غير مواضعها انقلبت أسوأ منقلب .

❀ ❀ ❀

العبودية في الدولتين

إلى جنب هذه الحريات التي شهدنا طائفة من مظاهرها في الفصل الماضي نجد شيئاً من العبودية ، حتى ألّفوا كتباً في المغتالين ، ولكننا لم نطلع على هذه الكتب ولم ندر أكان الاغتيال بسبب السياسة أم بسبب أمر غيرها وعلى كل حال فإن الاغتيال عنوان من عناوين العبودية . وهذا التناقض غريب أمره في تأريخنا ، والعجيب أنا نجد الحرية والعبودية في عصر واحد وقد يكون مصدرهما خليفة واحداً أو عاملاً واحداً ، وإذا بحثنا عن السبب في هذا التناقض فقد يتعذر علينا الاهتداء إليه ولكني أرى أن السبب في هذا كله إنما مرده إلى فقدان المبدأ العام في الدولة ، فلم يكن للخلفاء مبادئ واحدة يبنون على أصولها في السياسة ، فكان كل خليفة يسير على خطة مطابقة لمزاجه أو لهواه ، وسنجد في مبدأ هذا الفصل أن قائداً من القوّاد يسكت عن جواب قاس فيلومه الخليفة على حلمه ، فهذا معناه أن السياسة كانت تختلف مذاهبها في الدولة باختلاف الخلفاء أو الأمراء أو العمّال ، فخليفة يحلم عن جوابات غليظة أو عن تعريضات شنيعة ، وخليفة يعاقب عليها أشد العقاب .

والأمر الذي انكشف لنا في عصور الحرية والعبودية أن الشعراء كانوا أجرأ الناس على مقامات الخلفاء والامراء والعمّال في عصر الحرية ، فلهذا نجدهم في عصر العبودية أكثر الناس عرضة لنقمة أصحاب السلطان ، فكما كانوا رسل الحرية فكذلك كانوا ضحاياها وسنشير في هذا الفصل إلى ما لاقوه في سبيلها ، على أني أرى أن الهجاء وحده الذي انصبّت عليهم النقمة بسببه لا يمكن أن يكون مظهراً من مظاهر الحرية فقد كنت أؤثر أن يحلّ في شعرهم نقد رجال السلطان محلّ هجائهم أو سبّهم أو التشبيب ببناتهم أو ما شابه ذلك .

عرض سلمان بن ربيعة جنده بارمينية(١) فجعل لايقبل إلاّ عتيقاً فمرّ به عمرو ابن مَعْد يكرب بفرس غليظ فقال سلمان : هذا هجين ، فقال عمرو : الهجين يعرف الهجين ، فبلغ عمر رضي الله تعالى عنه قوله ، فكتب إليه : أما بعد ، فإنك القائل لأميرك ما قلت وإنه بلغني أن عندك سيفاً تسميه الصمصامة وعندي سيف اسمه مُصَمِّم ، وأقسم لئن وضعته بين أذنيك لا أقلع حتى يبلغ قحفك و كتب إلى سلمان يلومه في حلمه عنه .

لا نجد في هذا الخبر شيئاً يدل على الضغط أو الاضطهاد وإنما نجد فيه ضيق الصدر عن احتمال الجوابات القاسية ، على أن الذي أخطأ في غلظة الجواب في هذا المقام إنما هو عمرو بن معد يكرب ، ولم يكن على سلمان بن ربيعة حق ، ولكن عمر بن الخطاب ليس من الذين يسامحون الناس في تطاولهم للسلطان .

وإذا لم يُعامل عمرو بن معد يكرب بشدة ، فقد عومل ابن مفرّغ بهذه الشدة وهذا خبره .

ذكر أبو الفرج أخبار ابن مُفرِّغ(٢) وهو شاعر غزل محسن ، كان يهجو زياداً وولده وأشعاره فيهم ترد البصرة وتنتشر وتبلغهم ، فكتب عبدالله بن زياد إلى معاوية وقال الآخرون انه كتب إلى يزيد يقول له ان ابن مفرغ هجا زياداً وبني زياد بما هتكه في قبره وفضح بنيه طول الدهر ، وتعدّى ذلك إلى أبي سفيان فقذفه بالزنا وسبّ ولده فهرب من خراسان إلى البصرة وطلبته حتى لفظته الأرض فلجأ إلى الشأم يتمضّغ لحومنا بها ويهتك أعراضنا وقد بعثت إليك بما هجانا به لتنتصف لنا منه ثم بعث بجميع ما قاله ابن مفرغ فيهم فأمر يزيد بطلبه فجعل ينتقل من بلد إلى بلد فإذا شاع خبره انتقل حتى لفظته الشأم فأتى البصرة ونزل على الأحنف بن قيس فالتجأ به واستجار فلم يجره ، وتتمة الخبر مفصّلة لا تهمنا وإنما الذي يعنينا أنهم

---

(١) الجزء ١٤ الصفحة ٣٩ .

(٢) الجزء ١٧ الصفحة ٥١

قبضوا عليه واستأذنوا في قتله فلم يأذن يزيد في هذا القتل وإنما أمر بمعاقبته بما ينكّله ويشدّ سلطان عامله ، ولما ورد كتاب يزيد على عبيد الله بن زياد أمر بابن مفرغ فسقي نبيذاً حلواً قد خلط معه الشُبْرُم فأسهل بطنه وطيف به وهو في تلك الحال وقرن بهرة وخنزيرة فجعل يسلح والصبيان يتبعونه وجعل كلما يجر الخنزيرة ضجّت فجعل يقول :

ضجّت سميّة لما لزّها قرني لا تجزعي إن شرّ الشيمة الجزع

فجعل يطاف به في أسواق البصرة والصبيان خلفه يصيحون به وألحّ عليه ما يخرج منه حتى أضعفه فسقط فعرف ابن زياد ذلك فقيل له : إنه لما به لا نأمن أن يموت فأمر به أن يغسل ففعلوا فلما اغتسل قال :

يغسل الماء ما فعلت وقولي راسخ منك في العظام البوالي

فردّه عبيد الله إلى الحبس وأمر بأن يسلم محجماً وقدموا له علوجاً وأمر بأن يحجمهم فكان يأخذ المشارط فيقطع بها رقابهم فيتوارون منه فتُرك وردّه إلى محبَسه وقامت الشرط على رأسه تصب عليه السياط ويقولون له : إحجمهم ، فقال:

وما كنت حجّاما ولكن أحلّني بمنزلة الحجّام نأيي عن الأهل

ثم هجا زياداً وولده وهو في الحبس فردّه عبيدالله إلى أخيه عباد بسجستان ووكل به رجالا ووجّههم معه وكان كلما هرب من عباد يهجوه ويكتب كل ما هجاه به على حيطان الخانات وأمر عبيد الله الموكلين به أن يأخذوه بمحو ما كتبه على الحيطان بأظافره وأمرهم أن لا يتركوه يصلي إلا إلى قبلة النصارى إلى المشرق فكانوا إذا دخلوا بعض الخانات التي نزلها قرأوا فيها شيئاً مما كتبه من الهجاء أخذوه بأن يمحوَه بأظافره فكان يفعل ذلك ويحكه حتى ذهبت أظافره فكان يمحوه بعظام أصابعه ودمه حتى سلموه إلى عباد فحبسه وضيّق عليه .

ثم حميت اليمانية في دمشق وغضبوا له ودخلوا على معاوية فسألوه فيه فدافعهم عنه فقاموا غضابا وعرف معاوية ذلك في وجوههم فردّهم ووهبه لهم ووجّه رجلاً

من بني أسد بريداً إلى عباد و كتب له عهداً وأمره بأن يبدأ بالحبس فيخرج ابن مفرغ منه ويطلقه قبل أن يعلم عباد فيم قدم فيغتاله ففعل ذلك به .

وللخبر تتمة طويلة ليس لنا اهتمام بها وإنما الذي يعنينا من هذا الفصل كله الذي تصرفت في تلخيصه تعذيب ابن مفرغ لنستدل بذلك على الضغط والاضطهاد أيام يزيد ، على ان للحرية حداً ، فانما تنتهي حرية المرء حيث تبدأ حرية أخيه فلو كان هجاء ابن مفرغ لزياد وبنيه من أجل سياسة لعذرناه في ذلك ولكن الهتك والفضح والقذف بالزنا والسب ، كل هذا لايستطيع السلطان احتماله حرصاً على هيبته .

وكما نقموا على الشعراء من أجل الهجاء فعذّبوهم فكذلك نقموا عليهم فأحرقوا دورهم .

نسخ أبو الفرج من كتاب جده لأمه يحيى بن محمد بن ثوابة(١) ان عبد الرحمن ابن أم الحكم غضب على عبد الله بن الزبير الأسدي لما بلغه أنه هجاه فهدم داره فأتى معاوية لشكاه اليه ، فقال له : كم كانت قيمة دارك ، فاستشهد أسماء بن خارجة وقال له : سله عنها ، فسأله فقال : ما أعرف يا أمير المؤمنين قيمتها ولكنه بعث الى البصرة بعشرة آلاف درهم للساج ، فأمر له معاوية بألف درهم وانما شهد له أسماء كذلك ليرفده عند معاوية ولم يكن داره الا خصاص قصب وكان عبد الرحمن بن أم الحكم لما ولي الكوفة أساء بها السيرة فقدم قادم من الكوفة الى المدينة فسألته امرأة عبد الرحمن عنه فقال لها . تركته يسأل إلحافاً وينفق إسرافاً وكان مُخِفاً ولاّه معاوية خاله عدة أعمال فذمّه أهلها وتظلموا منه فعزله واطرحه وقال له : يابنيّ ، قد جهدت أن أنفقك وأنت تزداد اكساداً !

يدل أول هذا الخبر على شيء من الذي نسميه في عصرنا هذا الاضطهاد ولكن آخر الخبر يشير الى الحرية في عصر معاوية فان عبد الرحمن لما أساء السيرة بالكوفة

---

(١) الجزء ١٣ الصفحة ٣٢

فذمه أهلها وتظلموا منه عزله معاوية عنها وهو خاله . وهكذا نجد عصور الحرية والاضطهاد في تأريخنا متداخلة يركب بعضها بعضا فلا نجد حرية إلا وجدنا الى جنبها عبودية ولا نرى عبودية إلا رأينا حولها حرية ، كأن لم يكن للدولة مبدأ عام تسير عليه !

ولم يكتف ابن أم الحكم بهدم دار عبد الله بن الزبير وإنما حبسه وهو أمير في جناية وضعها عليه وضربه ضرباً مبرحاً لهجائه إياه ، فاستغاث بأسماء بن خارجه فلم يزل يلطف في أمره ويرضي خصومه ويشفع إلى ابن أم الحكم في أمره حتى يخلعه فأطلق شفاعته(١)

هذا مابلغ من اضطهادهم في بعض الأحوال فقد كانوا يضعون الجنايات على الناس انتقاماً منهم ويضربونهم الضرب المبرح .

وقد شاع مثل هذا الانتقام في أوائل عصر بني أمية فان مصعب بن الزبير لما ولي العراق لأخيه هرب أسماء بن خارجة إلى الشأم وبها يومئذ عبدالملك بن مروان قد ولي الخلافة وقتل عمرو بن سعيد وكان أسماء أمويّ الهوى فهدم مصعب بن الزبير داره وحرقها فقال عبد الله بن الزبير في ذلك قوله :

تأوّب عينَ ابن الزبير سهودُها ــ وولّى على ما قد عراها هجودها(٢)

ولكنا نجد إلى جنب هذا الخبر الذي يدل على انتقام مصعب بن الزبير من الذين كان هواهم في بني أمية خبراً آخر يدل على مسامحة مصعب فان مصعب بن الزبير لما ولي العراق دخل عليه عبد الله بن الزبير الأسدي فقال له : ايه يا ابن الزبير ، أنت القائل(٣):

إلى رجب السبعين أو ذاك قبله ــ تصبّحكم حمر المنايا وسودها

---

(١) الجزء ١٣ الصفحة ٣٣

(٢) الجزء ١٣ الصفحة ٣٦

(٣) الجزء ١٣ الصفحة ٣٦

ثمانون ألفا نصر مروان دينهم   كتائب فيها جبرئيل يقودها

فقال : أنا القائل كذلك ، وان الحقير ليأبى الغدرة ، ولو قدرت على جحده لجحدته فاصنع ما أنت صانع ، فقال :

أما إني ما أصنع بك الا خيراً ، أحسن إليك قوم ، فأحببتهم وواليتهم ومدحتهم ثم أمر له بجائزة و كسوة ورده إلى منزله مكرّماً .

نقرأ خبراً مثل هذا الخبر ثم ننتقل إلى خبر آخر يشير إلى أشد التعذيب وذلك في دولة ابن الزبير نفسه فقد كان عبد الله بن الزبير صديقاً لعمرو بن الزبير بن العوام[1] فلما أقامه أخوه ليقتصّ منه بالغ كل ذي حقد عليه في ذلك وتدسس فيه من يتقرب الى أخيه وكان أخوه لايسأل من ادعى عليه شيئاً بينة ، ولا يطالبه بحجة وإنما يقبل قوله ثم يدخله إليه السجن ليقتصّ منه فكانوا يضربونه ، والقيح ينتضح من ظهره ، وأكتافه على الأرض لشدة مايمرّ به ، ثم يُضرب وهو على تلك الحال ، ثم أمر بأن يرسل عليه الجعْلان فكانت تدب عليه فتثْقب لحمه وهو مقيّد مغلول ، يستغيث فلا يغاث ، حتى مات على تلك الحال ، فدخل الموكّل به على أخيه عبد الله بن الزبير وفي يده قدح لبن يريد أن يتسحّر به ، وهو يبكي فقال له: مالك ، أمات عمرو ، قال : نعم ، قال : أبعده الله ، وشرب اللبن ، ثم قال: لاتغسلوه ولا تكفنوه وادفنوه في مقابر المشركين ، فدفن فيها ، فقال ابن الزبير الأسدي يرثيه ويؤنب أخاه بفعله وكان له صديقاً وخلاً ونديماً .

ومن رجع الى قصيدة ابن الزبير استطاع أن يتصور هذا النوع من التعذيب في خلافة عبد الله بن الزبير .

فمن كان يعذب أخاه هذا الشكل من التعذيب فأخلق به أن يشتد على عدوه فقد تتبّع عبد الله بن الزبير آثار بني مروان في الحجاز فنفى أبا قطيفة مع من نفاه

---

(١) الجزء ١٣ الصفحة ٣٧

منهم عن المدينة الى الشأم(١)، فلما طال مقام ابن قطيفة بها قال :

ألا ليت شعري هل تغيّر بعدنا ... قُباء وهل زال العقيق وحاضره

وهل برحت بطحاء قبر محمد ... أراهط غرّ من قريش تباكره

لهم منتهى حبي وصفو مودتي ... ومحض الهوى مني وللناس سائره

وقال أيضاً :

ليت شعري وأين مني ليت ... أعلى العهد يَلْبَن فبَرام

أم كعهدي العقيق أم غيّرته ... بعدي الحادثات والأيام

وبأهلي بدلت عكاً ولخْماً ... وجُذاما وأين مني جُذام

وتبدلت من مساكن قومي ... والقصور التي بها الآطام

كل قصر مشيد ذي أواسٍ ... يتغنى على ذراه الحمام

اقرَ مني السلام إن جئت قومي ... وقليل لهم لديّ السلام

ولما بلغ ابن الزبير شعرُ أبي قطيفة هذا قال : أحسن والله أبو قطيفة ، وعليه السلام ورحمة الله ، من لقيه فليخبره أنه آمن ، فليرجع ، فأُخبر بذلك فانكفأ إلى المدينة راجعاً ، فلم يصل اليها حتى مات .

ولم يقتصر ابن الزبير على نفي أبي قطيفة وحده فقد روى أبو الفرج(٢) انه لما غلب على الحجاز جعل يتبع شيعة بني مروان ، فينفيهم عن المدينة ومكة ، حتى لم يبق بها أحد منهم ثم بلغه عن أبي العباس الأعمى الشاعر نَبْذ من كلام وأنه يكاتب بني مروان بعوراته ويمدح عبد الملك ويجيئه بجوائزه وصلاته فدعابه ثم أغلظ له وهمّ به ثم كُلّم فيه وقيل له : رجل مضرور ، فعفا عنه ونفاه الى الطائف .

وكما كانوا يضطهدون الناس للهجاء أو للمخالفة في الهوى فقد كانوا يضطهدونهم لأسباب لاتخطر ببال أحد فقد كان زياد الأعجم(٣) يخرج وعليه قباء ديباج تشبهاً

---

(١) الجزء ١ الصفحة ١٤

(٢) الجزء ١٥ الصفحة ٦٠

(٣) الجزء ١٤ الصفحة ١٠٠

بالأعاجم فمرّ به يزيد بن المهلب وهو على حاله تلك فأمر به فقنع أسواطاً ومزق ثيابه وقال له ، أبا لمهلب والترك تتشبه لا أم لك . فقال زياد :

لعمرك ما الديباج خرقت وحده ولكنما خرقت جلد المهلب

فدعا به المهلب فقال له : يا أبا أمامة ، قلتَ شيئاً آخر ، قال : لا والله أيها الأمير قال : فلا تقل ، وأعتبه وكساه وحمله وأمر له بعشرة آلاف درهم وقال : أعذُرْ ابن أخيك يا أبا أمامة ، فأنه لم يعرفك !

وإذا كان التشبه بالأمراء في اللباس ذنباً من الذنوب في بعض العصور فقد كانت الخطرة في المشي تستلزم الضرب المبرح فقد روى أبو الفرج[١] ان داود بن سَلْم وهو مخضرَم من شعراء الدولتين الأموية والعباسية كان من أقبح الناس وجها وكان سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف يستثقله فرآه ذات يوم يخطر خطرة منكرةً فدعا به وكان يتولى المدينة فضربه ضرباً مبرحاً وأظهر أنه إنما فعل ذلك به من أجل الخطرة التي تخايل فيها في مشْيته فقال بعض الشعراء في ذلك وأظنه ابن رُهَيْمَة :

ضرب العادل سعد ابن سَلْم في السماجة

فقضى الله لسعد من أميرٍ كل حاجة

فلئن كانت الخطرة في المِشْيَة السبب الظاهر في ضرب داود بن سلم فقد كانت سماجته السبب الباطن وهكذا كانوا يعاقبون الناس على السماجة .

استمر هذا النحو من الاضطهاد في زمن بني أمية سواء أكان خفيفاً أم كان شديداً ولئن وجدنا بعض الخلفاء في عصور الحرية يصبرون على تشبيب الشعراء ببناتهم فقد وجدنا بعضهم في عصور العبودية لايسكتون عن شيء من ذلك فقد ذكر أبو الفرج[٢] ان وضاح اليمن شبّب بأم البنين ، بنت عبد العزيز ابن مروان زوجة الوليد بن عبد الملك فقتله الوليد لذلك وذكر أبو الفرج جملة

(١) الجزء ٥ الصفحة ١٢٨

(٢) الجزء ٦ الصفحة ٣٢

أخبارٍ في هذا المعنى في كلامه على وضّاح اليمن ونسبه .

منها أن أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان استأذنت الوليد بن عبد الملك في الحج فأذن لها وهو يومئذ خليفة وهي زوجته فقدمتْ مكة ومعها من الجواري ما لم يُرَ مثله حسنا وكتب الوليد يتوعد الشعراء جميعاً ان ذكرها أحد منهم أو ذكر أحداً ممن تبعها وقدمتْ فتراءت للناس وتصدّى لها أهل الغزل والشعر ووقعت عينها على وضّاح اليمن فهويته .

ولا بأس بذكر مقتل وضّاح اليمن ، قال أبو الفرج(١):

وأخبرني علي بن سليمان الأخفش في كتاب المغتالين قال : حدثنا أبو سعيد السكري قال : حدثنا محمد بن حبيب عن أبي الكلبي قال : عشقت أم البنين وضاحاً فكانت ترسل إليه فيدخل اليها ويقيم عندها فاذا خافت وارته في صندوق عندها وأقفلت عليه فأهدي للوليد جوهر له قيمة فأعجبه وأستحسنه فدعا خادماً لهفبعث به معه إلى أم البنين وقال : قل لها إن هذا الجوهر أعجبني فآثرتك به ، فدخل الخادم عليها مفاجأة ووضّاح عندها فأدخلته الصندوق وهو يُرى ، فأدّى اليها رسالة الوليد ودفع اليها الجوهر ، ثم قال : يامولاتي ! هبيني منه حجراً ، فقالت : لا يا ابن اللخناء ولا كرامة ، فرجع إلى الوليد فأخبره، فقال : كذبت يا ابن اللخناء وأمر به فوجئتْ عنقه ، ثم لبس نعليه ودخل على أم البنين وهي جالسة في ذلك البيت تمتشط وقد وصف له الخادم الصندوق الذي أدخلته فيه فجلس عليه ثم قال لها : يا أم البنين ! ما أحبّ إليك هذا البيت من بيوتك فلِمَ تختارينه ، فقالت : أجلس فيه وأختاره لأنه يجمع حوائجي كلها فأتناولها منه كما أريدمن قرب ، فقال لها : هبي لي صندوقاً من هذه الصناديق ، قالت : كلها لك يا أمير المؤمنين ، قال : ما أريدها كلها وإنما أريد واحداً منها ، فقالت له : خذ أيّها شئت ، فقال : هذا الذي جلست عليه ، قالت : خذ غيره ، فان لي فيه أشياء أحتاج إليها ، قال : ماأريد

---

(١) الجزء ٦ الصفحة ٣٧

غيره ، قالت : خذه يا أمير المؤمنين ، فدعا بالخدم وأمرهم بحمله ، فحمله حتى انتهى به إلى مجلسه فوضعه فيه، ثم دعا عبيد الله فأمرهم فحفروا ابئراً في المجلس عميقة فنحّى البساط وحُفرت إلى الماء ، ثم دعا بالصندوق ، فقال : انه بلغنا شيء إن كان حقاً فقد كفنّاك ودفنّاك وقطعنا أثرك إلى آخر الدهر ، وإن كان باطلا فانّا دفنّا الخشب وما أهون ذلك ، ثم قذف به في البئر، وهيل عليه التراب وسويت الأرض وردّ البساط إلى حاله وجلس الوليد عليه ثم ما رؤي بعد ذلك اليوم لوضّاح أثر في الدنيا إلى هذا اليوم ، قال :وما رأت أم البنين لذلك أثراً في وجه الوليد حتى فرّق الموت بينهما . —

قد يكون هذا الخبر غريباً ولكن أبا الفرج رواه دون شيء من الاستغراب وانما روى قبله خبراً آخر قال فيه : وقع بين رجل من زنادقة الشعوبية وبين رجل من ولد الوليد نخار ، خرجا فيه إلى أن أغلظا المسابة وذلك في دولة بني العباس فوضع الشعوبي عليهم كتابا زعم فيه أن أم البنين عشقت وضاحا فكانت تدخله صندوقاً عندها ، فوقف على ذلك خادم الوليد فأنهاه اليه وأراه الصندوق فأخذه فدفنه . —

وسواء أكان هذا الخبر من زعم بعض زنادقة الشعوبية أم كان صحيحاً فان الذي يهمنا فيه قتل الوليد لوضاح اليمن بسبب تشبيبه بزوجته أم البنين .

وقد استمر الخلفاء بعد الوليد في التعرض للشعراء فكان أكثرهم يكتفون بنفيهم فقد حج سليمان بن عبد الملك[1] وهو خليفة ، فأرسل إلى عمر بن أبي ربيعة فقال له : ألست القائل ؟

فكم من قتيلٍ ما يُباءُ به دم ... ومن غلقٍ رهناً إذا لفه مِنى

ومن ماليءٍ عينيه من شيءِ غيره ... إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

يسحّبن أذيال المروط بأسوقٍ ... خِدالٍ وأعجازٍ مآكمها روى

---

(١) الجزء ٨ الصفحة ٥٦

أوانس يسلبن الحليم فؤاده	فياطول ماشوقٍ وياطول مجتلي!

قال : نعم ، قال : لاجرم والله لاتحضر الحجّ هذا العام مع الناس فأخرجه إلى الطائف .

❀❀❀

وكذلك فعل عمر بن عبد العزيز في تتبع الشعراء ونفيهم فانه لماولي الخلافة(١) لم تكن له همة إلاّ عمر بن أبي ربيعة والأحوص فكتب إلى عامله على المدينة : قد عرفت عمر والأحوص بالخبث والشر فاذا أتاك كتابي هذا فاشددهما واحملهما اليّ فلما أتاه الكتاب حملها اليه فأقبل على عمر فقال له : هيه

فلم أر كالتجمير منظر ناظر	ولا كليالي الحج أفلتن ذا هوى

وكم مالىء عينيه من شيء غيره	إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

فاذا لم يُفلت الناس منك في هذه الأيام فمتى يفلتون أما والله لو اهتممت بأمر حجك لم تنظر إلى شيء غيرك ثم أمر بنفيه ، فقال : ياأمير المؤمنين ! أو خير من ذلك ، قال : وما هو ، قال : أعاهد الله أن لا أعود إلى مثل هذا الشعر ، ولا أذكر النساء في شعر أبداً وأجدّد توبة على يديك ، قال : أو تفعل ، قال : نعم ، فعاهد الله على توبة وخلاّه ثم دعا بالأحوص فقال : هيه

الله بيني وبين قيّمها	يهرب عني بها وأتبع

بل الله بين قيّمها وبينك ثم أمر بنفيه إلى بِيشَ وقيل إلى دَهْلك وهو الصحيح فنفي اليها فلم يزل بها ، فرحل إلى عمر عدة من الأنصار فكلموه في أمره وسألوه أن يقدمه وقالوا له : قد عرفت نسبَه وقدمَه وموضعه وقد أخرج إلى بلاد الشرك فنطلب اليك أن ترده إلى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودار قومه فقال :

---

(١) الجزء ٨ الصفحة ٥٤

والله لا أرده ما كان لي سلطان فمكث هنـاك بعد ولاية عمر صدراً من ولاية يزيد ابن عبد الملك ثم خلاه ..

❀❀❀

ولم يكن هشام بن عبد الملك في حالة الضغط والاضطهاد أقل بطشاً من غيره فقد ورد أبو النجم[1] على هشام بن عبد الملك في الشعراء فقال لهم هشام : صفوا لي إبلاً فقطروها وأوردوها وأصدروها حتى كأني أنظر اليها فأنشدوه وأنشده أبو النجم : الحمد لله الوهوب المجزل .. حتى بلغ إلى ذكر الشمس فقال : وهي على الأفق كعين .. وأراد أن يقول الأحول ، ثم ذكر حولة هشام ، فـلم يتم البيت وأرتج عليه ، فقال هشام : أجز البيت فقال : كعين الأحول وأتم القصيدة ، فأمر هشام بوجء عنقه وإخراجه من الرصافة وقال لصاحب شرطته : ياربيع ، إياك وأن أرى هذا فكلم وجوه الناس صاحب الشرطة أن يُقرّه ففعل فكان يصيب من فضول أطعمة الناس ويأوي إلى المساجد .

لاشك في أن ذكر الأحول في قصيدة يمدح بها هشام وهو أحول لايخلو من شيء نسميه : ضعف الذوق ، ولكن هذا الذوق الضعيف لايستلزم وجء العنق .

وكما نقم هشام على أبي النجم فقد نقم على الـكميت ، والـكميت كما يقول أبو الفرج معروف بالتشيع لبني هاشم ، مشهور بذلك ، وقصائده الهاشميات من جيد شعره ومختاره ولم تزل عصبيته للعدنانية ومهاجاته شعراء اليمن متصلة والمناقضة بينه وبينهم شائعة في حياته وبعد وفاته .

وحدّث أبو الفرج[2] ان الـكميت أنشد قصيدته التي يهجو فيها اليمن وهي :

ألا حييت عنّا يا مدينا

فأحفظت خالد بن عبد الله القسْري عليه فروّى جاريةً حسناء قصائده

---

(١) الجزء ٩ الصفحة ٧٥

(٢) الجزء ١٥ الصفحة ١١٠

الهاشميات وأعدّها ليهديها إلى هشام وكتب إليه بأخبار الكميت وهجائه بني أمية وأنفذ إليه قصيدته التي يقول فيها :

فيا ربّ هل إلاّ بك النصر يُبْتَغى ويا ربّ هل إلاّ عليك المعوّل

وهي طويلة يرثي فيها زيد بن علي وابنه الحسين بن زيد ويمدح بني هاشم فلما قرأها أكبرها وعظمت عليه واستنكرها وكتب إلى خالد يقسم عليه أن يقطع لسان الكميت ويده فلم يشعر الكميت إلاّ والخيل محدقة بداره فأخذ وحُبس في المحبَس وكان أبانُ بن الوليد عاملاً على واسط وكان الكميت صديقه فبعث إليه بغلامٍ على بغل وقال له : أنت حر إن لحقته والبغل لك وكتب إليه : قد بلغني ما صرت إليه وهو القتل الا أن يدفع الله عز وجل وأرى لك أن تبعث إلى حُبّي يعني زوجة الكميت وهي بنت نكيف بن عبد الواحد وهي ممن يتشيع أيضاً فاذا دخلتْ إليك تنقبتَ نقابها ولبستَ ثيابها وخرجتَ فإني أرجو أن لا يؤبه لك . ولهذا الخبر تتمة وخلاصتها أن الكميت عمل بما أشار به عليه أبان بن الوليد فنجا وعاذ بقبر معاوية بن هشام بدير حنينا فخلّصه مسلمة بن هشام وعقد له هشام مجلساً فتكلم الكميت بخطبة ارتجلها ، ما سُمِع مثلها قط وامتدح هشاما بقصيدته الرائية وهي قوله : قف بالديار وقوف زائر ..

فمضى فيها حتى انتهى إلى قوله :

ماذا عليك من الوقو ف بها وإنك غير صاغر
درجت عليها الغاديا ت الرائحات من الأعاصر

وفيها يقول :

فالآن صرت إلى أميـة والأمور إلى المصاير

وجعل هشام يغمز مسلمة بقضيب في يده فيقول : إسمع ، إسمع ، ثم استأذنه في مرثية ابنه معاوية فأذن له فأنشده قوله :

سأبكيك للدنيا وللدين انني رأيت يدالمعروف بعدك شُلّت

فدامت عليك بالسلام تحية ملائكة الله الكرام وصلّت

فبكى هشام بكاء شديداً فوثب الحاجب فسكّته ثم جاء الكميت إلى منزله آمناً فحشدت له المضرية بالهدايا وأمر له مسلمة بعشرين ألف درهم وأمر له هشام بأربعين ألف درهم وكتب إلى خالد بأمانه وأمان أهل بيته وانه لا سلطان له عليهم وجمعت له بنو أمية مالا كثيراً .

لم يكن للضغط ولا للحرية عوامل عامة ، فكان الخلفاء والأمراء والعمّال يجرون فيها على أحوال خاصة تختلف باختلاف أمزجتهم أو أهوائهم أو الساعات التي يكونون فيها ، فالكميت الذي يأمر هشام بن عبدالملك بقطع لسانه ويده لهجائه بني أمية تغمره بعد مدحه إيّاهم مكارم هشام وابنه مسلمة وبني أمية فيعيش بأمانٍ هو وأهل بيته ولا سلطان لوالٍ أو لعاملٍ عليهم .

ولكنّ الكميت نجا من هشام بن عبد الملك ولم ينج من عامله على العراق فقد مرّ به خالد بن عبد الله القسْري يوماً(١) وقد تحدث الناس بعزله عن العراق فلما جاز تمثل الكميت :

أراها وإن كانت تحَبُّ كأنها سحابة صيف عن قليل تقشع

فسمعه خالد فرجع وقال : أما والله لا تنقشع حتى يغشاك منها شؤبوب برد ثم أمر به فجرّد فضربه مائة سوط ثم خلّى عنه ومضى .

ومن الشعراء الذين لم ينجوا من عذاب الولاة : العَرْجي ، فقد قال أبياتاً في زوجة محمد بن هشام المخزومي واسمها جبرة فلم يزل محمد بن هشام مضطغناً على العرجي من هذه الأشعار التي يقولها فيه متطلباً سبيلا عليه حتى وجده فيه فأخذه وقيده وضربه وأقامه للناس ثم حبسه وأقسم لا يخرج

---

(١) الجزء ١٥ الصفحة ١١٤

من الحبس ما دام له سلطان فمكث في حبسه نحواً من تسع سنين حتى مات فيه(١).

وقد وصف أبو الفرج طائفة من تعذيب العرجي لما أخذه محمد بن هشام الذي مرّ ذكره لأشياء كانت تبلغه عنه في حياة هشام(٢) فلما ولي الخلافة قبض عليه وعلى أخيه إبراهيم بن هشام وأشخصا إليه إلى الشأم ثم دعا بالسياط فقال له محمد أسألك بالقرابة قال: وأي قرابة بيني وبينك، وهل أنت إلاّ من أشجع، قال: فأسألك بصهر عبد الملك، قال: لم تحفظه، فقال له: يا أمير المؤمنين قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضرب قرشي بالسياط الاّ في حد، قال: ففي حد أضربك وقود، أنت أول من سنّ ذلك على العرجي وهو ابن عمي وابن أمير المؤمنين عثمان فما رعيت حق جده ولا نسبه بهشام ولا ذكرت حينئذ هذا الخبر وأنا وليّ ثأره، اضرب يا غلام، فضربهما ضربا مبرحا وأثقلا بالحديد ووجه بهما إلى يوسف بن عمر بالكوفة وأمره باستصفائهما وتعذيبهما حتى يتلفا وكتب اليه أحبسهما مع ابن النصرانية يعني خالد القسري ونفسك نفسك إن عاش أحد منهم فعذّبهم عذابا شديداً وأخذ منهم مالا عظيما حتى لم يبق فيهم موضع للضرب فكان محمد بن هشام مطروحا فاذا أردوا أن يقيموه أخذوا بلحيته فجذبوه بها ولما اشتدت عليهما الحال تحامل إبراهيم لينظر في وجه محمد فوقع عليه فماتا جميعاً ومات خالد القسري في يوم واحد.

❀❀❀

أفرأينا شأن هذه الأخبار في تأريخنا، أفرأينا العبرة فيها، يأتي والٍ من الولاة فيسن سنة تشتمل على أنواع من التعذيب ثم يأتي خليفة بعده فيعامله بهذه السنة وهكذا نشأ الخلاف والانشقاق بين الأهل، فالوليد بن يزيد عامل محمد بن هشام وأخاه إبراهيم أسوأ معاملة حتى ماتا، فلا شك في أن فضل أبي الفرج عظيم لأنه صور

---

(١) الجزء ١ الصفحة ١٥٧

(٢) الجزء ١ الصفحة ١٥٩

لنا هذه الصور المختلفة ، صور الضغط والانتقام والانشقاق وكلها مادة لنا نرجع اليها في توضيح تاريخنا وتنسيقه ورد الأمور إلى مصادرها .

***

وكما تتبعوا الشعراء فكذلك تتبعوا المغنيات فحاولوا أن يحولوا بينهن وبين الغناء!

لما قدم عثمان بن حيان المري المدينة واليا عليها(١) قال له قوم من وجوه الناس: انك قد وليت على كثرة من الفساد فان كنت تريد أن تصلح فطهرها من الغناء والزنا ، فصاح في ذلك وأجّل أهلها ثلاثا يخرجون فيها من المدينة وكان ابن أبي عتيق غائباً وكان من أهل الفضل والعفاف والصلاح فلما كان آخر ليلة من الأجل قدم فقال : لا أدخل منزلي حتى أدخل على سلامة القس فدخل عليها فقال : مادخلت منزلي حتى جئتكم أسلم عليكم ، قالوا : ماأغفلك عن أمرنا وأخبروه الخبر فقال : اصبروا إلى الليلة ، فقالوا : نخاف أن لا يمكنك شيء وننكص ، قال : ان خفتم شيئاً فاخرجوا في السحر ، ثم خرج فاستأذن على عثمان بن حيان فأذن ، فسلّم عليه وذكر له غيبته وأنه جاء ليقضي حقه ثم جزاه خيراً على ما فعل من إخراج أهل الغناء والزنا وقال : أرجو أن لا تكون عملت عملاً هو خير لك من ذلك ، قال عثمان : قد فعلت وأشار به عليّ أصحابك ؛ فقال : قد أصبت ، ولكن ما تقول ، أمتع الله بك ، في امرأة كانت هذه صناعتها وكانت تكره على ذلك ثم تركته وأقبلت على الصلاة والصيام والخير وأنى رسولها اليك تقول أتوجه اليك وأعوذ بك أن تخرجني من جوار رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ومسجده ، قال: فاني أدعها لك ولكلامك ، قال ابن أبي عتيق : لا يدعك الناس ولكن تأتيك وتسمع من كلامها وتنظر اليها فان رأيت أن مثلها ينبغي أن يترك تركتها ، قال نعم ، فجاءه بها وقال لها احملي معك سُبْحة وتخشّعي ففعلت فلما دخلت على عثمان حدثته وإذا هي من أعلم

---

(١) الجزء ٨ الصفحة ٩

الناس بالناس وأعجب بها وحدثته عن آبائه وأمورهم ، ففكه لذلك فقال لها ابن أبي عتيق : اقرأي الأمير ،فقرأتْ له ، فقال لها: احدي له ، ففعلت ،فكثر تعجبه، فقال كيف لو سمعتها في صناعتها فلم يزل يُنزله شيئاً شيئاً حتى أمرها بالغناء فقال لها ابن أبي عتيق غني ، فغنت :

سددن خصاص الخيم لما دخلنه   بكل لبان واضح وجبين

فقام عثمان من مجلسه فقعد بين يديها ثم قال : لا والله مامثل هذه يُخرج ،قال ابن أبي عتيق : لايدعك الناس يقولون أقرّ سلامة وأخرج غيرها،قال فدعوهم جميعاً فتركوهم جميعاً .

أول هذا الخبر يدل على شيء من الاضطهاد أو الضغط فان تتبع والي المدينة المغنيات واخراجهن من المدينة إنما هو ضرب من التقييد والحصر ولكن آخر الخبر يدل على كثير من المسامحة فاذا كان رجل مثل ابن أبي عتيق قد اشتهر بالفضل والعفاف والصلاح لايرى بأساً بالغناء ، ويدافع عن المغنيات فلا شك في أنّ في هذه النزعة كثيراً من الحرية .

وقد نجد في بعض الأحوال شيئاً من الاكراه في أمور الزواج فقد قدم أعراب من بني سليم (١) أقحمتهم السنة إلى الروحاء فخطب إلى بعضهم رجل من الموالي من أهل الروحاء فزوّجه وركب محمد بن بشير الخارجي إلى المدينة وواليها يومئذ إبراهيم بن هشام بن المغيرة فاستعداه الخارجي على المولى فأرسل اليه إبراهيم وإلى النفر المسلمين ففرّق بين المولى وزوجته وضربه مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه .

فهذا يدلنا على أنهم كانوا لايسمحون بزواج العبيد إلى غير العبيد و كانوا يعاقبون على ذلك .

❀❀❀

(١) الجزء ١٤ الصفحة ١٤٤

وإذا انتقلنا من عصر بني أمية الى عصر بني العبّاس وجدنا من العبودية في دولة العباسيين ما وجدناه في دولة الأمويين وقد تكون مظاهر الحرية والعبودية في الدولتين واحدةً ، فلا نستطيع ان نقول ان بني أمية أميل الى الحرية أو إلى العبودية أو ان بني العباس أميل الى المسامحة أو إلى الشدة ، على أن حكمنا هذا لا ينطبق إلاّ على الأخبار التي رواها أبو الفرج ، لأنّا لا نخرج عن كتاب الأغاني في هذا المعنى ، والمهم في هذا كله ان عصورنا القديمة كان تخللها الحرية والعبودية فلم يختص عصر منها بأحد الأمرين ، وهذا سببه كما ذكرت في أول الفصل فقدان المبدأ العام في السياسة ، فلو كانت للدولة سياسة واحدة وتسلسلت مظاهر الحرية على الشكل الذي اطلعنا عليه في كتاب الأغاني لبلغنا في عصرنا هذا من الديموقراطية ما بلغته أرقى الأمم ، وهل الديموقراطية إلاّ جملة حريات: حرية الرأي والاجتماع والمعتقد والكلام وما شابه ذلك .

والآن أشرع في الكلام على العبودية في زمن بني العبّاس .

عقد أبو الفرج لأبي نُخَيْلَة فصلاً جاء فيه:[1] .

انه لما خرج الى الشأم اتصل بمسلمة بن عبد الملك فاصطنعه وأحسن اليه وأوصله الى الخلفاء واحداً بعد واحد واستماحهم له فأغنوه وكان بعد ذلك قليل الوفاء لهم ، انقطع إلى بني هاشم ولقب نفسه شاعر بني هاشم فمدح الخلفاء من بني العباس وهجا بني أمية فأكثر وكان طامعاً فحمله ذلك على أن قال في المنصور أرجوزة يغريه فيها بخلع عيسى بن موسى وبعقد العهد لابنه محمد المهدي فوصله المنصور بألفي درهم وأمره أن ينشرها بحضرة عيسى بن موسى ففعل ، فطلبه عيسى فهرب منه وبعث في طلبه مولى له فأدركه في طريق خراسان فذبحه وسلخ جلده وهذه تفاصيل قتله :

---

(١) الجزء ١٨ الصفحة ١٣٩ .

نسخ أبو الفرج من كتاب القاسم بن يوسف عن خالد بن حمل (١) أن علي ابن أبي نُخَيْلة حدثه ان المنصور أمر أبا نخيلة أن يهرب إلى خراسان فأخذه قطري وكتفه فأضجعه فلما وضع السكين على أوداجه قال : ايه يا ابن اللخناء، ألست القائل : « علقت معالقها وصرّ الجُنْدَب ! الآن صرّ جندبك ، فقال : لعن الله ذاك جُنْدباً ما كان أشأم ذكره ثم ذبحه قطري وسلخ وجهه وألقى جسمه إلى النسور وأقسم لا يريم مكانه حتى تمزق السباع والطيور لحمه فأقام حتى لم يبق منه إلا عظامه ثم انصرف .

وكما قتل أبو نُخَيْلة من أجل الهجاء فقد قتل حماد عجرد من أجل التشبيب.

كان محمد بن سليمان قد طلب حماد عجرد (٢) بسبب تشبيبه باخته زينب ولم يقدر عليه لمكانه من محمد بن أبي العباس فلما هلك محمد جدّ ابن سليمان في طلبه وخافه حمادُ خوفاً شديداً فكتب إليه أبياتاً يتوب فيها اليه ويستعطفه عليه، ومضى إلى قبر أبيه سليمان بن علي فاستجار به فبلغه ذلك فقال : والله لأبُلَنّ قبر أبي من دمه ، فهرب حماد إلى بغداد فعاذ بجعفر بن المنصور فأجاره فقال : لا أرضى أو يهجو محمد بن سليمان ، فهجاه وبلغ هجاؤه محمد بن سليمان فقال: والله لا يُفلتني أبداً وإنما يزداد حتفاً بلسانه ولا والله لا أعفو عنه ولا أتغافل أبداً .

وجاء في خبر بعد هذا الخبر أن حماداً هرب من محمد بن سليمان فأقام بالأهواز مستتراً وبلغ محمداً خبره فأرسل مولى له الى الأهواز فلم يزل يطلبه حتى ظفر به فقتله غيلة .

ولم يقتصر الخلفاء على قتل من ذكرته من الشعراء وإنما تعرّضوا لفحولهم أمثال بشّار ، وإذا أردنا أن نعرف منزلة بشار فلنسمع ما قاله الأصمعي فيه(٣) وقد

---

(١) الجزء ١٨ الصفحة ١٥٢
(٢) الجزء ١٣ الصفحة ٩٦
(٣) الجزء ٣ الصفحة ٢٥

سئل عنه وعن مروان أيهما أشعر ، فقال: بشّار،فسئل عن السبب في ذلك فقال : لأن مروان سلك طريقاً كثر من يسلكه فلم يلحق بمن تقدمه وشركه فيه من كان في عصره ، وبشّار سلك طريقاً لم يسلك وأحسن فيه وتفرد به وهو أكثر تصرفاً وفنون شعر وأغزر وأوسع بديعاً ومروان لم يتجاوز مذهب الأوائل .

هذا هو بشّار ، فلننظر الآن كيف مات.

ذكر أبو الفرج جملة أخبار في قتله قد تكون متقاربة،ولكن لا بأس بذكر خبر منها (١) .

قدم بشار على المهدي ، فلما استأذن عليه قال له الربيع : قد أذن لك وأمرك أن لا تنشد شيئاً من الغزل والتشبيب ، فأدخل على ذلك ،فأنشد قوله :

يامنظراً حسناً رأيتـــه	من وجه جارية فديتـه
بعثت إليّ تسومني	برد الشباب وقد طويتـه
والله رب محمـــد	ما ان غررت ولا نويتـه
أمسكت عنك وربمـا	عرض البلاء وما ابتغيته
ان الخليفـــة قد أبى	وإذا أبى شيئاً أبيتـــه
ومخضب رخص البنا	ن بكى علي وما بكيتـه
ويشوقني بيت الحبيـ	ب إذا ادكرت وأين بيته
قام الخليفـــة دونـه	فصبرت عنه وما قليتـه
ونهاني الملك الهـما	م عن النساء وما عصيتـه
لا بـل وفيت فلم أضع	عهداً ولا رأياً رأيتـه
وانا المطل على العـدا	وإذا غلا علق شريتـــه
أصفي الخليل إذا دنا	وإذا نأى عني نأيتـــه

(١) الجزء ٣ الصفحة ٦٥

ثم أنشده ما مدحه به بلا تشبيب فحرمه ولم يعطه شيئاً فقيل له : أنه لم يستحسن شعرك فقال : والله لقد مدحته بشعر لو مدح به الدهر لم يخش صرفه على أحـد ولكنه كذب أملي لأني كذبت في قولي .

وقد واظب بشّار على مدح المهدي بعد ذلك فلم يحظ منه بشيء أيضاً فأخـذ يهجوه فسعى به يعقوب بن داود وكان بشّار قد هجاه فقال(١) :

بني أمية هبوّا طال نومكم	ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا	خليفة الله بين الزق والعود

فدخل يعقوب على المهدي فقال له : يا أمير المؤمنين ان هـذا الاعمى الملحد الزنديق قد هجاك ، فقال: بأي شيء ، فقال : بما لا ينطق به لساني ولا يتوهمه فكري قال له : بحياتي الا ّ أنشدتني ، فقال : والله لو خيرتني بين إنشادي إياه وبين ضرب عنقي لاخترت ضرب عنقي ، فحلف عليه المهدي بالايمان التي لافسحة فيها ان يخبره فقال : أما لفظاً فلا ، ولكني أكتب ذلك، فكتبه ودفعه اليه فكاد ينشق غيظاً وعمد على الانحدار الى البصرة للنظر في أمرها ، وما وكزه غير بشّار فانحدر فلما بلغ الى البطيحة سمع آذاناً في وقت ضحى النهار فقال : انظروا ماهذا الآذان ،فاذا بشّار يؤدّن سكران ، فقال له : يازنديق ، ياعاض بظر أمه عجبت أن يكون هذا غيرك أتلهو بالآذان في غير وقت صلاة وأنت سكران ثم دعا بابن نهيك فأمره بضربه بالسوط فضربه بين يديه على صدر الحراقة سبعين سوطاً أتلفه فيها فكان اذا أوجعه السوط يقول :حس! ، وهي كلمة تقولها العرب للشيء اذا أوجع ، فقـال له بعضهم : انظر الى زندقته يا أمير المؤمنين ، يقول : حس ، ولا يقول بسم الله ،فقال : ويلك أطعام هو فاسمي َ الله عليه ، فقال له الآخر :أفلا قلت : الحمد الله ، قال : أو نعمة هي حتى أحمد الله عليها ،فلما ضربه سبعين سوطاً بان الموت فيه فأُلقي في سفينة حتى مات ثم رمي به في البطيحة فجاء بعض أهله فحملوه الى البصرة فدفن بها .

---

(١) الجزء ٣ الصفحة ٦٧ .

والخبر الثاني قريب من هذا .

ولما ضرب بشار بالسياط وطرح في السفينة قال : ليت أعين أبي الشمقمق رأتني حين يقول :

ان بشار بن برد تيس أعمى في سفينة

ولما أمر المهدي عبدالجبار صاحب الزنادقة فضرب بشاراً فما بقي بالبصرة شريف إلا بعث اليه بالفرش والكسوة والهدايا وكانت وفاته وقد ناهز ستين سنة .

ولما مات ألقيت جثته بالبطيحة في موضع يعرف بالخرارة فحمله الماء فأخرجه إلى دجلة بالبصرة فأخذ فأتى به أهله فدفنوه وأخرجت جنازته فما تبعها أحد الا أمة سوداء سندية عجماء ما تفصح رآها راوي هذا الخبر خلف جنازته تصيح : واسيداه ، واسيداه .

❀❀❀

وهكذا كان كبار الشعراء عرضة لنقمة الخلفاء ، وكما لم ينج بشار من الخلفاء فكذلك لم ينج أبو العتاهية من تعذيب الأمراء فقد نسخ أبو الفرج من بعض الكتب الخبر الآتي(١) :

مرّ القاسم بن الرشيد في موكب عظيم وكان من أتيه الناس وأبو العتاهية جالس مع قوم على ظهر الطريق فقام أبو العتاهية حين رآه أعظاماً له فلم يزل قائماً حتى جاز فأجازه ولم يلتفت إليه فقال أبو العتاهية :

يتيه ابن آدم من جهله كأنّ رحا الموت لاتطحنه

فسمع بعض من في موكبه ذلك فأخبر به القاسم فبعث الى أبي العتاهية وضربه مائة مِقْرَعة . وقال له : يا ابن الفاعلة ، أتعرّض بي في مثل ذلك الموضع وحبسه في داره فدسّ أبو العتاهية إلى زبيدة بنت جعفر وكانت توجه له هذه الابيات :

---

(١) الجزء ٣ الصفحة ١٥٣

حتى متى ذو التيـــه في تيهه | أصلحه الله وعافاه
يتيه أهل التيه من جهلهم | وهم يموتون وإن تاهوا
من طلب العزّ ليبقى به | فانّ عزّ المرء تقواه
لم يعتصم بالله مِنْ خلقه | من ليس يرجوه ويخشاه

وكتب اليها بحاله وضيق حبسه وكانت مائلة إليه فرّقت له وأخبرت الرشيد بأمره وكلمته فيه فأحضره وكساه ولم يرض عن القاسم حتى برّ أباالعتاهية وأدناه واعتذر إليه .

وإذا رقّ الرشيد لأبي العتاهية في هذا المقام فانه لم يرق له في مقام آخر .

لما مات موسى الهادي[١] قال الرشيد لأبي العتاهية :قل شعراً في الغزل ،فقال: لا أقول شعراً بعد موسى أبداً ، فحبسه وأمر إبراهيم الموصلي أن يغني ، فقال : لا أغني بعد موسى أبداً وكان محسناً إليهما فحبسه ، فلما شخص إلى الرقة حفر لهما حفرة واسعة وقطع بينهما بحائط ، وقال: كونا بهذا المكان لا تخرجا منه حتى تشعر أنت ويغني هذا ، فصبرا على ذلك برهة ، وكان الرشيد يشرب ذات يوم وجعفر ابن يحيى معه فغنت جارية صوتا فاستحسناه وطربا عليه طرباً شديداً وكان بيتاً واحداً ، فقال الرشيد : ما كان أحوجه إلى بيت ثان ليطول الغناء فيه فيستمتع مدة طويلة به ، فقال له جعفر: قد أصبته ، قال : من أين ، قال : تبعث إلى أبي العتاهية فيلحقه به لقدرته على الشعر وسرعته ، قال : هو أنكد من ذلك لا يجيبنا وهو محبوس ونحن في نعيم وطرب ، قال : بلى ، فاكتب إليه حتى تعلم صحة ماقلت لك ، فكتب إليه بالقصة وقال: ألحق لنا بالبيت بيتاً ثانياً، فكتب إليه أبو العتاهية :

شغل المسكين عن تلك المحن | فارق الروح وأخلى من بدن
ولقد كلفت أمراً عجبـــاً | أسأل التفريج من بيت الحزن

---

(١) الجزء ٣ الصفحة ١٥٧

فلما وصلت قال الرشيد : قد عرّفتك أنه لا يفعل ، قال : فتخرجه حتى يفعل قال : لا ، حتى يشعر ، فقد حلفت ، فأقام أياما لا يفعل ، وقال: ثم قال ابو العتاهية لابراهيم : إلى كم هذا تلاحّ الخلفاء هلمّ أقلْ شعراً وتغني فيه ، فقال أبو العتاهية :

بأبي من كان في قلبي له ... مرةً حبٌّ قليل فسرق
يا بني العباس فيـــكم ملك ... شُعَب الاحسان منه تفترق
إنما هرون خير كله ... مات كل الشر مذ يوم خُلِق

وغنى فيه إبراهيم فدعا بهما الرشيد فأنشده أبو العتاهية وغناه إبراهيم فأعطى كل واحد منهما مائة ألف درهم ومائة ثوب .

ولأبي العتاهية مع الرشيد أخبار كثيرة من هذا القبيل تبدأ بالنقم وتنتهي بالنعم. قال ابن أخت أبي خالد الحربي(١) قال لي الرشيد : احبس أبا العتاهية وضيّق عليه حتى يقول الشعر الرقيق في الغزل كما كان يقول ، فحبسه في بيت ، خمسة أشبار في مثلها فصاح : الموت ! أخرجوني فأنا أقول كل ماشئتم ، فقلت : قل ، فقال : حتى أتنفس فأخرجته وأعطيته دواة وقرطاساً فقال أبياته التي أولها :

من لعبد أذله مولاه ... ماله شافع اليه سواه
يشتكي مابه اليه ويخشا ... ه ويرجوه مثل مايخشاه

قال : فدفعتها إلى مسرور الخادم فأوصلها ، وتقدم الرشيد إلى إبراهيم الموصلي فغنّى فيها وأمر باحضار أبي العتاهية فأُحضر فلما أُحضر قال له : أنشدني قولك:

ياعتْبُ سيدتي أمالك دين ... حتى متى قلبي لديك رهـين
وأنا الذلول لـكل ماحمّلتني ... وأنا الشقي البائس المسكين
وانا الغداة لـكل باكٍ مسعدٌ ... ولـكل صبٍّ صاحب وخدين

---

(١) انظر الجزء ٣ الصفحة ١٥٣ .

لا بأس إنّ لذلك عندي راحة للصب أن يلقى الحزين حزين
يا عُتْب أين أفر منك أميرتي وعليّ حصن من هواك حصين

فأمر له الرشيد بخمسين ألف درهم .

وفي بعض الأحيان كان القتل ناشئاً عن الزندقة .

كان الرشيد (١) قد أخذ صالح بن عبد القدّوس وعلي بن الخليل في الزندقة وكان علي بن الخليل إستأذن أبا نواس في الشعر فأنشده علي بن الخليل أبياتاً في مدح عترة الرشيد ومدح الرشيد نفسه فأطلقه الرشيد وقتل صالح بن عبدالقدوس واحتج عليه في أنه لا يقبل له توبة بقوله :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه

وقال : انما زعمت أن لاتترك الزندقة ولا تحول عنها أبداً .

❀❀❀

مرّ بنا ان دعبلاً لما هجا المأمون حرّض على قتله فلم يأذن المأمون في القتل ولكن دعبلاً اذا نجا من المأمون فانه لم ينج من إسحق بن العباس والي البصرة فقد هجا دعبل بن علي مالك بن طوق(٢) وبلغت الأبيات مالكاً فطلبه فهرب فأتى البصرة وعليها إسحق بن العباس بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب وكان بلغه هجاء دعبل وابن أبي عيينة نزاراً ، فاما ابن أبي عيينة فانه هرب منه فلم يظهر في البصرة طول أيامه وأما دعبل فانه حين دخل البصرة بعث فقبض عليه ودعا بالنطع والسيف ليضرب عنقه فخلف بالطلاق على جحدها وبكل يمين تبرئ من الدم انه لم يقلها وأن عدواً له قالها، إما أبو سعيد أو غيره ونسبها اليه ليغري بدمه وجعل يتضرع اليه ويقبّل الأرض ويبكي بين يديه فرّق له فقال : اما إذا عفيتك من القتل فلا بد من أن أشهرك ثم دعا بالعصا فضربه حتى سلح وأمر به فألقي على قفاه

---

(١) الجزء ١٣ الصفحة ١٤

(٢) الجزء ١٨ الصفحة ٦٠

وفتح فمه فردَّ سلحه فيه والمقارع تأخذ رجليه وهو يحلف أن لا يكفَّ عنه حتى يستوفيه ويبلعه أو يقتله فما رفعت عنه حتى بلع سلحه كله ثم خلاّه فهرب إلى الأهواز وبعث مالك بن طوق رجلاً حصيفاً مقداماً وأعطاه وأمره أن يغتاله كيف شاء وأعطاه على ذلك عشرة آلاف درهم فلم يزل يطلبه حتى وجده في قرية من نواحي السوس فاغتاله في وقت من الأوقات بعد صلاة العتمة فضرب ظهر قدمه بعكاز لها زُج مسموم فمات من غد ودفن بتلك القرية وقيل بل حمل الى السوس ودفن فيها .

والمأمون نفسه على الرغم من مسامحته التي مرّ الكلام عليها لم يخل من عنف في بعض الأحيان ،فقد كان عبد الله بن موسى الهادي معربداً[١] وكان قد أحفظ المأمون مما يعربد عليه اذا شرب معه فأمر بأن يحبس في منزله فلا يخرج منه وأقعد على بابه حرساً ثم تذمم من ذلك وأظهر له الرضا وصرف الحرس عن بابه ثم نادمه فعربد عليه أيضاً وكلمه بكلام أحفظه وكان عبد الله مغرماً بالصيد فأمر المأمون خادماً من خواص خدمه يقال له حسين فسمَّه في درّاج وهو بعُرْسى أباد فدعا عبد الله بالعشاء فأتاه حسين بذلك الدراج فأكله فلمّا أحس بالسم ركب في الليل وقال لأصحابه : هو آخر ماتروني وأكل معه من الدراج خادمان فأمّا أحدهما فمات من وقته وأما الآخر فبقي مدة ثم مات ومات عبد الله بعد أيام .

وقد نجد في بعض الأخبار التي نقلها أبو الفرج كلاماً للمأمون يدلنا على جملة من نظرات الخلفاء إلى الناس ، فقد قال المأمون مرّة لأبي مخارق المغني : ان السادة لاينبغي لعبيدها أن تؤاكلها ،فان هذه العبارة خصبة المعنى ، فكثيرمن أهل الآداب الرفيعة ومن هم في طبقتهم عبيد في عيون الخلفاء .

وآخر ماأذكره في هذا الباب ، باب التعذيب والاضطهادأخبار علي بن الجهم[٢]

---

(١) الجزء ٩ الحفحة ٩٦

(٢) الجزء ٩ الصفحة ١٠٠ × ١٠٢

فقد كان شاعراً فصيحاً مطبوعاً وخص بالمتوكل حتى صار من جلسائه ثم أبغضه لأنه كان كثير السعاية اليه بندمائه والذكر لهم بالقبيح عنده واذا خلا به عرّفه انهم يعيبونه ويثلبونه وينتقصونه فيكشف عن ذلك فلا يجد له حقيقة .

كان سبب حبس المتوكل علي بن الجهم أن جماعة من الجلساء سعوا به اليه وقالوا له انه يخمش الخدم ويغمزهم وانه كثير الطعن عليك والعيب لك والازراء على أخلاقك ولم يزالوا به يوغرون صدره حتى حبسه ثم أبلغوه عنه أنه هجاه فنفاه إلى خراسان وكتب بأن يصلب اذا وردها يوماً إلى الليل فلما وصل إلى الشاذياخ حبسه طاهر بن عبد الله بن طاهر بها ثم أخرج فصلب يوماً إلى الليل مجرداً ثم أنزل.

هذا آخر ماجمعته من أخبار الحرية والعبودية في كتاب الأغاني، لاشك في أن كلمة الحرية لم يكن لها في عصر أبي الفرج المعنى الواسع الذي نراه لها في عصرنا هذا ، فالحرّ في تلك الأحقاب كان ضد العبد والحرية كانت ضد العبودية .

العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الاشارة

الحر يلحى والعصا للعبد وليس للملحف مثل الرد

ولكن هل نتصور فضل أبي الفرج في رواية أخبار من هذا الشكل فقد نجد في أضعاف كتابه من مظاهر الحرية ما لانجده في أعرق الأمم فيها ، ماهي هذه المظاهر ؟ حرية الكلام في مقام الخلفاء والأمراء والعمال وتكاد تشبه هذه الحرية حرية الصحافة في عصرنا هذا ، حرية المرأة ، حرية القضاء وغير ذلك .

❀❀❀

اللهو والتبذير

أشرع في الكلام على أمور في كتاب الأغاني لم أتكلم على أمثالها في الماضي، ندخل في هذا الفصل وفي الفصول الآتية قصور الخلفاء من بني أميَّة وبني العباس فنشهد شيئاً من حياتهم الخاصة وما تشتمل عليه هـذه الحياة من لهو وإسراف، ولا يخطرن ببال أحد أن هـذا النوع من الدراسة خارج عن دراسة الأدب، فليس الأدب عبارة عن ألفاظ، وإنما الأدب ألفاظ وأفكار، فإذا لم نتعمق في دراسة هذه الأخبار التي فصَّلها أبو الفرج في أغانيه كانت دراستنا ناقصة، يعرض علينا صاحب الأغاني جملة من أخبار الدولتين لاتشبه مايعرضه رجال التاريخ، انا نجد في هذه الأخبار مادة أدبية نتمم بها ثقافتنا ونوضِّح بها تاريخنا، ولولاها لبقيت حياتنا في الماضي غامضة مظلمة، وقد رأينا حتى اليوم فضل أبي الفرج في إطلاعنا على الأمور التى اطلعنا عليها وما أظن بي حاجة إلى الكلام على هـذه الامور فقد فصَّلناها ثم لخَّصناها حتى أصبح الماضي بمنزلة صورة ناطقة.

اني لا أرمي في هذا الفصل ولا في الفصول كلها إلى إحصاء ماذكره صاحب الأغاني في كتابه فقد يفوتني شيء كثير من الكتاب لا أذكره وإنما الذي أرمي اليه إنما هو حصر طائفة من موضوعات الكتاب حتى يزداد شعورنا بعظمة هذا الكتاب.

كيف أبدأ في هذه الفصول وكيف أنتهي، هذا شيء لم أجعل له أصولا ابني عليها فقد يضيع الذهن في هذه الموضوعات التي تعرض لها صاحب الأغاني، وقد يتعب هذا الذهن في تنسيقها فيحتار حيرة لايعرف كيف الخروج منها، يحار في هذه الأمور التي يشهدها، أمور اللهو والتبذير، فلا يدري كيف يدخل ولا كيف يخرج، وعلى كل حال فلنحاول الخروج من هذه الحيرة.

نمر بأخبار صغيرة في الأغاني تدلنا على سيرة العمال السيئة فقد استعمل معاوية سعيد بن عثمان(١) على خراسان فلما عزله قدم المدينة بمال وسلاح وثلاثين عبداً من السند فأمرهم أن يبنوا له داراً فبينا هو جالس فيها ومعه ابن سيحان وابن زنية وخالد بن عقبة وأبو قطيفة اذ تآمروا بينهم فقتلوه .

فهذا الخبر الصغير الذي قد نمر عليه فلا نهتم به يدلنا على سيرة بعض العمال في القديم فاذا أردنا أن نبحث عن ذهاب الدولة في أيام بني أمية أو بني العباس فلا شك في أن لأمثال هذه الأخبار شأناً عظيماً في بحثنا .

على أن الذي تجردنا له في هذا الفصل إنما هو البحث عن اللهو والتبذير وما شاكلها فاذا كان لسيرة العمال السيئة أثر في ذهاب الدولة فان لهذا اللهو ولهذا التبذير أثراً أعظم .

انتشرت الدعارة والفسوق في الحجاز من أيام معاوية فقد كان معاوية يستعمل مروان بن الحكم على المدينة سنة(٢) ويستعمل سعيد بن العاص سنة فكانت ولاية مروان شديدة يهرب فيها أهل الدعارة والفسوق وولاية سعيد لينة يرجعون اليها .

وكان يزيد بن معاوية(٣) أول من سنّ الملاهي في الاسلام من الخلفاء وآوى المغنين وأظهر الفتك وشرب الخمر وكان ينادم عليها سرحون النصراني مولاه والأخطل وكان يأتيه من المغنين سائب خاثر فيقيم عنده فيخلع عليه ويصله فغناه يوماً فاعترته أريحية فرقص حتى سقط ثم قال اخلعوا عليه خلعاً يغيب فيها حتى لا يرى منه شيء فطرحت عليه الثياب والجباب والمطارف والخز حتى غاب فيها .

ومضى فتيان قريش في الفساد والتبذير من بعد يزيد فقد حدّث دحمان الأشقر فقال(٤) :

---

(١) الجزء ١ الصفحة ١٧
(٢) الجزء ١٦ الصفحة ٥٩
(٣) الجزء ١٦ الصفحة ٦٨
(٤) الجزء ٣ الصفحة ٨٤

كنت عاملاً لعبد الملك بن مروان بمكة فنمي اليه أن رجلاً أسود يقال له سعيد بن مسجح أفسد فتيان قريش وأنفقوا عليه أموالهم فكتب إلي أن اقبض ماله وسيّره ففعلت فتوجه ابن مسجح إلى الشأم فصحبه رجل له جوار مغنيات في طريقه فقال له : أين تريد ، فأخبره خبره وقال له : أريد الشأم قال له : فتكون معي ، قال : نعم ، فصحبه حتى بلغ دمشق فدخلا مسجدها فسألا : من أخص الناس بأمير المؤمنين ، فقالوا : هؤلاء النفر من قريش وبنو عمه ، فوقف ابن مسجح عليهم وسلّم ثم قال : يافتيان ! هل فيكم من يضيف رجلاً غريباً من أهل الحجاز فنظر بعضهم إلى بعض وكان عليهم موعد أن يذهبوا إلى قينة يقال لها برق الأفق فتثاقلوا به الا فتى منهم تذمم فقال : أنا أضيفك وقال لأصحابه : انطلقوا أنتم وأنا أذهب مع ضيفي فقالوا : لا ، بل تجيء أنت وضيفك فذهبوا جميعاً إلى بيت القينة فلما أتو بالغداء قال لهم سعيد : اني رجل أسود ولعلّ فيكم من يقذرني فأنا أجلس وآكل ناحية وقام فاستحيوا منه وبعثوا اليه بما أكل فلما صاروا إلى الشراب قال لهم مثل ذلك ففعلوا به وأخرجوا جاريتين فجلسا على سرير قد وضع لها ، فغنتا إلى العشاء ثم دخلتا وخرجت جارية حسنة الوجه والهيئة وهما معها فجلست على السرير وجلستا أسفل منها عن يمين السرير وشماله ، قال ابن مسجح فتمثلت هذا البيت :

فقلت أشمس أم مصابيح بيعة بدت لك خلف السجف أم أنت حالم

فغضبت الجارية وقالت : أيضرب بي هذا الأسود الأمثال فنظروا اليّ نظراً منكراً ولم يزالوا يسكّنونها ثم غنّت صوتاً فقال ابن مسجح : أحسنت والله ، فغضب مولاها وقال : أمثل هذا الأسود يقدّم عليّ جاريتي فقال لي الرجل الذي أنزلني عنده : قم فانصرف الى منزلي فقلت ثقلت على القوم فذهبت أقوم فتذمم القوم وقالوا لي بل أقم وأحسن أدبك فأقمت وغنّت ، فقلت أخطأت والله يازانية وأسأت ثم اندفعت فغنيت الصوت فوثبت الجارية فقالت لمولاها : هذا والله أبو عثمان سعيد ابن مسجح فقلت اني والله أنا هو لاأقيم عندكم فوثب القرشيون فقال هذا : يكون

عندي وقال هذا: بل عندي ، فقلت والله لا أقيم الا عند سيدكم يعني الرجل الذي أنزله منهم ثم سألوه عما أقدمه فأخبرهم الخبر فقال له صاحبه اني أسمر الليلة مع أمير المؤمنين فهل تحسن أن تحدو ، قال : لا ولكني أستعمل حداءه،قال فان منزلي بحذاء منزل أمير المؤمنين فان وافقت منه طيب النفس أرسلت اليك ومضى إلى عبد الملك فلما رآه طيب النفس أرسل إلى ابن مسجح وأخرج رأسه من وراء شرف القصر ثم حدا .

فقال عبد الملك للقرشي : من هذا ؟ قال: رجل حجازي قدم عليّ ،قال أحضره فأحضره له وقال له : أحدُ مُجِداً ثم قال له : هل تغني غناء الركبان قال : نعم ، قال غنِّه فتغنى ، فقال له فهل تغني الغناء المتقن قال : نعم ، قال غنه ، فتغنى ، فاهتز عبد الملك طرباً ثم قال له : أقسم أن لك في القوم لاسماً كثيراً ، من أنت ويلك ، قال له : أنا المظلوم المقبوض ماله المسير عن وطنه ، سعيد بن مسجح قبض مالي عامل الحجاز ونفاني فتبسم عبد الملك فقال له : قد وضح عذر فتيان قريش في أن ينفقوا عليك أموالهم ، وأمَّنه ووصله وكتب إلى عامله برد ماله عليه وأن لا يعرض له بسوء .

❀❀❀

من هذا الخبر يتبين لنا أن فتيان قريش في الحجاز لم ينصرفوا عن اللهو في أيام عبد الملك بن مروان وأنفقوا الأموال في هذه السبيل حتى خاف الأمر عبدالملك وكتب إلى عامله أن يقبض مال بن مسجح ويسيِّره اليه.

ولم يقصِّر فتيان قريش وبنو عم أمير المؤمنين في هـذا اللهو في دمشق نفسها ولماذا لانقول : ان عبد الملك بن مروان نفسه عمل فيه الغناء عمله وقد سمع ضروبه وأنواعه فعذر فتيان قريش في إنفاق الأموال على ابن مسجح وعفا عنه بعـد أن وصله وأمَّنه .

في خبر من أخبار الأغاني أن عبد الملك بن مروان(١) صنع طعاماً فأكثر

---

(١) الجزء ٧ الصفحة ٥٠

وأطاب ودعا اليه الناس فأكلوا فقال بعضهم : ما أطيب هـذا الطعام ! ماترى أن أحداً رأى أكثر منه ولا أكل أطيب منه ، فقال أعرابي من ناحية القوم : أمـا أكثر فلا ، وأما أطيب فقد والله أكلت أطيب منه وطفقوا يضحكون من قوله فأشار اليه عبد الملك فأدني منه فقال : ما أنت بمحق فيما تقول الا أن تخبرني بما يبين به صدقك فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، ثم قص عليه الأعرابي قصة هذا الطعام فمن شاء فليقرأها في موضعها لأن الذي يهمنا من الخبر قول أبي الفرج : صنع عبد الملك بن مروان طعاماً .

ولا بأس قبل التعليق على هذا الخبر بذكر الخبر الآتي(١) :

نصب عبد الملك بن مروان الموائد يطعم الناس فجلس رجل من أهل العراق على بعض تلك الموائد فنظر اليه خادم لعبد الملك فأنكره فقال له : أعراقي أنت ، قال : نعم ، فقال : أنت جاسوس ، قال : لا ، قال : بلى ، قال : ويحك ، دعني أتهنأ بزاد أمير المؤمنين ولا تنغصني به ، ثم ان عبد الملك وقف على تلك المائدة فقـال : من القائل :

اذا الأرطى توسَّد أبرديه خدود جوازئ بالرمل عين

وما معناه ، ومن أجاب فيه أجزناه ، والخادم يسمع ، فقال العراقي للخادم : أتحب أن أشرح لك قائله ، وفيم قاله ، قال : نعم ، قال : يقوله عدي بن زيد في صفة البطيخ الرمسي ، فقال ذلك الخادم ، فضحك عبد الملك حتى سقط ، فقال له الخادم أخطأت أم أصبت ، فقال : بل أخطأت ، فقال يا أمير المؤمنين ، هذا العراقي فعـل الله به وفعل لقنّنيه فقال : أي الرجال هو فأراه اياه . فعـاد اليه عبد الملك وقال : أنت لقنته هذا ، قال : نعم ، أفخطأ لقنته أم صواباً ، قال بل خطأ ، قال : ولم ، قال :

---

(١) الجزء ٨ الصفحة ١٠٣

لأنني كنت متحرما بمائدتك فقال لي كيت وكيت فأردت أن أكفّه عني وأضحكك قال: فكيف الصواب، قال: يقوله الشمّاخ بن ضرار الغطفاني في صفة البقر الوحشية فقد جزئت بالرُطب عن الماء، قال: صدقت وأجازه، ثم قال له: حاجتك، قال: تنحي هذا عن بابك فانه يشينه.

❀❀❀

رويت هذين الخبرين قبل أن أشرع في الكلام على اللهو والتبذير لأني رأيت فيهما حكمة، جاء في الخبر الأول: صنع عبد الملك بن مروان طعاماً، وجاء في الخبر الثاني: نصب عبد الملك بن مروان الموائد يطعم الناس..

يقولون اليوم في لغة هذا العصر: أقام فلان حفلة أو مأدبة أو ماشابه ذلك ولكن تعبير صاحب الأغاني أقرب من الحقيقة فانه قال: صنع طعاماً فكأنما الغاية إطعام الناس ليس غير، لا أريد الدخول في هذا المقام في الطور الذي دخل فيه هذا التعبير، فسواء أقالوا صنع فلان طعاماً أم قالوا أقام فلان حفلة انه لا يهمنا ذلك ولكن الذي يهمنا انما هو التفكير في غاية هذا الطعام، فهل كانوا يصنعون الطعام في القديم ويدعون الناس اليه صرفاً لألسنة الناس عن أن تنبسط فيهم وإلهاءً لهم عن التفكير في إسرافهم وتبذيرهم، فلا شك في أن غاية الناس في حضور الطعام انما هو الأكل وحده وما أصدق العراقي الذي قال للخادم: دعني أتهنأ بزاد أمير المؤمنين ولا تنغصني به فكأنهم كانوا يصنعون الطعام من حين إلى آخر ويدعون الناس اليه حتى يسكتوا عما تقع عليه أعينهم من مظاهر التبذير.

سنشهد من هذا التبذير أشياء كثيرة ولسنا ندري هل كانت طبقات الشعب كلها في بحبوحة من العيش، أني أشك في ذلك، لقد كانت الأحداث تحدث والفتن تشتد فهل بحث المؤرخون عن تلك الأحداث والفتن، لاريب في أن اكثرها لاتظهر عواملها الا في جوع الناس وضيقهم، فاذا لم يتغلغل المؤرخون الى طبقات الشعب ويحثوا في هذه الطبقات عن أسباب أكثر الفتن والأحداث فلا ريب في أن

أسبابها تظل غامضة لانهتدي اليها اذ لايصدّق الانسان أن يغرق الخلفاء والأمراء والعمال في النعيم وأن يقاسي الناس شظف العيش ويسكتوا عن ذلك .

❀❀❀

من خلفاء بني أمية الذين لم يشتهروا في خلافتهم بالتبذير عمر بن عبد العزيز ، لما استُخلِف جاءه الشعراء(١) فجعلوا لايصلون اليه فجاء عون بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود وعليه عمامة قد أرخى طرفها فصاح به جرير وقال :

يا أيها القارئ المرخي عمامته　　هذا زمانك اني قد مضى زمني

أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه　　أني لدى الباب كالمصفود في قرن

قال فدخل على عمر فاستأذن له فأدخله عليه وقد كان هيأ له شعراً فلما دخل عليه غيّره وقال أبياتاً من جملتها :

كم بالمواسم من شعثاء أرملة　　ومن يتيم ضعيف الصوت والبصر

يدعوك دعوة ملهوف كأنّ به　　خَبْلاً من الجن أو مسّاً من البشر

ممن يعدّك تكفي فقد والده　　كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطر

قال فبكى عمر ثم قال : يا ابن الخطفى ! أمن أبناء المهاجرين أنت فنعرفَ لك حقهم أم من أبناء الأنصار فيجب لك مايجب لهم أم من فقراء المسلمين فنأمرَ صاحب صدقات قومك فيصلك بمثل مايصل به قومك ، فقال : يا أمير المؤمنين ما أنا بواحد من هؤلاء وأني لمن أكثر قومي مالاً وأحسنهم حالاً ولكني أسألك ماعوّدتنيه الخلفاء ، أربعة آلاف درهم وما يتبعها من كُسْوة وحُملان فقال له عمر : كل امرئ يلقى فعله وأما أنا فما أرى لك في مال الله حقاً ولكن انتظر يخرج عطائي فأنظر ما يكفي عيالي سنة منه فأدخره لهم ثم إن فضل فضلٌ صرفناه اليك ، فقال جرير لا ، بل يوفر أمير المؤمنين ويحمد وأخرج راضياً ، قال : فذلك أحب إليّ ، فخرج

---

(١) الجزء ٧ الصفحة ٥٤

فلما ولى قال عمر : ان شر هذا ليتقى ، ردوه الي فردوه فقال : إن عندي أربعين ديناراً وخلعتين اذا غسلت إحداهما لبست الأخرى وأنا مقاسمك ذلك على أن الله جل وعز يعلم أن عمر أحوج إلى ذلك منك فقال له : قد وفرك الله يا أمير المؤمنين وأنا والله راض قال : أما وقد حلفت فان ماوفرته علي ولم تضيق به معيشتنا آثر في نفسي من المدح فامض مصاحبا ، فخرج فقال له أصحابه وفيهم الفرزدق : ما صنع بك أمير المؤمنين يا أبا حرزة قال : خرجت من عند رجل يقرب الفقراء ويباعد الشعراء وأنا مع ذلك راض ثم وضع رجله في غرز راحلته وأتى قومه ، فقالوا له : ماصنع بك أمير المؤمنين أبا حرزة ، فقال :

تركت لكم بالشام حبل جماعة	أمين القوى مستحصد العقد باقيا
وجدت رقى الشيطان لا تستفزه	وقد كان شيطاني من الجن راقيا

وقال اليزيدي في خبره : فقال له جرير : يا أمير المؤمنين فاني ابن سبيل ، قال : لك مالأبناء السبيل ، زادك ونفقة تبلغك وتبدل راحلتك ان لم تحملك فألح عليه فقالت له بنو أمية : يا أبا حرزة مهلاً عن أمير المؤمنين ونحن نرضيك من أموالنا عنه فخرج وجمعت له بنو أمية مالاً عظيماً فما خرج من عند خليفة بأكثر مما خرج من عند عمر.

وقد عقد أبو الفرج فصلاً لعمر بن عبد العزيز[1] ذكر فيه أنه لما ولي بدأ بلحمته وأهل بيته فأخذ ما كان في أيديهم وسمى أعمالهم المظالم ففزعت بنو أمية إلى فاطمة بنت مروان عمته فلم تستطع أن تصنع شيئاً ورجعت اليهم وقالت لهم : ذوقوا مغبة أمركم في تزويجكم آل عمر بن الخطاب ، لأن أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر ابن الخطاب .

وجاء في خبر آخر أن كثيّراً والأحوص ونصيباً[2] دخلوا على عمر بن عبد العزيز فسلموا عليه بالخلافة فرد عليهم فقال له كثيّر : ياأمير المؤمنين طال الثواء وقلّت

---

(١) الجزء ٨ الصفحة ١٤٦
(٢) الجزء ٨ الصفحة ١٤٧

الفائدة وتحدثت بجفائك إيانا وفود العرب فقال : يا كثيِّر ! أما سمعت الى قول الله عز وجل في كتابه : إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم . أفمن هؤلاء أنت ،فقال له كثيِّر وهو ضاحك : أنا ابن سبيل ومُنقطع به قال : أولست ضيف أبي سعيد ، يعني مسلمة بن عبد الملك ، قال : بلى ، قال : ما أحسب من كان ضيف أبي سعيد ابن سبيل ولا منقطعاً به ، ثم استأذنه كثيِّر في الانشاد فقال : قل ولا تقل الا حقاً ،فان الله سائلك فقال كثيِّر أبياتا فقال له : يا كثيِّر ان الله سائلك عن كل ماقلت ثم تقدم اليه الأحوص فاستأذنه فقال: قل ولا تقل الا حقاً فان الله سائلك فأنشده أبياتاً فقال له عمر : ياأحوص ان الله سائلك عن كل ماقلت ثم تقدم اليه نصيب فاستأذن في الانشاد فأبى أن يأذن له وغضب غضباً شديداً وأمره باللحاق بدابق وأمر لكثيِّر والأحوص، لكل واحد بمائة وخمسين درهماً.

وقال الرياشي في خبره ، فقال لنا : ما عندي ما أعطيكم فانتظروا حتى يخرج عطائي فأواسيكم منه فانتظرناه حتى خرج فأمر لي والأحوص بثلثمائة درهم وأمر لنصيب بمائة وخمسين درهماً فما رأيت أعظم بركة من الثلاث المائة التي أعطاني ، ابتعت بها وصيفة فعلمتها الغناء فبعتها بألف دينار .

قدمت أخبار عمر بن عبد العزيز قبل الخوض في أخبار التبذير حتى نستطيع المقابلة بين سيرته وبين سيرة الخلفاء الذين بدّدوا الأموال فلم يمش كل خلفاء بني أمية على آثار عمر بن عبد العزيز ولكنهم تفاوتوا في التبذير فاذا رجعنا إلى بعض أخبار عبد الملك بن مروان وجدناه في طائفة من أحواله على شيء من الترف .

استأذن محمد بن الحجاج عبد الملك بن مروان لجرير وسأله أن يسمع منه[1] وقبَّل يده ورجله فأذن له فدخل فاستأذن في الانشاد فأمسك عبد الملك فقال له محمد : أنشد ويحك، فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

---

(١) الجزء ٧ الصفحة ٦٢

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فتبسم عبد الملك وقال : كذلك نحن ومازلنا كذلك ثم اعتمد على ابن الزبير فقال أبياتاً حتى أتى على ذكر زوجته فيها فقال :

تعزّت أم حرزة ثم قالت رأيت الموردين ذوي لقاح

تعلّل وهي ساغبة بنيها بأنفاس من الشبم القراح

فقال عبد الملك : هل تُرويها مائة لِقْحة فقال : ان لم تروها كذلك فلاأرواها الله ، فهل اليها جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين من سبيل، فأمر له بمائة لِقْحة وثمانية من الرعاء وكانت بين يديه جامات من ذهب فقال له جرير : ياأمير المؤمنين تأمرلي بواحدة منهن تكون مِحْلباً فضحك ودحس اليه واحدةً منهن بالقضيب وقال : خذها لانفعتك ، فأخذها وقال : بلى والله يا أمير المؤمنين لينفعني كل ما منحتنيه وخرج من عنده ...

لقد بدأنا في هذا الخبر بالشعور بالترف فان الجامات التي كانت بين يدي عبد الملك تجعلنا نحس بهذا الترف واذا قابلنا بين عطاء عمر بن عبدالعزيز وبين عطاء عبدالملك ابن مروان أدركنا آوائل التبذير في دولة بني أمية ولكن هذا كله لاشيء بالنسبة إلى أخبار يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد في هذا المعنى .

وهذه طائفة من أخبار يزيد بن عبد الملك .

كانت حبّابة تسمى العاليه[1] وكانت لرجل من الموالي بالمدينة فقدم يزيد بن عبد الملك في خلافة سليمان فتزوج سَعْدة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان على عشرين ألف دينار وربحة بنت محمد بن علي بن عبيد الله بن جعفر على مثل ذلك واشترى العالية بألف دينار فبلغ ذلك سليمان فقال : لأحجرن عليه فبلغ يزيد قول سليمان فاستقال مولى حبّابة ثم اشتراها بعد ذلك رجل من أهل افريقية فلما ولي يزيد اشترتها سعدة امرأته وعلمت أنه لابد طالبها ومشتريها فلما حصلت عندها قالت له :

---

(١) الجزء ١٣ الصفحة ١٤٩

هل بقي عليك من الدنيا شيء لم تنله فقال : نعم ، العالية ، فقالت : هـذه هي وهي لك فسمّاها حبّابة وعظم قدر سعدة لها عنده ويقال انها أخذت عليها قبل أن تهبها له أن توطىء لابنها عنده في ولاية العهد وتحضرها بما تحب ، وقيل ان أم الحجاج أم الوليد بن يزيد هي التي ابتاعتها له وأخذت عليها ذلك فوفقت بذلك .

فاذا كان المهر وحده عشرين ألف دينار فمن يدري كيف كانت مقادير النفقات حتى استعظم سليمان هذا كله فقال : لأحجرنّ عليه .

واذا أردنا أن نعرف مبلغ تلك المغنيات من قلوب بعض الأمراء والخلفاء فلنسمع ماقاله يزيد بن عبد الملك في اثنتين منهن .

قال يزيد بن عبد الملك[1] : ما تقر عيني بما أوتيت من الخلافة حتى اشتري سلاّمة جارية مصعب بن سهيل الزهري وحبّابة جارية لاحق المكية فأرسل فاشتريتا له فلما اجتمعتا عنده قال : أنا الآن كما قال القائل :

فألقت عصاها واستقرت بها النوى كما قرّ عينا بالاياب المسافر

وهكذا نرى أنه بلغ من اهتمامهم بالغناء والمغنيات أنهم جعلوا المغنيات والخلافة في درجة واحدة .

وقد كان لهذه المغنيات الأثر العظيم في سياسة الخلفاء فكنّ يولّين من شئن ويعزلن من شئن ، فقد غلبت حبّابة على يزيد[2] وتبنى بها عمر بن هبيرة فعلت منزلته حتى كان يدخل على يزيد في أي وقت شاء وحسد ناس من بني أمية مسلمة بن عبد الملك على ولايته وقدحوا فيه عند يزيد وقالوا إن مسلمة ان اقتطع الخراج لم يحسن يا أمير المؤمنين أن يعيشه وأن يستكشف عن شيء لسنه وخفته وقد علمت أن أمير المؤمنين لم يدخل أحداً من أهل بيته في الخراج فوقر ذلك في قلب يزيد وعزم على عزله وعمل ابن هبيرة في ولاية العراق من قبل حبّابة فعملت له في ذلك وكان بين ابن هبيرة وبين القعقاع بن خالد عداوة وكانا يتنازعان ويتحاسدان فقيل للقعقاع

(١) الجزء ١٣ الصفحة ١٤٨
(٢) الجزء ١٣ الصفحة ١٥٠

لقد نزل ابن هبيرة من أمير المؤمنين منزلة ، انه لصاحب العراق غداً فقال : ومن يطيق ابن هبيرة ! حبّابة بالليل ، وهداياه بالنهار ، مع أنه وإن بلغ فانه رجل من بني سُكيْن . فلم تزل حبّابة تعمل له في العراق حتى وليها .

وكره منزلة حبّابة من يزيد أخوه مسلمة بن عبد الملك فأقبل عليه يلومه(١) في الالحاح على الغناء والشرب وقال له : إنك وليت بعقب عمر بن عبد العزيز وعدله وقد تشاغلت بهذه الأمة عن النظر في الأمور والوفودُ ببابك وأصحاب الظُلامات يصيحون وأنت غافل عنهم ، فقال : صدقت وأعتبه وهمّ بترك الشراب ولم يدخل على حبّابة أياما فدسّت حبّابة إلى الأحوص أن يقول أبياتاً في ذلك وقالت له إن رددته عن رأيه فلك ألف دينار فدخل الأحوص إلى يزيد فاستأذن له فقال الأحوص :

ألا لاتلمه اليوم أن يتبلدا	فقد غُلب المحزون أن يتجلدا
بكيت الصبا جهدي فمن شاء لامني	ومن شاء آسى في البكاء وأسعدا
وإني وإن فندت في طلب الغنى	لأعلم أني لست في الحب أوحدا
إذا أنت لم تعشق ولم تدر ماالهوى	فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا
فما العيش إلا ماتلذ وتشتهي	وإن لام فيه ذو الشنان وفنّدا

ومكث جُمْعةً لايرى حبّابة ولا يدعو بها فلما كان يوم الجمعة قالت لبعض جواريها: إذا خرج أمير المؤمنين إلى الصلاة فأعلميني فلما أراد الخروج أعلمتها فتلقته والعود في يدها فغنت البيت الأول فغطى وجهه وقال : مَهْ ! لاتفعلي ثم غنّت : وما العيش إلا ماتلذ وتشتهي ، فعدل اليها وقال : صدقت والله فقبّح الله من لامني فيك ، ياغلام : مر مسلمة أن يصلي بالناس! وأقام معها يشرب وتغنيه وعاد إلى حبّابة .

وكيف يعمل كلام مسلمة في قلب أخيه يزيد بن عبد الملك وقد بلغت منه حبّابة المبالغ .

---

(١) الجزء ١٣ الصفحة ١٥٠

كانت إذا غنّت وطرب يزيد قال لها : أطير ، فتقول له : فالى من تدع الناس فيقول : اليك [1].

وإذا أردنا أن نعرف مقدار تهاونه بفصوص من ياقوت وزبرجد فلنقرأ الخبر الآتي :[2]

كان البيذق الأنصاري القارئ يعرف حبّابة ويدخل عليها بالحجاز فلما صارت إلى يزيد بن عبد الملك وارتفع أمرها عنده خرج اليها يتعرّض لمعروفها ويستميحها فذكرته ليزيد وأخبرته بحسن صوته،قال : فدعاني يزيد ليلةً فدخلت عليه وهو على فرُش مشرفة قد ذهب فيها إلى قريب من ثدييه وإذا حبّابة على فرش أخر مرتفعة وهي دونه فسلّمت فرد السلام وقالت:ياأمير المؤمنين!،هذاأبي،وأشارت الي ّ بالجلوس فجلست وقالت لي حبّابة:إقرأ ياأبت، فقرأت فنظرتُ إلى دموعه تنحدر ثم قالت: إيه ياأبت !حدث أمير المؤمنين وأشارت إليّ أن غنّه ، فاندفعت في صوت ابن سريج :

من لصب مصيد ّ هائم القلب مُقْصَد!

فطرب والله يزيد فحذفني بمدهُن فيه فصوص من ياقوت وزبرجد فضرب صدري فأشارت إليّ حبّابة ان خذه فاخذته فأدخلته كمي فقال : ياحبّابة ألا ترين ما صنع بنا أبوك أخذ مُدهُننا فأدخله في كمه فقالت : ياأمير المؤمنين ما أحوجه والله اليه ، ثم خرجتُ من عنده فأمر لي بمائة دينار .

ولقد كان يزيد بن عبد الملك استاذاً في معرفة محاسن الغناء وعيوبه فقد قال يوماً لمعبد: [1] يا أبا عبّاد ! اني أريد أن أخبرك عن نفسي وعنك ، فان قلتُ فيه خلاف ما تعلم فلا تحاش أن ترده عليّ فقد أذنت لك ، قال : ياأمير المؤمنين لقد وضعك ربك بموضع لا يعصيك الا ضّال ولا يردّ عليك الا مخطيء قال : إن

---

(١) الجزء ١٣ الصفحة ١٥٦

(٢) الجزء ١٣ الصفحة ١٥٦

(٣) الجزء ١ الصفحة ٣١

الذي أجده في غنائك لا أجده في غناء ابن سريج ، أجد في غنائك متانة وفي غنائه انخناثاً ولينا قال معبد : والذي أكرم أمير المؤمنين بخلافته وارتضاه لعباده وجعله أميناً على أمّة نبيِّه ما عدا صفتي وصفة ابن سريج ، وكذا يقول ابن سريج وأقول ولكن إن رأى أمير المؤمنين أن يعلمني هل وضعني ذاك عنده فليفعل،قال: لا والله ولكني اوءثر الطرب على كل شيء .

هذه شهادة يزيد نفسه ، يؤثر الطرب على كل شيء وخاتمة هذا الخبر ان معبداً صنع لحناً وغنّى فاستخف يزيد الطرب وجعل يدور في الدار كما يدور الصبيان وتدور الجواري معه حتى خرّ مغشياً عليه ووقعن فوقه ما يعقل ولا يعقلن فابتدره الخدم فأقاموا من كان على ظهره من جواريه وحملوه وقد جاءت نفسه أو كادت .

أنشدت حبّابة يوما يزيد بن عبد الملك:(١)

لعمرك انني لأحبُّ سلْعاً　　　　لرؤيتها ومن بجنوب سلع

ثم تنفست تنفساً شديداً فقال لها : ما لك ، أنت في ذمة أبي لأنقلنّه اليك حجراً حجراً ،قالت : وما أصنع به ، ليس ايّاه أردت ، إنما أردت صاحبه ، وربما قالت ساكنه .

الى هذا القدر من الاهتمام بالمغنيات صارت حالة بعض الخلفاء واذا اردنا ان نعرف خاتمة خلافة يزيد بن عبد الملك فلنقرأ الخبر الآتي :(٢)

نزل يزيد بن عبد الملك ببيت رأس بالشام ومعه حبّابة فقال:زعموا أنه لا تصفو لأحد عيشة يوماً الى الليل الا يكدّرها شيء عليه وسأجرب ذلك ثم قال لمن معه: إذا كان غد فلا تخبروني بشيء ولا تأتوني بكتاب وخلا هو وحبّابة فأتيا بما يأكلان فأكلت رمانة فشرقت بحبة منها فماتت فأقام لا يدفنها ثلاثاً حتى تغيّرت وأنتنت وهو يشمها ويرشفها فعاتبه على ذلك ذوو قرابته وصديقه وعابوا عليه ما يصنع وقالوا

---

(١) الجزء ١٣ الصفحة ١٥٥

(٢) الجزء ١٣ الصفحة ١٥٧

قد صارت جيفة بين يديك حتى أذن لهم في غسلها ودفنها وأمر فأخرجت في نطع وخرج معها لا يتكلم حتى جلس على قبرها فلما دفنت قال : أصبحت والله كما قال كثيّر :

فان يسل عنك القلب أو يدع الصبا   فباليأس نسلو عنك لا بالتجلد

وكل خليل رآني فهو قائل   من أجلك هذا هامة اليوم أو غد

فما أقام الا خمس عشرة ليلة حتى دفن الى جنبها .

وقد روى المدائني (١) انه اشتاق اليها بعد ثلاثة أيام من دفنه إياها فقال لا بد من أن تنبش ،فنبشت و كشف له عن وجهها وقد تغير تغيراً قبيحاً فقيل له: يا أمير المؤمنين !اتق الله ،ألا ترى كيف قد صارت ، فقال :ما رأيتها قط أحسن منها اليوم، أخرجوها فجاءه مسلمة ووجوه أهله فلم يزالوا به حتى أزالوه عن ذلك ودفنوها وانصرف فكمد كمداً شديداً حتى مات فدفن إلى جنبها .

وقد بقيت أخبار لم أذكرها تصف جزع يزيد على حبّابة أو تصف ارادته الصلاة عليها وقول مسلمة له في ذلك، والمهم في هذا كله اهتمام أبي الفرج بأشكال هذه الأخبار ،فانه لا يزال بها يجمعها من هنا ومن هنا حتى يصور غلبة المغنيات على بعض الخلفاء وتبذيرهم في سبيلهن وفي غير سبيل واشتغالهم بهن وإنصرافهم عن أمور الخلافة ، فيخرج القارئ من قراءة هذه الا خبار وصورة الماضي ماثلة لعينيه .

*

* *

ننتقل الآن إلى أخبار الوليد بن يزيد .

كان يشرب بطاسٍ من ذهب وكان يُرى في بعض الأيام وفي يده خاتم ياقوت

---

(١) الجزء ١١ الصفحة ١٥٨

أحمر يكاد البيت يلتمع من شعاعه ولكن هذه الأمور لاتكاد تكون شيئاً إذا قيست بالأمور الآتية،قال حمادالراوية(١) :

دعاني الوليد يوما من الأيام في السحر والقمر طالع وعنده جماعة من ندمائه وقد اصطبح ، فقال : أنشدني في النسيب ، فأنشدته أشعاراً كثيرة فلم يهش لشيء منها حتى أنشدته قول عدي بن زيد :

إصْبَح القوم قهوةً　　في الأباريق تحتذى
من كميت مدامـــة　　حبّذا تلك حبّـــذا

فطرب ثم رفع رأسه الى خادم وكان قائماً كأنه الشمس فأومأ اليـه فكشف ستراً خلف ظهره فطلع منه أربعون وصيفاً ووصيفة كأنهم اللؤلؤ المنثور وفي أيديهم الأباريق والمناديل فقال : اسقوهم فما بقي أحد الا أسقي وأنا في خلال ذلك أنشده الشعر فما زال يشرب ويسقي الى طلوع الفجر ثم لم نخرج عن حضرته حتى حملنا الفرّاشون في البسط فألقونا في دار الضيافة فما أفقنا حتى طلعت الشمس، قال حماد: ثم أحضرني فخلع علي خلعاً من فاخر ثيابـه وأمر لي بعشرة آلآف درهم وحملني على فرس .

أظنّ أننّا بدأنا نتصور شكل حياتهم ولا بأس بالاستمرار في رواية أخبار من هذا الطرز حتى تزداد تصوراً لهذه العيشة التي عاشوها .

قال مصعب :سمعت رجلا يحدث أبي بالكوفة(٢) قال:أرسلتْ الى الوليد جفنة مملوءة قوارير فرعونية لم أر مثلها قط فلما أمسينا صببنا فيها الشراب في ليلة أربع عشرة حتى إذا استوى القمر على رؤسنا وصار في الجَفْنة قال الوليد: في أي منزلة القمر الليلة فقال بعضهم: في الحمل وقال بعضهم :في منزلة كذا و كذا من منازل القمر

---

(١) الجزء ٦ الصفحة ١٢٩
(٢) الجزء ٦ الصفحة ١٢٦

فقال بعض جلسائه: القمر في الجفنة، قال: قاتلك الله أصبت ما في نفسي اتشرب بن الهفنجة، فقال مصعب فسأل أبي عن الهفنجة فقال: شرب كانت الفرس تشرب به سبعة أسابيع فشرب تسعة وأربعين يوما.

هكذا كانت تمضي لياليهم.

قد يطول بعض الأخبار التي رواها صاحب الأغاني إلا أنها أخبار ناطقة تصور لنا التبذير في أبلغ صورة فما قولنا في رجل يشتري جارية بمائتي دينار ثم يبيعها بعشرة الآف دينار فكأن بيت مال المسلمين في تلك الأيام لا قيمة له، الرجل دحمان المغني والذي اشترى الجارية منه الوليد بن يزيد.[1]

وبلغ من عمل الغناء في الوليد بن يزيد ان معبداً لما مات رأى ابنه كثردم الوليد بن يزيد والغمر أخاه متجردين في قميصين ورداءين يمشيان بين سريره حتى أخرج من دار الوليد لأنه تولى أمره وأخرجه من داره الى موضع قبره [2].

وبلغ من اسرافه في سبيل الغناء أنه قال يوما [3] لقد اشتقت الى معبد فوجه البريد الى المدينة فأتي بمعبد وأمر الوليد ببركة وقد هيئت فملئت بالخمر والماء وأتي بمعبد فأمر به فأجلس والبركة بينها وبينها ستر قد أرخي فقال له: غنّني يامعبد:

لهفي على فتية ذلّ الزمان لهم   فما أصابهم إلا بما شاؤا

مازال يعدو عليهم ريب دهرهم   حتى تفانوا وريب الدهر عدّاء

أبكى فراقهم عيني وأرّقها   ان التفرق للأحباب بكّاء

فغناه إياه فرفع الوليد الستر ونزع ملاءة مطيبة كانت عليه وقذف نفسه في تلك البركة فنهل فيها نهلة ثم أتي بأثواب غيرها وتلقوه بالمجامر والطيب ثم قال غنني:

---

(١) الجزء ٥ الصفحة ١٣٥

(٢) الجزء ١ الصفحة ١٨

(٣) الجزء ١ الصفحة ٢٤

يا ربع مالك لا تجيب متيماً ‏ قد عاج نحوك زائراً ومسلما
جادتك كل سحابة هطالة ‏ حتى تُرى عن زهرة متبسما

فغناه فدعا له بخمسة عشر ألف دينار فصبَّها بين يديه ثم قال: إنصرف الى أهلك واكتم ما رأيت .

ولما أكثر الوليد بن يزيد التهتك(١) وانهمك في اللذات وشرب الخمر وبسط المكروه على ولد هشام والوليد وأفرط في أمره وغيِّه ملّ الناس أيامه وكرهوه وكان قد عقد لابنيه بعده ولم يكونا بلغا فمشى الناس بعضهم الى بعض في خلعه وكان أقواهم في ذلك يزيد الناقص بن الوليد بن عبد الملك بن مروان فمشى إلى أخيه العباس وكان أمرأ صدق ولم يكن في بني أمية مثله كان يتشبه بعمر بن عبد العزيز فشكا إليه ما يجري على الناس من الوليد فقال له : يا أخي ان الناس قد ملّوا بني مروان وان مشى بعضكم في أثر بعض أكلتم والله أجل لا بد أن يبلغه فانتظره ، فخرج من عنده ومشى الى غيره فبايعه جماعة من اليمانية الوجوه فعاد إلى أخيه ومعه مولى له وأعاد عليه القول وعرض له بأنه قد دعي إلى الخلافة فقال له : والله لولا أني لا آمنه عليك من تحامله لوجهت بك اليه مشدوداً فنشدتك الله ان لا تسعى في شيء من هذا فانصرف من عنده وجعل يدعو الناس إلى نفسه .

وجاء في خبر آخر أن العباس قال (٢) يا بني مروان أظن أن الله قد أذن في هلاكم ثم أنشد :

اني أعيذكم بالله من فتن ‏ مثل الجبال تسامى ثم تندفع
ان البرية قد ملت سياستكم ‏ فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمُنّ ذئاب الناس أنفسكم ‏ ان الذئاب إذا ما ألحموا رتعوا
لا تبقرُنّ بأيديكم بطونكم ‏ فثمّ لا فدية تغني ولا جذع

---

(١) الجزء ٦ الصفحة ١٣٢
(١) الجزء ٦ الصفحة ١٣٢

الصلاة والشرب

ثم كان من قتل الوليد ما كان .

وقد حدّثوا على نحو ما تقدمت الاشارة إليه في بعض الفصول أنه كان إذا حضرت الصلاة يطرح ثياباً كانت عليه من مطيبة ومصبغة ثم يتوضأ فيحسن الوضوء ويؤتى بثياب بيض نظاف من ثياب الخلافة فيصلي فيها أحسن صلاة بأحسن قراءة وأحسن سكوت وسكون وركوع وسجود فاذا فرغ عاد الى تلك الثياب التي كانت عليه قبل ذلك ثم يعود الى شربه ولهوه وقالوا أفهذه أفعال من لا يؤمن بالله ولما سمع المهدي هذا الكلام قال لصاحبه : صدقت بارك الله عليك يا ابن علاثة .(١)

❀❀❀

لسنا في مقام الدفاع عن الوليد بن يزيد أو في مقام الهجوم عليه وإنما جمعنا طائفة من أخبار اللهو والتبذير في زمن بني أمية بحسب ما رواها صاحب الأغاني ونسقناها تنسيقاً على قدر الامكان حتى نستخرج منها صورة من صور الخلافة الأموية لا شك في أن من خلفاء بني أمية من كثرت محاسنهم ولكن هذه المحاسن لم تفعل فعلها في تخليد دولتهم فقد غلبت عليها مساوىء فريق منهم ولئن عجزت محاسن المحسنين عن تخليد الدولة في أيامهم فلم تعجز مساوىء المسيئين عن التعجيل على هذه الدولة ولقد عرف أبو الفرج كيف يصور اللهو والتبذير في أيامهم فان قضاء بعض الخلفاء شطرا من الزمن في الرقص والشرب ثم ان تبذيرهم على الشكل الذي اطلعنا عليه ، ثم ان ترفهم وما كان يصحب هذا الترف من الشرب بطاسات من ذهب ومن الاقامة بين جامات من ذهب ومن الاستخفاف بفصوص من ياقوت وزبرجد ومن التختم بخواتم تكاد البيوت تلمع من أشعتها ، كل هذا لا يخلو من تعجيل على على ذهاب الدولة فضلاً عن الانقياد الى المغنيات وعن سلطان المغنيات في التولية

---

(١) الجزء ٦ الصفحة ١٣٦

والعزل ومن يدري كيف كانت حالة الناس في مثل هذا الترف واللهو والتبذير !

ولست أعلم عبارة تصور نتيجة هذه الأحوال أبلغ تصوير مثل العبارة التي ذكرها أبو الفرج على لسان العباس بن الوليد :

يا أخي ! ان الناس قد ملوّا بني مروان .

فقد لزمنا ونحن ندرس كتاب الأغاني أن نبحث عن أسباب هذا الملل وأظن أنا قد اهتدينا إلى بعض هذه الأسباب .

❀❀❀

هذا يسير من مظاهر اللهو والتبذير في أيام بني أمية ولا تهمنا هذه المظاهر على قدر ما يهمنا أسلوب أبي الفرج في التنبيه عليها ، وفي هذا المقام يبين لنا الفرق بين رجل التأريخ وبين رجل الفن في رواية الأخبار ، فقد يروي المؤرخ أخباره دون أن يعنى بأسرار الفن في روايتها ، فاذا أحب أن يذكر مقتل خليفة أو لهو أمير أو تبذير عامل فانه يذكر هذا كله غير مبال بسبيل التعبير لأن الذي يريده انما هو مجرد الخبر ، أما رجل الفن فانه لايكتفي بمجرد الخبر وانما يريد أن تؤثر رواية هذا الخبر في أذهاننا وقلوبنا فكأنما يحاول أن ينقلنا إلى أعماق نفسه حتى نشعر شعوره ونذوق ذوقه ، يحاول رجل الفن أن يحملنا على أن ننظر الى خبر قتل أو لهو أو تبذير نظراته نفسها فاذا استطاع أن ينقلنا الى أعماق نفسه فقد بلغ ما يريد .

لما صور لنا أبو الفرج جزع يزيد بن عبد الملك على حبّابة عرض على ذهنه مفردات اللغة فانتخب منها الألفاظ التي تصور منزلة حبّابة في قلبه أنطق تصوير فانه لما قال : فأكلت رمانة فشرقت بحبة منها فماتت ، فأقام لايدفنها ثلاثاً ، حتى تغيرت وأنتنت ، وهو يشمها ويرشفها لما قال قوله هذا استعان بالألفاظ التي تقبّح حبابة في عيون الناس كل التقبيح وتحسّنها في عين يزيد كل التحسين ، وأي قبح أقبح من أن تتغير حبّابة بعد دفنها ، وتنتن ، وأي حسن أحسن من أن يشمها يزيد

ويرشفها،هذا هو أسلوب أبي الفرج في رواية مثل هذا الخبر انه يجمع الأضداد ويؤالف بينها حتى تميز صور يزيد على حقيقتها ، تتغير حبَّابة وتنتن ؛ فيشمها يزيد ويرشفها بعد أن صارت جيفة بين يديه ، ثم يقول وهي في مثل هذه الحال : مارأيتها قط أحسن منها اليوم .

هذا هو أسلوب أبي الفرج في تصويره للهو والتبذير في أيام بني أمية وبني العباس انه أسلوب حيّ ناطق ، وليس مرادي في هذا الموطن الكلام على أسلوب أبي الفرج وإنما مرادي التنبيه على مهارته في تصوير أمر من الأمور ، وعلى براعته في حملنا على استقباح هذا الأمر أو استحسانه ، فنحن اذا لجأنا إلى كتاب الأغاني فلانلجأ اليه لأخباره وحدها وإنما نلجأ اليه للفن في رواية هذه الأخبار فقد نرى فيه أخبار دولتين من دول العرب لانرى نظيرها في كتب التأريخ .

وقد أستطيع بعد هذه المقدمة أن أخوض في الكلام على اللهو والتبذير في أيام بني العباس وسنترك لأنفسنا الحرية في الموازنة بين الدولتين في هذا الباب.

قال عبد الله بن دحمان(١): رجع أبي من عند المهدي وفي حاصله مائة ألف دينار ، ودحمان هذا رجل يغني ويعلّم الجواري الغناء وبعد هذا الخبر نجد الخبر الآتي :

حدث عمر بن شبة قال : بلغني أن المهدي أعطى دحمان في ليلة واحدة خمسين ألف دينار وذلك أنه غنى في شعر الأحوص :

قطوف المشي اذ تمشي ترى في مشيها خرقا

فأعجبه وطرب واستخفه السرور حتى قال لدحمان : سلني ماشئت! فقال: ضيعتان بالمدينة يقال لهما ريَّان وغالب ، فأقطعه أياها، فلما خرج التوقيع بذلك إلى أبي عبدالله وعمر بن بزيع راجعا المهدي فيه وقالا : أن هاتين ضيعتان لم يملكها قط الا خليفة

---

(١) الجزء ٥ الصفحة ١٣٤

وقد استقطعها ولاة العهود في أيام بني أمية فلم يقطعوهما فقال : والله لا أرجع فيها إلا بعد أن يرضى ، فصولح عنها على خمسين ألف دينار .

هذا أول خبر من أخبار التبذير في أيام بني العباس ، وقد استعظم الأمر العاملان اللذان ذُكرا وهما : أبو عبد الله وعمر بن بزيع فلم يتمالكا من أن يفاتحا المهدي به وهما في مثل هذا التدخل لا يأمنان غضبه عليهما حتى صولح دحمان عن الضيعتين على خمسين ألف دينار . ما أنطق هذا التعبير الذي استعمله أبو الفرج ، فقد قال : صولح ، كأن دحمان صاحب حق وكأن عليه أن ينزل عن بعض هذا الحق حتى يرضى ، فان في انتخاب لفظ من الألفاظ في بعض الأحوال ما يصور أمراً من الأمور أبلغ تصوير ، ان قول أبي الفرج : صولح، يصف لنا أتم وصف منزلة دحمان من المهدي .

وجاء موسى الهادي بعد المهدي وسلك المسالك نفسها في التبذير .

حدّث الطراز وكان بريد الفضل بن الربيع قال(١) :

لما مات المهدي وملك موسى الهادي أعطاني الفضل دنانير وقال : الحق بمكة فأتني بابن جامع واحمله في قبة ولا تعلمن بذا أحداً ، ففعلت فأنزلته عندي واشتريت له جارية وكان ابن جامع صاحب نساء فذكره موسى ذات ليلة وكان هو والحرّاني منقطعين إلى موسى أيام المهدي فضربها المهدي وطردهما فقال لجلسائه : أما فيكم أحد يرسل إلى ابن جامع وقد علمتم موقعه مني فقال له الفضل بن الربيع : هو والله عندي يا أمير المؤمنين ، وقد فعلت الذي أردت وبعثت إليه فأتي به في الليل فوصل الفضل تلك الليلة بعشرة آلاف دينار وولاه حجابته .

عشرة آلاف دينار يعطاها الفضل بن الربيع من أجل أنه أحضر ابن جامع لما طلبه موسى الهادي فكأن الفضل يعرف ما يخطر ببال موسى وقد هيأ له ما يحب قبل أن يطلبه وعلى هذا الشكل كانت مداخلهم على الخلفاء ، فقد لمسوا بأيديهم

---

(١) الجزء ٦ الصفحة ٧٠

مواطن الضعف فيهم فكانوا يتقحَّمون عليهم من هذه المواطن .

ولما جاء الرشيد جاءت الغرائب معه .

أهديت إلى الرشيد جارية في غاية الجمال والكمال(١) فخلا معها يوماً وأخرج كل قينة في داره واصطبح فكان جميع من حضره من جواريه المغنيات والخدم في الشراب زهاء ألفي جارية في أحسن زي من كل نوع من أنواع الثياب والجوهر واتصل الخبر بأم جعفر فغلظ عليها ذلك فأرسلت إلى عُلَيَّة تشكو إليها فأرسلت إليها عُلَيَّة : لا يهولنَّكِ هذا ، فوالله لأَرُدَّنَّه إليك ، قد عزمتُ أن أصنع شعراً وأصوغ فيه لحناً وأطرحه على جواريَّ فلا تبقَ عندك جارية إلا بعثت بها إلي وألبسيهنَّ ألوان الثياب ليأخذن الصوت مع جواريَّ ففعلت أم جعفر ما أمرتها به عليَّة فلما جاء وقت صلاة العصر لم يشعر الرشيد إلا وعُلَيَّة خرجت عليه من حجرتها وأم جعفر من حجرتها معها زهاء ألفي جارية من جواريها وسائر جواري القصر عليهن غرائب اللباس وكلهنَّ في لحن واحد هزج صنعته عُلَيَّة :

منفصل عني ومـــا قلبيَ عنه منفصل
ياقاطعي اليوم لمن نويت بعدي أن تصلْ

فطرب الرشيد وقام على رجله حتى استقبل أم جعفر وعُلَيَّة وهي على غاية السرور وقال : لم أر كاليوم قط ،يامسرور لاتبقين في بيت المال درهماً إلا نثرته ،فكان مبلغ ما نثره يومئذ ستة آلاف ألف درهم وما سمع بمثل ذلك اليوم قط .

وأظن أن هذه العباره وحدها : وما سمع بمثل ذلك اليوم قط ،كافية شافية فلا يدري الانسان مايقول في خبر مثل هذا الخبر ، ألفا جارية في أحسن زي من كل نوع من أنواع الثياب والجوهر ! ستة آلاف ألف درهم تنثر ! أفبعد مثل هذا التبذير تبذير ؟

(١) الجزء ٩ الصفحة ٨٤

وللرشيد أخبار كثيرة في اللهو والتبذير وليس من الضروري الاتيان عليها وإنما حسبنا ذكر نماذج منها .

قال محمد بن جعفر بن يحيى بن خالد[1] : شهدت أبا جعفر وأنا صغير وهو يحدث يحيى بن خالد جدي في بعض ما كان يخبره به من خلواته مع الرشيد قال : يا أبت أخذ بيدي أمير المؤمنين ثم أقبل على حجرة يخترقها حتى انتهى إلى حجرة مغلقة ففتحت له ثم رجع من كان معنا من الخدم ثم صرنا إلى رواق ففتحه وفي صدره مجلس مغلق فقعد على باب المجلس فنقر هارون الباب بيده نقرات فسمعنا حساً ثم أعاد النقر فسمعنا صوت عود ثم أعاد النقر ثالثة فغنت جارية ماظننت والله أن الله خلق مثلها في حسن الغناء وجودة الضرب فقال لها أمير المؤمنين بعد أن غنت أصواتاً : غني صوتي ، فغنت صوته وهو :

ومخنث شهد الزفاف وقبله	غنى الجواري حاسراً ومنقبا
لبس الدلال وقام ينقر دفه	نقراً أقر به العيون وأطربا
إن النساء رأينه فعشقنه	فشكون شدة مابهن فأكذبا

قال : فطربت والله طرباً هممت معه أن أنطح برأسي الحائط ثم قال غني :

طال تكذيبي وتصديقي	لم أجد عهداً لمخلوق
ان ناساً في الهوى غدروا	حسنوا نقض المواثيق
لاتراني بعدهم أبداً	أشتكي عشقاً لمعشوق

قال : فرقص الرشيد ورقصت معه ثم قال : امض بنا فاني أخاف أن يبدو منا ما هو أكثر من هذا ، فمضينا فلما صرنا إلى الدهليز قال وهو قابض يدي : أعرفت هذه المرأة ، قال : قلت لا ياأمير المؤمنين ، قال : فاني أعلم أنك ستسأل عنها ولا تكتم ذلك وأنا أخبرك أنها علية بنت المهدي ووالله لئن لفظت به بين يدي أحد وبلغني لأقتلنك ، قال فسمعت جدي يقول له : فقد والله لفظت به ووالله ليقتلنك ، فاصنع ما أنت صانع .

---

(١) الجزء ٩ الصفحة ٨٧

وهكذا نجد في كل خبر عبارة صغيرة تكاد تكون روح الخبر فان قوله : فرقص الرشيد يغنينا عن كل قول ، لأن رقص خليفة أمير المؤمنين لايشبه رقص رجل من عامة الناس ، على أن هذا الخبر لايخلو من شيء طريف فلم ينفرد الخلفاء وحدهم باللهو وإنما شاركتهم فيه نساء القصور .

وقد كان لعلية هذه أخت هارون الرشيد جارية تذب عنها إذا مرضت[١] وجارية تحضنها على أن هذه الأمور لاتدل على كثير من الترف .

أولع أبو الفرج بهذا النمط من الأخبار فانه إذا تتبع أخبار اللهو والتبذير أحصاها حتى لايتفلت منه شيء واذا لم يحدثه بها أحد نقب عنها في الكتب .

قال :[٢] ونسخت من كتاب هرون بن علي قال : حدثني علي بن مهدي قال : حدثني محمد بن سهل عن خالد بن أبي الأزهر قال : بعث الرشيد بالجرشي إلى ناحية الموصل فجبى له منها مالاً عظيماً من بقايا الخراج فوافى به باب الرشيد فأمر بصرف المال أجمع إلى بعض جواريه فاستعظم الناس ذلك وتحدثوا به ، فرأيت أبا العتاهية وقد أخذه شبه الجنون فقلت له : مالك ، ويحك ، فقال لي : سبحان الله أيدفع هذا المال الجليل إلى إمرأة ولا يتعلق كفي بشيء منه ثم دخل إلى الرشيد بعد أيام فأنشده :

الله هوّن عندك الدنيا وبغّضها إليكا

فأبيتَ إلاّ ان تصغرّ كل شيء في يديكا

ماهانت الدنيا على أحد كما هانت عليكا

فقال له الفضل بن ربيع : يا أمير المؤمنين ما مدحت الخلفاء بأصدق من هذا المدح فقال : يافضل أعطه عشرين ألف درهم ، فغدا أبو العتاهية على الفضل فأنشده :

إذا ما كنت متخذاً خليلاً فمثل الفضل فاتخذ الخليلا

---

(١) الجزء ٩ الصفحة ٨٧

(٢) الجزء ٣ الصفحة ١٥٤

يرى الشكر القليل له عظيماً ويعطي من مواهبه الجزيلا

أراني حيث ما يممت طرفي وجدت على مكارمه الدليلا

فقال له الفضل : والله لولا أن أساوي أمير المؤمنين لأعطيتك مثلها ولكن سأوصلها إليك في دفعات ثم أعطاه ما أمر له به الرشيد وزاد له خمسة آلاف درهم من عنده .

يكشف لنا هذا الخبر عن شيء لم يصل إلينا علمه ، فلسنا نعلم أثر هـذا اللهو والتبذير في طبقات الشعب أو في الرعية على مصطلح تلك الأيام ولكنّا علمنا من هذا الخبر أن الناس كانوا يستعظمون الاسراف ويتحدثون به ونستنبط من هـذا القول أن الناس لم يكونوا في سعة من العيش ولو كانوا في شيء من ذلك لما بالوا بأمور السلطان وأكثر ما تكون مبالاتهم بمثل هـذه الأمور اذا ضاقت عليهم مذاهب العيش .

واستمر الخلفاء من بعد الرشيد في التبذير ، قال أبو الفرج (١) :

حدثني جحظة قال : حدثني عبيد الله بن عبدالله بن طاهر قال : حدّثتني شهوات الصنّاجة التي كان إسحق أحداها إلى الواثق أن محمد الأمين لما غنّاه إسحق لحنه الذي صنعه في شعره أمر له بألف ألف درهم فرأيتها قد وصلت إلى داره يحملها مائة فراش .

يقولون : العدد ناطق فاذا صحّ هذا القول في موطن من المواطن فلا يصح صحته في هذا الموطن ، مائة فراش لحمل هدية إلى مغن !

حدّث إسحق بن إبراهيم عن أبيه قال : (٢) رأيت الفضل بن يحيى يوماً فقلت له : يا أبا العباس جعلت فداك ، هب لي دراهم فان الخليفة قد حبس يده فقال : ويحك يا أبا إسحاق ماعندي مال أرضاه لك ، ثم قال : هاه الا أن ههنا خصلة ، أتانا

---

(١) الجزء ٥ الصفحة ٩٣ .

(٢) الجزء ٥ الصفحة ١٩

رسول صاحب اليمن فقضينا حوائجه ووجَّه إلينا بخمسين ألف دينار يشتري لنا بها محبتنا ، فما فعلت ضياء جاريتك ، قلت : عندي جعلت فداك قال : فهو ذا أقول لهم يشترونها منك فلا تنقصها من خمسين ألف دينار فقبَّلت رأسه ثم انصرفت فبكَّر عليّ رسول صاحب اليمن ومعه صديق لي فقال : جاريتك فلانة عندك ، فقلت : عندي ، فقال : اعرضها عليّ فأخرجتها قال : بكم،قلت : بخمسين ألف دينار ولا أنقص منها ديناراً واحداً وقد أعطاني بها الفضل بن يحيى أمس هذه العطية فقال لي : أريدها له ، فقلت له : أنت أعلم اذا اشتريتها فصيِّرها لمن شئت ، فقال لي : هل لك في ثلاثين ألف دينار مسلَّمة لك ؟ قال : وكان شراء الجارية على أربعمائة دينار فلما وقع في أذني ذكر ثلاثين ألفاً أرتج عليّ ولحقني زمع وأشار عليّ صديقي الذي معه بالبيع وخفت والله أن يحدث بالجارية حدث أو بي أو بالفضل بن يحيى فسلمتها وأخذت المال ثم بكَّرت على الفضل بن يحيى فاذا هو جالس وحده فلما نظر اليّ ضحك ثم قال لي : ياضيق الحوصلة حرمت نفسك عشرين ألف دينار فقلت له : جعلت فداك دَعْ ذا عنك فوالله لقد دخلني شيء أعجز عن وصفه وخفت أن تحدث بي حادثة أو بالجارية أو بالمشتري أو بك أعاذك الله من كل سوء فبادرت بقبول الثلاثين ألف دينار فقال : لا ضير ، ياغلام جيء بالجارية فجاء بجاريتي بعينها فقال : خذها مباركاً لك فيها فانما أردنا منفعتك ولم نرد الجارية فلما ذهبت لأقوم قال لي : مكانك ، ان صاحب إرمينية قد جاءنا فقضينا حوائجه ونفذّنا كتبه وذكر أنه قد جاءنا بثلاثين ألف دينار يشتري لنا بها ما نحب فاعرض عليه جاريتك هذه ولا تنقصها من ثلاثين ألف دينار فانصرفت بالجارية وبكر اليّ صاحب إرمينية ومعه صديق لي آخر فقاولني بالجارية فقلت: لست أنقصها من ثلاثين ألف دينار فقال : معي على الباب عشرون ألف دينار تأخذها مسلَّمةً بارك الله لك فيها ، فدخلني والله مثل الذي دخلني في المرة الأولى وخفت مثل خوفي الأول فسلمتها وأخذت المال وبكرت على الفضل بن يحي فاذا هو وحده فلما رآني ضحك وضرب برجله الأرض وقال : ويحك ، حرمت نفسك عشرة الآف دينار ، فقلت : أصلحك

الله خفت والله ما خفت في المرة الأولى قال : لاضير ، أخرجْ ياغـلام جاريته فجاء بجاريتي بعينها فقال : خذها ما أردنا إلا منفعتك فلما ولّت الجارية صحت بها إرجعي فرجعت فقلت: أشهدك جعلت فداك أنها حرّة لوجه الله وانني قدتزوجتها على عشرة الآف درهم ، كسبت لي في يومين خمسين ألف دينار فما جزاؤها الا هذا فقال : وفقت ، إن شاء الله .

هذا خبر حافل بالمعاني يدلنا من جهة على تبذير رجال السلطان ويدلنا من جهة ثانية على سيرة العمال في أطراف الدولة فقد كان أولئك العمال يوجهون رسلهم الى دار الخلافة فينفذ لهم رجال الخليفة كتبهم فيدفع الرسل الأموال اليهم ، معنى هذا كله ان السوء قد دبّ في الدولة كلها في دار الخلافـة وفي أطراف الدولة فالعامل الذي يرسل إلى رجال الخليفة خمسين ألف دينار أو ثلاثين ألف دينار على سبيل الهدية إنما هو موضع شبهة ، من أين جمع هذا المال .

ومن هذه الأخبار المتماثلة ما رواه أبو الفرج وذلك في أيام المأمون وقد مدح إسحق الموصلي في حضرة الفضل بن الربيع البرامكة في خبر طويل فغاظ الفضل مدْحه لهم فقال له إسحق (١) : اسمع مني شيئاً أخبرك به مما فعلوه ، ليس هو بكبير في صنائعهم عندي ولا عند أبي قبلي فان وجدتَ لي عذرا وإلا فلُمْ ، كنت في ابتداء أمري نازلاً مع أبي في داره فكان لايزال يجري بين غلماني وغلمانه وجواريّ وجواريه الخصومة كما يجري بين هـذه الطبقات فيشكونهم اليه فأتبينُ الضجر والتنكر في وجهه فاستأجرت داراً بقربه وانتقلت اليها أنا وغلماني وجواريّ وكانت داراً واسعة فلم أرضَ ما معي من الآلة لها ولا لمن يدخل اليّ من إخواني أن يروا مثله عندي ففكرت في ذلك وكيف أصنع وزاد فكري حتى خطر بقلبي قبح الأحدوثة من نزول مثلي في دار بأجرة واني لا آمن في وقت أن يُستأذن عليّ وعندي من أحتشمه ولا يعلم حالي فيقال : صاحب دارك أو يوجه في وقت فيطلب

---

(١) انظر الجزء ٥ الصفحة ٦٧ .

أجرة الدار وعندي من أحتشمه فضاق بذلك صدري ضيقاً شديداً حتى جاوز الحدّ فأمرت غلامي بأن يسرج لي حماراً كان عندي لأمضيَ الى الصحراء أتفرج فيها ممّا دخل على قلبي فأسرجه وركبت برداءٍ ونعل فأفضى بي المسير وأنا مفكر لا أميز الطريق التي أسلك فيها حتى هجم بي على باب يحيى بن خالد فتواثب غلمانه إليّ وقالوا : أين هذا الطريق ، فقلت : إلى الوزير فدخلوا فاستأذنوا لي وخرج الحاجب فأمرني بالدخول وبقيت خجلاً قد وقعت في أمرين فضيحين إن دخلت اليه برداء ونعل وأعلمته أني قصدته في تلك الحال كان سوء أدب وإن قلت له : كنت مجتازاً ولم أقصدك فجعلتك طريقاً كان قبيحاً ثم عزمت فدخلت فلما رآني تبسم وقال : ما هذا الزيّ يا أبا محمد احتبسنا لك بالبرّ والقصد والتفقد ثم علمنا أنك جعلتنا طريقاً فقلت : لا والله ياسيدي ولكني أصدقك قال : هاته ، فأخبرته القصة من أولها إلى آخرها فقال: هذا حق مستوٍ ، أفهذا شغل قلبك قلت : أي والله وزاد فقال : لا تشغل قلبك بهذا ،ياغلام ! ردوا حماره ، وهاتوا له خلعة ، فجاؤني بخلعة تامة من ثيابه فلبستها ودعا بالطعام فأكلتُ ووضع النبيذ فشربت وشرب فغنيته ودعا في وسط ذلك بدواة ورُقعة وكتب أربع رقاع ظننت بعضها توقيعاً لي بجائزة فاذا هو قد دعا بعض وكلائه فدفع إليه الرقاع وساره بشيء فزاد طمعي في الجائزة ومضى الرجل وجلسنا نشرب وانا أنتظر شيئاً فلا أراه إلى العتمة ثم اتكأ يحيى فنام فقمت وأنا منكسر خائب فخرجت وقدم لي حماري فلما تجاوزت الدار قال لي غلامي : إلى أين تمضي ، قلت : الى البيت ،قال : قد والله بيعت دارك وأشهد على صاحبها وابتيع الدرب كله ووُزن ثمنه والمشتري جالس على بابك ينتظرك ليعرفك وأظنه اشترى ذلك للسلطان لأني رأيت الأمر في استعجاله واستحثاثه أمراً سلطانياً فوقعت من ذلك فيما لم يكن في حسابي وجئت وأنا لا أدري ما أعمل فلما نزلت على باب داري إذا أنا بالوكيل الذي ساره يحيى قد قام إليّ فقال لي ادخل أيدك الله دارك حتى أدخل الى مخاطبتك في أمر إحتاج إليك فيه فطابت نفسي بذلك ودخلت ودخل إليّ فأقرأني توقيع يحيى يطلق لأبي محمد إسحق مائة ألف درهم

يبتاع له بها داره وجميع ما يجاوره ويلاصقها والتوقيع الثاني إلى ابنه الفضل قد أمرت لأبي إسحق بمائة ألف درهم يبتاع له بها داره فأطلق إليه مثلها لينفقها على إصلاح الدار كما يريد وبناءها على ما يشتهي والتوقيع الثالث إلى جعفر قد أمرت لأبي محمد إسحق بمائة ألف درهم يبتاع له بها منزل يسكنه وأمر له أخوك بدفع مائة ألف ينفقها على بنائها ومرمتها على ما يريد فأطلق له أنت مائة ألف درهم يبتاع بها فرشاً لمنزله والتوقيع الرابع إلى محمد قد أمرت لأبي محمد إسحق أنا وأخواك بثلثمائة ألف درهم لمنزل يبتاعه ونفقة ينفقها عليه وفرش يبتذله فمر له أنت بمائة ألف درهم يصرفها في سائر نفقته ، وقال الوكيل قد حملت المال واشتريت كل شيء جاورك بسبعين ألف درهم وهذه كتب الابتياعات باسمي والاقرار لك وهذا المال بورك لك فيه فاقبضه فقبضته وأصبحت أحسن حالاً من أبي في منزلي وفرشي وآتي ولا والله ما هذا بأكبر شيء فعلوه لي أفألام على شكر هؤلاء فبكى الفضل بن الربيع وكل من حضره وقالوا : لا والله لا تلام على شكر هؤلاء .

نجد في بعض الأخبار ما يضيء لنا ظلمات التاريخ أوما يزيد في ايضاح الغامض منه . لقد بحث ابن خلدون عن السبب في نكبة البرامكة فقال : وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطالب اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم وقال في مقام آخر : وعظمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال ...

فاذا قرأنا الخبر الذي رواه أبو الفرج في مكارم البرامكة ثم قرأنا عبارات ابن خلدون: وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وجدنا في خبر أبي الفرج مايوضح لنا كلام ابن خلدون ، لم يكتف يحيى بشراء الدار لاسحق الموصلي وابتياع ما يجاورها ويلاصقها وإنما هيأ له ماينفقه على إصلاحها

وفرشها وقد كان يستطيع أن يدفع اليه كل ذلك من عنده ولكنه أشرك أهله في الدفع حتى يزداد الناس محبة لهم على أن في الخبر شيئاً من أدب النفس لاينبغي لنا أن نغفل عنه فقد دعا يحيى بعض وكلائه ودفع إليه الرقاع ولم يذكر من ذلك شيئاً لاسحق ولا أعلمه بأمر مما سارَّ به وكيله فليس في عطائه منّ ولا أذى فاذا قرأنا خبراً مثل هـذا الخبر فلا نستغرب انصراف الوجوه نحوهم وخضوع الرقاب لهم واقتصار الآمال عليهم على أن الذي يهمنا في هذا كله إنما هو التبذير في أيامهم وقد رأينا أثر هذا التبذير .

ويكاد العقل لايصدق هـذه الوجوه التي كانوا ينفقون الأموال فيها حدّث إسحق قال(١) :

ذكر المعتصم يوماً بعض أصحابه وقد غاب عنه فقال : تعالوا حتى نقول مايصنع في هذا الوقت فقال قوم : يلعب بالنرد وقال قوم : بغني ، فبلغتني النوبة فقال : قلْ يا إسحاق ، قلت إذا أقول وأصيب قال : أتعلم الغيب قلت : لا ولكني أفهم مايصنع وأقدر على معرفته قال : فان لم تصب ،قلت : فان أصبت ،قال :لك حكمك وان لم تصب ، قلت: لك دمي ، قال : وجب ، قلت : وجب ، قال : فقل ، قلت : يتنفس قال : فان كان ميتاً ، قلت : تحفظ الساعة التى تكلمت فيها فان كان مات فيها أوقبلها فقد قمرتني فقال: قدأنصفت،قلت:فالحكم ،قال: احتكم ماشئت ،قلت: ماحكمي الارضاك يا أمير المؤمنين قال : فان رضاي لك وقد أمرت لك بمائة ألف درهم ، أترى مزيداً فقلت : ما أولاك بذلك يا أمير المؤمنين ، قال : فانها مائتا ألف درهم ، أترى مزيداً ، قلت : ما أحوجني إلى ذلك ياأمير المؤمنين قال : فانها ثلثمائة ألف ، أترى مزيداً ، قلت : ما أولاك بذلك ياأمير المؤمنين قال : ياصفيق الوجه مانزيدك على هذا شيئاً .

وهكذا نجدهم يصرفون الأموال في الحَزْر والتخمين .

ولما نعي إسحق إلى المتوكل(٢) في وسط خلافته غمه وحزن عليه وقال :ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته !

---

(١) الجزء ٥ الصفحة ١١٠

(٢) الجزء ٥ الصفحة ١٢٢ .

إن كلاماً مثل هذا الكلام يصور لنا منزلة الغناء في نفوس الخلفاء فقد كان هذا الغناء جزءاً من جمال الملك وبهائه وزينته، من هذا الكلام نستطيع أن نتصوّر رأيهم في اللهو .

وقد مضى للواثق قول في هـذا المعنى أبلغ من قول المتوكل قال أحمد بن حمدون(١) سمعت الواثق يقول ما غناني إسحق قط إلا ظننت أنه قد زيد لي في ملكي ولاسمعته يغني غناء ابن سريج الا ّظننت أن ابن سريج قد نشر وأنه ليحضرني غيره إذا لم يكن حاضراً فيتقدمه عندي وفي نفسي بطيب الصوت حتى اذا اجتمعا عندي رأيت إسحق يعلو ورأيت من ظننت تقدمه ينقص وان إسحق لنعمة من نعم الملك التي لم يحظ بمثلها ولو أن العمر والشباب والنشاط مما يشترى لاشتريتهن ّ له بشطر ملكي !

لم تخل دولة بني العباس من عقلاء يعجبون للاسراف الذي كان يقع في أيامهم فقد كان خبر حكم الوادي(٢) يتناهى إلى المنصور ويبلغه مايصله به بنو سليمان بن علي فيعجب لذلك ويستسرفه ويقول هل هو الا ّ أن حسّن شعراً بصوته وأطرب مستمعيه ، فماذا يكون وعلام يعطونه هذه العطايا المسرفة إلى أن جلس يوماً في مُستَشْرَف له وقد كان حكم دخل إلى رجل من قواده وهو يراه ثم خرج عشياً وقد حمله على بغلة له يعرفها المنصور وخلع عليه ثياباً يعرفها له فلما رآه المنصور قال: من هذا ؟ فقيل حكم الوادي، فحرّك رأسه ملياً ثم قال: الآن علمت أن هذا يستحق ما يُعطاه قيل: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وأنت تنكر مايبلغك منه قال: لأن فلاناً لا يعطي شيئاً من ماله باطلاً ولا يضعه إلا في حقه .

والمهم في هذا الخبر أن المنصور كان يعجب للاسراف في أيامه ولم يبلغ هـذا الاسراف ما بلغه بعد وفاته في أيام الخلفاء الذين تناهت إلينا أخبارهم .

ولكن بعض الخلفاء كانوا يستعظمون الاسرافات بألسنتهم ثم يقعون فيها فتعجز عنها قلوبهم ، قال أبو الفرج(٣):

---

(١) الجزء ٣ الصفحة ٥٦

(٢) الجزء ٦ الصفحة ٦٤

(٣) الجزء ٩ الصفحة ٣٢

ومن أخبار المعتضد بالله الجارية مجرى هذا الكتاب ، حدثني عمي عن جدي رحمها الله قال : قال لي عبد الله بن سليمان وكان يأنس بي أنساً شديداً لقديم الصحبة والائتلاف المنشأ : دعاني المعتضد يوماً فقال : ألا تعاتب بدراً على ما يزال يستعمله من التخرق في النفقات والاثابات والزيادات والصلات وجعل يؤكد القول عليّ في ذلك فلم أخرج عن حضرته حتى دخل إليه بدر فجعل يستأمره في إطلاقات مسرفة ونفقات واسعة وصلات سنية وهو يأذن له في ذلك كله فلما خرج رأى في وجهي إنكاراً لما فعله بعد ما جرى بيني وبينه فقال لي : ياعبيد الله قد عرفت مافي نفسك وأنا وإياه كما قال الشاعر :

في وجهه شافـع يمحو إساءته ... من القلوب مطـاع حيثما شفعا

مستقبل بالذي يهوى وإن كثرت ... منه الاساءة مغفور لمـا صنعا

ومن الذين كانوا يستكثرون عطايا الخلفاء ابن الأعرابي ، قال أبو الفرج(١) أخبرني الصولي قال : حدثني محمد بن عبد الله التميمي قال : كنا في مجلس ابن الأعرابي إذ أقبل رجل من ولد سعيد بن سالم كان يلزم ابن الأعرابي وكان يحبه ويأنس به فقال له : ما أخرك عني فاعتذر بأشياء ثم قال : كنت مع مخارق عند بعض بني الرشيد فوهب له مائة ألف درهم على صوت غناه به فاستكثر ذلك ابن الاعرابي واستهاله وعجب منه . ولكن أبلغ ماقيل في العجب من الاسراف إنما هو قول ابي نُخَيْلَة فقد وقف أبو نخيلة مرة على باب أبي جعفر واستأذن فلم يصل وجعلت الخراسانية تدخل وتخرج فتهزأ به فيرون شيخاً أعرابياً جلفاً فيعبثون به فقال له رجل عرفه : كيف ترى ما أنت فيه في هذه الدولة فقال أبياتاً منها :

وحلة تنشر ثم تطوى ... وطيلسان يشترى فيغلى

لعبد عبد أو لمولى مولى ... ياويح بيت المال ماذا يلقى!

---

(١) الجزء ٨ الصفحة ١٩

على أن أبا نخيلة لم تقع عينه إلا على حلة أو على طليسان ومع هذا فقد هاله أن تكون هذه الحلل وهذه الطيالسة على عبيد العبيد أو على موالي الموالي فكيف لو دخل قصور الخلفاء من بعد المنصور ورأى بعينيه مجالسهم وقيانهم وجواريهم أو رأى العقود والجواهر التي كانوا يشترونها لهن" أو رأى الدنانير التي كانت تدفع إلى المغنين . ومهما نقل في هذا المعنى فان قول أبي نخيلة :

يا ويح بيت المال ماذا يلقى !

أبلغ قول وهو وحده يصور إسرافات تلك الأيام .

❀❀❀

الغناء في القصور

تدع أبو الفرج الخلفاء في كتابه تتبعاغريبا، فدخل عليهم قصورهم وكشف عن أسرار هذه القصور وقد أحطنا بنبذ غير يسير من حياتهم الخاصة وقد كان يجب علي أن أنتقل بعد هذه الفصول الى الناحية الأدبية في الأغاني فأتكلم على شيء من النقد فيه أو على لغة صاحبه وفنه ولكني وجدت أن بعض الموضوعات لم أتوسع فيها التوسع اللازم فرأيت أن أعود إلى التوسع حتى تكون تامة وما أظن أن شيئاً من ذلك يدخل الضجر على القلوب لأن أخبار الأغاني لهاصلة بالدولتين العظميتين فما يجوز لنا تخطي هذه الأخبار .

تكلمت في الماضي على لهو بعض الخلفاء وتبذيرهم ولكني رجعت الى دفاتري فوجدت فيها ما يتمم هذا اللهو وهذا التبذير فرأيت أن أنسق هذا كله حتى تكون الصورة التي أعرضها تامة ، أما الآن فلا أتعرض في هذا الفصل الا لسلسلة من أخبار الغناء وأظن أن هذا الغناء كان عاملاً من أقوى عوامل التبذير .

نمر في الأغاني على خبر من أخبار جبلة بن الأيهم فنشهد في الجاهلية مجلساً من مجالس هذا الملك ، لانشهد مثله بعد الجاهلية ، لهذا الخبر قيمة عظيمة صورت لنا فيه مجالس ملوك الجاهلية في اللهو والشرب ، صورت لنا الأواني والرياحين فيه ثم وصفت فيه آداب اولئك الملوك في مثل هذه المجالس فمهد لنا هذا الوصف وهذا التصوير سبيلا إلى المقابلة بين لهو ملوك الجاهلية وبين لهو بعض الخلفاء والعمال وخرجنا من هذه المقابلة بصورة كاملة نرى فيها أدبا يكاد يكون المثل الأعلى وحسبنا فيه أنه أدب ملوك .

ونرى في الخبر الذي سنتلوه شيئاً أكثر من ذلك ، انه يدلنا على أن الشرب

انتشر في الاسلام من بدء انتشار الاسلام فكأن هذا الشرب في آخر الجاهلية متصل بأول الأسلام . وهذا هو الخبر ، قال أبو الفرج :

أخبرنا وكيع عن حمّاد بن إسحق عن أبيه عن الواقدي عن عبد الرحمن بن أبي الزِناد عن أبيه قال : سمعت خارجة بن زيد يقول (١) دعينا الى مأدبُة في آل نُبَيط قال خارجة فحضرتها وحسّانُ بن ثابت قد حضرها فجلسنا جميعاً على مائدة واحدة وهو يومئذ قد ذهب بصره ومعه ابنه عبد الرحمن فكان إذا أتى طعام سأل ابنه : أطعام يد أم طعام يدين ، يعني باليد الثريد وباليدين الشواء لأنه ينهش نهشاً فاذا قال : طعام يدين أمسك يده فلما فرغوا من الطعام أتوا بجاريتين احداهما رائقة والأخرى عزّة جلستا وأخذتا مزهريهما وضربتا ضرباً عجيباً وغنتا بقول حسان :

انظر خليلي بباب جلق هل   تبصر دون البلقاء من أحد

فأسمعُ حسان يقول قد أراني بها سميعاً بصيراً وعيناه تدمعان فاذا سكتتا سكتت عنه البكاء وإذا أغنتا بكى ، فكنت أرى ابنه عبد الرحمن إذا سكنتا يشير اليهما ان تغنيا فيبكي ابوه فيقول : ما حاجاته الى إبكاء أبيه ، قال الواقدي : فحدثت بهذا الحديث يعقوب بن محمد الظفري فقال سمعت سعيد بن عبد الرحمن بن حسان يقول لما انقلب حسان من مأدبة بنى نُبَيط إلى منزله استلقى على فراشه ووضع إحدى رجليه على الأخرى وقال: لقد أذكرتني رائقة وصاحبتها أمراً سمعته أذناي بُعَيد ليالي جاهليتنا مع جبلة بن الأيهم فتبسم ثم جلس فقال : لقد رأيت عشر قيانٍ ، خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط وخمس يغنين غناء أهل الحيرة واهداهن إليه إياس بن قَبيصة وكان يفد اليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها وكان إذا جلس للشرب فرش تحته الآسُ والياسمينُ وأصنافُ الرياحين وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب واتي بالمسك الصحيح في صِحاف الفضة وأوقد

(١) الجزء ١٦ الصفحة ١٤

له العود المندّى إن كان شاتياً وان كان صائفاً بُطن بالثلج وأتي هو وأصحابه بكساء صيفية يتفضّل هو وأصحابه بها في الصيف وفي الشتاء الفراءُ الفنكُ وما أشبهه ، ولا والله ما جلست معه يوماً قط الاّ خلع عليّ ثيابه التي عليه في ذلك اليوم وعلى غيري من جلسائه هذا مع حِلم عمّنْ جهل وضحك وبذلٍ من غير مسئلة مع حسن وجهٍ وحسن حديث ما رأيت منه خنى قط ولا عربدة ونحن يومئذ على الشِركْ فجاء الله بالاسلام فمحا به كل كفر وتركنا الخمر وما كره وأنتم اليوم مسلمون تشربون هذا النبيذ من التمر والفضيخ من الزهو والرُطب فلا يشرب أحدكم ثلاثة أقداحٍ حتى يصاحب صاحبته ويفارقها وتضرب فيه كما تضرب عزائب الإبل فلا تنتهون .

أظن انا قد أدركنا قيمة هذا الخبر وسمعنا فيه حسن الوصف ، أما الغناء الذي جاء ذكره فيه فمثله كمثل الخمر لم ينقطع أمره من أول الاسلام وهذه جملة من بعض أخباره .

عقد أبو الفرج في كتابه فصلا خاصاً سماه : أغاني الخلفاء وأولادهم وأولاد أولادهم ، معنى هذا ان طائفة منهم غنوا واشتهروا بالغناء فاذا عرفنا أنهم غنوا فقد عرفنا بعض أوضاعهم الخاصة ولم نستغرب ميلهم إلى الغناء وتبذيرهم في سبيله ولكن أبا الفرج يتحفظ في نسبة الأغاني إلى الخلفاء فقد قال في صدر الفصل الذي أشرت اليه (١) :

المنسوب إلى الخلفاء من الأغاني والملصق بهم منها لا أصل لجله ولا حقيقة لأكثره لاسيما ماحكاه ابن خرداذبه فانه بدأ بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فذكر أنه تغنى في هذا البيت :

كأنّ راكبها غصن بمَرْوَحة !

ثم والى بين جماعة من الخلفاء واحداً بعد واحدٍ حتى كأنّ ذلك عنده ميراث

---

(١) الجزء ٨ الصفحة ١٤٤

من مواريث الخلافة أو ركن من أركان الامامة لابدّ منه ولامعدل عنه يخبط خبط العشواء ويجمع جمع حاطب الليل ، فأما عمر بن الخطاب فلو جاز هذا أن يُرْوى عن كل أحد لبعد عنه وإنما روي أنه تمثّل بهذا البيت وقد ركب ناقة فاستوطأها لا أنّه غنّى به ولا كان الغناء العربي أيضاً عرف في زمانه إلا ما كانت العرب تستعمله من النصب والحداء وذلك جار مجرى الانشاد إلا أنه يقع بتطريب وترجيع يسير ورفع للصوت والذي صحّ من ذلك عن رواة هذا الشأن فأنا ذاكر منه ما كان متقن الصنعة لاحقاً بجيّد الغناء قريباً من صنعة الأوائل وسالكا مذاهبهم لا ما كان ضعيفاً سخيفاً ، وجامع فيه ما اتصل به خبر له يستحسن ويجري مجرى هذا الكتاب وما تضمنه .

إننّا نجد في هذا الكلام دليلا آخر على نزاهة أبي الفرج في رواية الأخبار وعلى تحقيقه فيها فانه لايروي الأخبار على علاتها وإنما يمحّصها ثم ذكر بعد المقدمة التي قدّمها طائفة من الخلفاء وأولادهم وأولاد أولادهم ممن كان له صنعة متقنة في الغناء مثل عمر بن عبد العزيز والوليد بن يزيد والواثق والمعتمد ..

أما السفّاح والمنصور والمنتصر والمعتز فقد تحفظ في نسبة الأغاني اليهم ولم يحتمل عهدتها وهذا كله دليل على نزاهته فمن أراد الاطلاع على أغاني الخلفاء الذين ذكرهم أبو الفرج وعلى أخبارهم فليرجع اليها في مظانها من كتاب الأغاني .

ويظهر أن الطبقات الشريفة كانت تجد في صناعة الغناء ، أي في غناء أهلها للناس، غضاضة وعيباً فاذا رجعنا إلى أخبار عبد الله بن العباس الربيعي (١) وجدنا فيها خبراً يؤيد هذا الرأي ولكن الخبر طويل وتلخيصه ان عبد الله بن العباس ابن الفضل بن الربيع حكى حكاية سبب دخوله في الغناء فقال : كان سبب دخولي في الغناء وتعليمي إياه اني كنت أهوى جارية لعمتي رُقَيَّة بنت الفضل بن الربيع

---

(١) الجزء ١٧ الصفحة ١٢١

فكنت لا أقدر على ملازمتها والجلوس معها خوفاً من أن يظهر مالها عندي فيكون ذلك سبب منعي منها فأظهرت لعمتي أني أشتهي أن أتعلم الغناء ويكون ذلك في ستر عن جدي وكان جدي وعمتي في حال من الرقة علي والمحبة لي لانهاية ورآءها لأن أبي توفى في حياة جدي الفضل فقالت : يابني وما دعاك إلى ذلك ، فقلت شهوة غلبت على قلبي ان منعت منها مت غماً وكان لي في الغناء طبع قوي فقالت : أنت أعلم وما تختاره ، والله ما أحب منعك من شيء واني لكارهة أن تحذق ذلك وتشهر به فتسقط ويفتضح أبوك وجدك !

وتمة هذا الخبر ان عبد الله بن العباس أخذ عن الجارية التي كان يهواها وعن صواحباتها حتى تقدم الجماعة حذقاً وأقررن له بذلك ثم اتصل خبره بالرشيد فدعا بجده الفضل وقال له : أيكون لك ابن يغني ثم يبلغ في الغناء المبلغ الذي يمكنه معه أن يصنع صوتين يستحسنها إسحق وسائر المغنين ولا تعلمني بذلك كأنك رفعت قدره عن خدمتي في هذا الشأن فدعا الفضل عبد الله وهو يكاد ينشق غيظاً فلما خرج إليه شتمه وقال له : يا كلب بلغ من أمرك ومقدارك أن تجسر على أن تتعلم الغناء بغير إذني ثم زاد ذلك حتى صنعت ولم تقنع بهذا حتى ألقيت صنعتك على الجواري في داري ثم تجاوزتهن الى جوار الحرث بن بسخير فاشتهرت وبلغ أمرك أمير المؤمنين فتنكر لي ولامني وفضحت آباءك في قبورهم وسقطت الأبد الا من المغنين وطبقة الخنياكرين .

فهذا الخبر يدلنا على أن الطبقات الرفيعة كانت تجد في الغناء فضيحة وسقوطاً وعاراً فقد كانوا يميلون إلى سماع الغناء ولكنهم كانوا يتنزهون عن أن يكون صناعة لهم، أما ميل الخلفاء ومن دونهم إلى الغناء فقد تضافرت الأخبار في الأغاني عليه وحسبنا أن نعرف أن الرشيد أمر المغنين وهم يومئذ متوافرون أن يختاروا له ثلاثة أصوات من جميع الغناء ، وأن الواثق أمر إسحق بن إبراهيم الموصلي باختيار أصوات من الغناء القديم .

ولما ولّى عبد الملك بن مروان الحرث بن خالد المخزومي مكة (١) بعث إلى الغريض فقال له: لأَرَيَنّكَ في عملي ، وكان قبل ذلك يطلبه ويستدعيه فلايجيبه فخرج الغريض إلى ناحية الطائف ، وبلغ ذلك الحرث فرقّ له فردّه وقال له : لم كنت تبغضنا وتهجر شعرنا ولا تقربنا ، وقال له الغريض : كانت هفوة من هفوات النفس وخطوة من خطوات الشيطان ومثلك وهب الذنب وصفح عن الجرم وأقال العثرة وغفر الزلة ولست بعائد إلى ذلك أبداً فقال : وهل غنيت في شيء من شعري قال : نعم ، غنيت في ثلاثة أصوات من شعرك قال : هات ماغنيت فغنّى :

بان الخليط فما عاجوا ولا عدلوا إذ ودعّوك وحنّت بالنوى الابل

كأنّ فيهم غداة البين إذ رحلوا أدماء طاع لها الحوذان والنفل

فقال له : أحسنت والله ياغريض هات ماغنيت فيه أيضاً من شعري ، فغناه في قوله :

ياليت شعري وكم من منية قدرت وفقاً وأخرى أتى من دونها القدر

ومضمر الكشح يطويه الضجيع له طيّ الحمالة لاجاف ولا فقر

له شبيهان لانقص يعيبهـــــا بحيث كانا ولا طول ولا قصر

فقال له الحرث : أحسنت والله ياغريض ، ايه ! وما ذلك أيضاً فغنّاه في قوله :

عفت الديار فما بها أهل خزّانها ودماثها السهل

اني وما نحروا غداة منى عند الجمار تؤودها العقل

فقال له الحرث : ياغريض لا لوم في حبك ولا عذر في هجرك ولا لذّة لمن لا يُروّح قلبه بك ، ياغريض لو لم يكن لي في ولايتي مكة حظ إلا أنت لكان حظاً كافياً وافياً ، ياغريض إنما الدنيا زينة فأزينُ الزينة مافرّح النفس ولقد فهم قدر الدنيا على حقيقته من فهم قدر الغناء .

إني أجد هذا الكلام أبلغ ما يقال في الخلفاء والعمال من حيث تصوير ميلهم إلى الغناء ووصف طراز حياتهم فهذه الكلمات القليلة التي قالها الحرث بن خالد المخزومي

---

(١) الجزء ٣ الصفحة ١٠٣ .

أحد ولاة عبد الملك بن مروان إنما هي خلاصة صورة العيشة التي عاشوها في القديم وهي عيشة السرور واللذة والنعيم ومهما نرد أن نصف ميلهم إلى الغناء فلا نستطيع أن نصفه بأحسن من هـذا القول : ولقد فهم قدر الدنيا على حقيقته من فهم قـدر الغنـاء !

وجاء الوليد بن يزيد فجاء بالعجائب في هذا المعنى .

كان هشام بن عبد الملك مكرماً للوليد بن يزيد(١) وكان عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدباً للوليد وكان فيما يقال زنديقاً فحمل الوليد على الشراب والاستخفاف بدينه فاتخذ ندماء وشرب وتهتك فأراد هشام قطعهم عنه فولاّه الموسم في سنة عشر ومائة فرأى الناس منه تهاوناً واستخفافاً بدينه وأمر مولاه عيسى فصلى بالناس وبعث إلى المغنين فغنوه وفيهم ابن عائشة فغناه : سليمى أجمعت بنا ...

فنعر الوليد نعرة أذن لها أهل مكة وأمر لابن عائشه بألف دينار وخلع عليه عدة خلع وحمله فخرج ابن عائشة من عنده بأمر أنكره الناس وأمر للمغنين بدون ذلك فتكلم أهل الحجاز وقالوا : أهذا وليّ عهد المسلمين ! وبلغ ذلك هشاماً فطمع في خلعه وأراده على ذلك فأبى وتنكر هشام للوليد فتمادى الوليد في الشرب واللذات فأفرط وبعث هشام بالوليد وخاصته ومواليه فنزل بالأزرق بين أرض بلقين وفزارة على ماء يقال له : الأغدق ، حتى مات هشام .

وقال الوليد في مقام آخر لابن عائشة وقد غنّاه : فقد تركتني على مثل المِقْلى من حرارة غنائك(٢)

فالغناء كان يعمل فيه عملاً عظيماً .

وقال علّويه (٣) أمرني المأمون وسائر المغنين في ليلة من الليالي أن نصير اليه بكرة ليصطبح فغدونا ولقيني المراكبي مولى عريب وهي يومئذ عنده ، فقال لي :

---

(١) الجزء ٢ الصفحة ٦

(٢) الجزء ٢ الصفحة ٧٠

(٣) الجزء ١٨ الصفحة ١٨٥

يا أيها الرجل الظالم المعتدي أما ترق وترحم وتستحي ، عريب هائمة تحلم بك في النوم ثلاث مرات في كل ليلة . قال عَلَّوِيه : فقلت أم الخلافة زانية ، ومضيت معه فحين دخلت قلت أستوثق من الباب فاني أعرفُ خلقِ الله بفضول البوّابين والحُجَّاب وإذا عريب جالسة على كرسي يُطبخ بين يديها ثلاث قدور من دجاج فلما رأتني قامت تعانقني وتقبّلني ثم قالت: أيما أحب إليك ، أن تأكل من هذه القدور أو تشتهي شيئاً يطبخ لك فقلت : بل قدر من هذه تكفينا ، فغرفت قدراً منها وجعلتها بيني وبينها فأكلنا ودعونا بالنبيذ فجلسنا نشرب حتى سكرنا ثم قالت : يا أبا الحسن صنعت البارحة صوتاً في شعر لأبي العتاهية ، فقلت : وما هو فقالت هو :

عذيرى من الانسان لا إن جفوته   صفا لي ولا إن كنت طوع يديه

وقالت لي : قد بقي فيه شيء فلم نزل نردده أنا وهي حتى إستوى ثم جاء الحجّاب فكسروا باب المراكبي واستخرجوني فدخلت على المأمون فلما رأيته أقبلت أمشي إليه برقص وتصفيق وأنا أغني الصوت فسمع وسمع من عنده مالم يعرفوه واستظرفوه وسألني المأمون عن خبره فشرحته له فقال لي : ادنُ وردده فرددته عليه سبع مرات فقال في آخر مرة : يا عَلَّويه خذ الخلافة وأعطني هذا الصاحب .

فهذه العبارة وحدها : خذ الخلافة واعطني هذا الصاحب أبلغ مايقال في تصوير الغناء في نفس المأمون .

ولم تقلّ خديجة بنت المأمون عن أبيها ميلاً إلى الغناء فقد حدّث محمد بن مالك الخزاعي قال : حدثتني مُلَحُ العطّارة وكانت من أحسن الناس غناءً وانما سميت العطارة لكثرة استعمالها العطر المطيب ، قال : غنّت شارية يوماً بين يدي المتوكل واقفة مع الجواري :(١)

بالله قولين لمن ذا الرشا   المثقل الردف الهضيم الحشى
أظرف ما كان إذا ما صحا   وأملح الناس إذا ما انتشى

---

(١) الجزء ١٤ الصفحه ١٠٩

وقـــد بنى برج حمام له | أرسل فيه طائراً مُرْعشا
يا ليتني كنت حماماً له | أو باشقاً يفعل بي مايشا
لو لبس القوهيّ من رقة | أوجعه القوهيّ أو خدّشا

فطرب المتوكل وقال لشادية : لمن هـذا الغنا فقالت : أخذته من دار المأمون ولا أدري لمن هو ، فقلت له : أنا أعلم الناس به ، فقال : لمن هو يامليح ،فقلت أقوله لك سراً ، قال: أنا في دار النساء وليس يحضرني غير حرمي فقوليه ، فقلت: الشعر والغناء جميعاً لخديجة بنت المأمون ، قالته في خادم لأبيها كانت تهواه وغنَّتْ فيه هذا اللحن فأطرق طويلاً ثم قال : لايسمع هذا منك أحد .

وإذا كان للغناء هذا العمل في الخلفاء فأُخلق بالمغنيات أن يكون لهن سلطان عليهم عظيم .

اشترى الرشيد جارية اسمها ذات الخال بسبعين ألف درهم ثم وهبها لحَمَّويه الوصيف(١) فاشتاقها الرشيد يوماً بعد ما وهبها لحمويه فقال له : ويلك يا حَمَّويه ! وهبنا لك الجارية على أن تسمع غناءها وحدك فقال: يا أمير المؤمنين مر فيها بأمرك فقال: نحن عندك غداً ، فمضى فاستعدّ لذلك واستأجر لها من بعض الجوهريين بدنة وعقوداً ثمنها اثنا عشر ألف دينار فأخرجها إلى الرشيد وهو عليها فلما رآها أنكره وقال : ويلك ياحمويه من أين لك هذا ، وما وليتك عملاً تكسب فيه مثله ولا وصل إليك مني هذا القدر ، فصدقه من أمره فبعث الرشيد إلى أصحاب الجواهر فأحضرهم واشترى الجوهر منهم ووهبه لها ثم حلف أن لا تسأله في يومه ذلك حاجةً إلا قضاها فسألته أن يولي حمويه الحرب والخراج بفارس سبع سنين ففعل ذلك و كتب له عهده به وشرط على وليّ العهد بعده أن يتمها له إن لم تتمم في حياته .

وما استُهْتِر بالغناء الخلفاء وحدهم أو عمالهم وإنما إستفاض الميل إليه في كل

---

(٣) الجزء ١٥ الصفحة ٧٦

الطبقات حتى فتن الرجال والنساء به معاً . قال ابن جعدبة(١)

كان ابن أبي عتيق معجباً بعزة الميلاء فأتى يوماً عند عبد الله بن جعفر فقال له : بأبي أنت وأمي ، هل لك في عزة فقد اشتقت اليها قال : لا ، أنا اليوم مشغول فقال: بأبي أنت وأمي ، انها لاتنشط إلا بحضورك فأقسمت عليك الاساعدتني وتركت شغلك ففعل فأتياها ورسول الأمير على بابها يقول لها : دعي الغناء فقد ضجّ أهل المدينة منك وذكروا أنك قد فتنت رجالهم ونساءهم فقال له ابن جعفر : إرجع إلى صاحبك فقل له عني أقسم عليك لاّ ناديت في المدينة أيما رجل فسد أو إمراة فتنت بسبب عزة إلا كشف نفسه بذلك لنعرفه ويظهر لنا ولك أمره فنادى الرسول فما أظهر أحد نفسه .

وقد كان بعض الولاة يضطرون إلى تحريم الغناء بسبب كثرة السفهاء والمعربدين. حرمّ خالد بن عبد الله القسري الغناء بالعراق في أيامه(٢) ثم أذن للناس يوماً في الدخول عليه فدخل اليه حنين ومعه عود تحت ثيابه فقال : أصلح الله الأمير كانت لي صناعة أعود بها على عيالي فحرّمها الأمير فأضرّ ذلك بي وبهم فقال : وما صناعتك ، فكشف عن عوده وقال :هذا، فقال له خالد: غنّ فحرّك أوتاره وغنّى :

أيها الشامت المعير بالدهر	أأنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيام	بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلّدن أم من	ذا عليه من أن يضام خفير

قال : فبكى خالد وقال قد أذنت لك وحدك خاصة فلا تجالس سفيهاً ولا معربداً فكان إذا دعي قال : أفيكم سفيه أو معربد فاذا قيل له : لا ، دخل .

وكما حرّموا الغناء لكثرة السفهاء والمعربدين فقد كانوا ينفون المغنين ، قال أبو الفرج(٣) :

---

(١) الجزء ١٦ الصفحة ١٨

(٢) الجزء ٢ الصفحة ١١٩

(٣) الجزء ٢ الصفحة ١٢٦

أخبرني ابن عبد العزيز الجوهري وإسمعيل بن يونس قالا: حدّثنا عمر بن شبّة قال: حدّثني إسحق بن إبراهيم قال: ان معبداً وابن سريج والغريض إجتمعوا بمكة ذات ليلة فقالوا هلمّ نبك أهل مكة ووجدت هذا الخبر بغير إسناد مروياً عن يونس الكاتب ان أميراً من أمراء مكة أمر باخراج المغنين من الحرم فلما كان في الليلة التي عزم بهم على النفي في غدها اجتمعوا على أبي قُبَيْس وكان معبد قدزارهم فبدأ معبد فغنّى ، كذا رُوي عن يونس ولم يذكره الباقون :

أتربيّ من أعلى معدّ هديتما | أجدّا البكا إن التفرق باكر
فما مكثنا دام الجميل عليكما | بنهلان الاّ أن تزم الأباعر

فتأوه أهل مكة وأنّوا وتمخّطوا واندفع الغريض يغني :

أيها الرائح المجد ابتكارا | قد قضى من تهامة الأوطارا

فارتفع البكاء والنحيب واندفع ابن سريج يغني :

جدّدي الوصل يا قُرَيْب وجودي | لمحب فراقه قد ألما
ليس بين الحياة والموت إلا | أن يردوا جمالهم فتزما

فارتفع الصراخ من الدور بالويل والحزن ، قال يونس في خبره : وإجتمع الناس إلى الأمير فاستعفوه من نفيهم فأعفاهم .

ولم يكتف الولاة بنفي المغنين فكانوا في بعض الأحوال يحبسونهم .

حدّث خالد بن كلثوم قال :(١) كنت مع زَبْراء بالمدينة وهو وال عليها وهو من بني هاشم أحدُ بني ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب فأمر بأصحاب الملاهي فحبسوا وحبس عَطَرّد فيهم فجلس ليعرضهم وحضر رجال من أهل المدينة شفعوا العطرد وأخبروه أنه من أهل الهيئة والمروءة والنعمة والدين فدعا به فخلّى سبيله وأمره برفع حوائجه إليه فدعا له وخرج فاذا هو بالمغنين أحضروا ليعرضوا فعاد اليه عَطَرّد فقال : أصلح الله الأمير أعلى الغناء حبست هؤلاء قال : نعم ، قال : فلا تظلمهم

(١) الجزء ٣ الصفحة ٩٥

فوالله ما أحسنوا منه شيئاً قط فضحك وخلى سبيلهم .

ولمّا لم ينفع التحريم والنفي والحبس عمد بعض الولاة إلى شي آخر، حدث جرير قال :(١)

أخذ بعض ولاة المدينة المغنين والمخنثين والسفهاء بلزوم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان في المسجد رجل ناسك يكنى أبا جعفر مولى لابن عياش بن أبي ربيعة المخزومي يقرئ الناس القرآن وكان ابن عائشة يلازمه فخلا لابن عائشة يوماً الموضع مع أبي جعفر فقرأ له فطرب ورجع فسمع الشيخ صوتاً لم يسمع مثله قط فقال له : يا ابن أخي أفسدت نفسك وضيعتها فلو أنك لزمت المسجد وتعلمت القرآن لأممت للناس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان ولأصبت بذلك من الولاة خيراً فوالله مادخل أذني قط صوت أحسن من صوتك فقال ابن عائشة: فكيف لوسمعت يا أبا جعفر صوتي في الأمر الذي صنع له قال: وما هو قال: انطلق معي حتى أسمعكه فخرج معه إلى ميضأة ببقيع الغرقد عند دار المغيرة ابن شعبة وكان أبو جعفر يتوضأ عندها كل يوم فاندفع ابن عائشة يغني :

الآن أبصرت الهدى وعلا المشيب مفارقي

فبلغ ذلك من الشيخ كل مبلغ وقال : يا ابن أخي هـذا أحسن وأنا أشتهي أن أسمعه ولكن لا أطلبه ولا أمشي اليه ، قال ابن عائشة فعلي أن أسمعكه فكان يرصده فاذا خرج أبو جعفر يتوضأ خرج ابن عائشة في إثره حتى يقف خلف جدار الميضأة بحيث يسمع غناءه فيغنيه أصواتاً حتى يفرغ أبو جعفر من وضوئه فلم يزل يفعل ذلك حتى أطلقوا من لزوم المسجد .

وهكذا نجد الغناء قد أنتشر في الحجاز والعراق انتشاراً ألجأ بعض الولاة إلى تحريمه أحياناً أو الى نفي المغنين وحبسهم أحياناً أو إلى أخذهم بلزوم المساجد .

وبلغ من إهتمام أهل الحجاز بالغناء أن المغنين كانوا يجتمعون في بيت في

---

(١) الجزء ٢ الصفحة ٦٥

مكة(١) فكأنّ هذا البيت كان بمنزلة : معهد موسيقي على لغة هذا العصر ، ولمعبد قصة في هذا البيت مشهورة يرجع اليها من شاء .

أما بلاد الشأم فقد كان الميل إلى الغناء فيها ضعيفاً فكان الخلفاء يوجهون إلى المغنين إلى الحجاز فيحضرونهم وقد دوّن لنا أبو الفرج خبرين يدلاّن على ذوق أهل دمشق وأهل حمص في الغناء، قال معبد :(٢)

أرسل إليّ الوليد بن يزيد فأشخصت اليه فبينا أنا يوماً في بعض حمامات الشام إذ دخل عليّ رجل له هيبة ومعه غلمان فأطلي واشتغل به صاحب الحمام عن سائر الناس فقلت والله لئن لم أطلعْ هذا على بعض ما عندي لأكونن بمزجر الكلب فاستدبرته حيث يراني ويسمع مني ثم ترنمت فالتفت إليّ وقال للغلمان : قدموا اليه ما ههنا فصار جميع ما كان بين يديه عندي قال ثم سألني أن أسير معه إلى منزله فأجبته فلم يدع من البر والاكرام شيئاً إلا فعله ثم وضع النبيذ فجعلت لا آتي بحسن الا خرجت إلى ماهو أحسن منه وهو لا يرتاح ولا يحفل لما يرى مني فلما طال عليه أمري قال : ياغلام، شيخنا شيخنا! فأتى بشيخ فلما رآه هشّ اليه فأخذ الشيخ العود ثم اندفع يغني :

سلور في القدر ويلي علوه   جاء القط أكله ويلي علوه

السلور السمك الجرّي بلغة أهل الشام قال : فجعل صاحب المنزل يصفّق ويضرب برجله طرباً وسروراً قال ثم غناه :

وترميني حبيبة بالدراقن   وتحسبني حبيبة لا أراها

الدراقن اسم الخوخ بلغة أهل الشام ، قال فكاد أن يخرج من جلده طرباً قال وأنسللت منهم وانصرفت ولم يعلم ما بي فما رأيت مثل ذلك اليوم قط غناء أضيع ولا شيخاً أجهل .

---

(١) الجزء ١ الصفحة ٢٦

(٢) الجزء ١ الصفحة ٢٦

ولا يرتفع ذوق أهل حمص في الغناء عن ذوق أهل دمشق قال حنين :(١)

خرجت إلى حمص ألتمس الكسب بها وأرتاد من أستفيد منه شيئاً فسألت عن الفتيان وأين يجتمعون فقيل لي عليك بالحمامات فانهم يجتمعون بها إذا أصبحوا فجئت إلى أحدها فدخلته فاذا فيه جماعة منهم فأنست وانبسطت وأخبرتهم أني غريب ثم خرجوا وخرجت معهم فذهبوا بي إلى منزل أحدهم فلما قعدنا أتينا بالطعام فأكلنا وأتينا بالشراب فشربنا فقلت لهم : هل لكم في مغن يغنيكم قالوا ومن لنا بذلك قلت : أنا لكم به ، هاتوا عوداً فأتيت به فابتدأت في هنات أبي عبّاد معبد فكأنما غنيت للحيطان لا فكهوا لغنائي ولا سروا به فقلت ، ثقل عليهم غناء معبد لكثرة عمله وشدته وصعوبة مذهبه فأخذت في غناء الغريض فاذا هو عندهم كلا شيء وغنيت خفائف ابن سريج وأهزاج حكم والأغاني التي لي واجتهدت في أن يفهموا فلم تحرك من القوم أحد وجعلوا يقولون : ليت أبا مُنبه قد جاءنا فقلت في نفسي : أرى أني سأفتضح اليوم بأبي منبه فضيحة لم يفتضح أحد قط مثلها فبينا نحن كذلك اذ جاء أبو منبه وإذا هو شيخ عليه خفان أحمران كأنه جمّال فوثبوا جميعاً اليه وسلموا عليه وقالوا : ياأبا منبه أبطأت علينا وقدموا له الطعام وسقوه أقداحاً وخنست أنا حتى صرت كلا شيء خوفاً منه فأخذ العود ثم اندفع يغني :

طرب البحر فاعبري ياسفينه	لاتشقي على رجال المدينه

فأقبل القوم يصفقون ويطربون ويشربون ثم أخذفي نحو هذا من الغناء فقلت في نفسي : أنتم ههنا ! لئن أصبحت سالماً لا أمسيت في هذه البلدة فلما أصبحت شددت رحلي على ناقتي واحتقبت ركوة من شراب ورحلت متوجهاً إلى الحيرة وقلت :

ليت شعري متى تخبّ بي النا	قة بين السدير والصنين
مُحْقِباً ركوة وخبزُ رقاق	وبقولا وقطعةً من نون
لست أبغي زادا سواها من الشّـ	ـام وحسبي عُلالة تكفيني
فاذا أبت سالماً قلت سحقاً	وبعاداً لمعشرٍ فارقوني

❀❀❀

(١) الجزء ٢ الصفحة ١١٩

مواكب الحج

الحج جزء من ديننا واجتماعنا وأدبنا ، فاذا جعلت له فصلا خاصاً سميته: مواكب الحج فهذا سببه أن له صلة قوية باجتماعنا وأدبنا في القديم ، وقد تتبع أخباره أبو الفرج في كتاب الأغاني فذكر عنه أشياء كثيرة ، ولكنه ذكرها في مواطن مبعثرة في كتابه ، فجمعت هذه الأشياء في فصل واحد حتى يسهل على الذهن إدراكها والاحاطة بها ، ولولا أخبار الحج التي رواها في الأغاني لفاتتنا أمور غير يسيرة من حياتنا الاجتماعية في الماضي ، ولدقّ على أفهامنا شعر كثير من شعرائنا الذين استلهموا الحج واستوحوه .

اني لا أتعرض للحج في هذا المقام من ناحية الدين فهذا خارج عن موضوعي ، ولكني لا أرى مندوحة عن الاشارة إلى طبيعة مكة قبل الخوض في مواكب الحج ، فاذا بحثنا عن الوطن الذي نشأ فيه سيدنا محمد فاننّا نجد أنّ أرض هذا الوطن لم تضحك سماؤها ولا أخضلّ شجرها ولا رفّت حواشيها ولا ماجت أنهارها وإنما نشأ في صفاح جبال سود تُدخل الكآبة على القلوب ، تحت سماء كامدة اللون ، بين صحارى صاهرة الشمس ، لاتأنس فيها العين بخضرة ربيع أو صفرة خريف ولا تنعم فيها الاذن بنوح عندليب أو بحفيف ورق أو بخرير ماء فقد حرم الله سيدنا محمداً محاسن الطبيعة التي تفتح العقول وتلهم العبقريات وتوحي الكمالات .

وعلى الرغم من هذا كله كان سيدنا محمد يحب جباله المظلمة وقفاره الصاهرة وسماءه العابسة وسوآء عليه أرفّت الطبيعة تحت سماء مكة أم كمدت ؛ وسوآء عليه أنضّرت جبالها بالشجر أم جردت تجريداً وسوآء عليه أآذته مكة أم لم تؤذه ، إنه أحبّ كآبتها وظلمتها وكمدتها وأذن في الناس بالحج فأتوها رجالاً وعلى كل ضامر

من كل فج عميق فشهدوا فيها منافع لهم وذكروا اسم الله في أيام معلومات وقضوا تفثهم وأوفوا نذورهم وطوّفوا بالبيت العتيق .

هذه هي طبيعة مكة التي يحج المسلمون اليها فلنبادر إلى الاطلاع على أخبار هذا الحج في القديم .

لاشك في أن المسلمين كانوا يحجون إلى مكة قياماً بأمر كتب عليهم ولاشك في أن أكثرهم كانوا يأتونها ليشهدوا فيها منافع لهم وليذكروا اسم الله في أيام معلومات وليقضوا تفثهم ويوفوا نذورهم ويطوّفوا بالبيت العتيق .

ولكن لابأس بأن نحيط بطائفة من الأمور التي كانت تجري في الحج ، فان هذه الاحاطة تزيد في تصوير الحج من ناحيته الأجتماعية وتعيننا على فهم جزء من شعرنا صدر عن مواكبه .

لقد عرفنا شيئاً من طبيعة مكة ، ولا شك في أن مثل هذه الطبيعة لايمكن ان تكون خصبة فمن جملة حكم الحج جلب الناس إلى مكة وما جاورها في كل سنة حتى ينفقوا فيها من أموالهم وحتى يعيش من هذه الأموال أهلها وهـذه نزعة وطنية بليغة تدلنا على مقدار تعلق سيدنا محمد بوطنه وعلى مبلغ حبه لهذا الوطن فقد فكّر فيه وفي خير أهله كل أيامه ومهد لهم سبيل معاشهم بهذا الحج الذي كتب على المسلمين ، قال أبو الفرج(١) :

أخبرني الحسن بن علي قال : حدّثني حُذَيْفَةُ بن محمد الطائي قال ، حدثني أبو دُلف القاسم بن عيسى العِجْلي قال : حججت فرأيت أبا العتاهية واقفاً على أعرابي في ظل ميل وعليه شملة إذا غطّى بها رأسه بدت رجلاه وإذا غطّى رجليه بدا رأسه فقال له أبو العتاهية : كيف اخترت هذا البلد القفر على البلدان المخصبة فقال له : ياهذا لولا أن الله قنّع بعض العباد بشر البلاد ماوسع خيرُ البلاد جميعَ العباد ، فقال له : فمن أين معاشكم ، فقال : منكم معشر الحاجّ ، تمرون بنا فننال من

---

(١) الجزء ٣ الصفحة ١٦١

فضولكم وتنصرفون فيكون ذلك ، فقال : إنما نمر وننصرف في وقت من السنة فمن أين معاشكم فأطرق الأعرابي ثم قال : لا والله لاأدري ما أقول إلا أننا نرزق من حيث لانحتسب أكثر مما نرزق من حيث نحتسب فولى أبو العتاهية وهو يقول:

ألا ياطالب بالدنيا　　دع الدنيا لشانيكا
وما تصنع بالدنيا　　وظل الميل يكفيكا

هذا الخبر مصداق لما قلت ، فأن أهل مكة وما جاورها كانوا يعيشون من الحج وخيراته ولكن الخبر يشتمل على شيء غير هذا ، فأن الحج أوحى إلى شعرائنا في القديم بعض الشعر ، ولولا ماتناهى إلينا من أخبار هذا الحج لصعب علينا فهم هذا النوع من الشعر ، وفي ذكر بيتي أبي العتاهية دليل على ماقلت .

ولا بأس بأن أذكر شيئاً من الشعر الذي أوحاه الحج إلى فريق من الشعراء. يقول أبو الفرج في أخبار الحرث بن خالد المخزومي انه أحد شعراء قريش المعدودين الغزليين وكان يذهب مذهب ابن أبي ربيعة لايتجاوز الغزل إلى المديح ولا الهجاء وكان يهوى عائشة بنت طلحة بن عبيد الله ويشبب بها .

قدمت عائشة بنت طلحة مكة تريد العُمْرة(١) فلم يزل الحرث يدور حولها وينظر إليها ولا يمكنه كلامها حتى خرجت فأنشأ يقول وذكر في هذه الأبيات بُسْرةَ حاضنتها وكنّى عنها :

يا دار أقفر رسمها　　بين المحصَّب والحجون
أقوت وغيّر آيها　　مرّ الحوادث والسنين
واستبدلوا ظلف الحجا　　ز وسُرّة البلد الأمين
يا بُسر إني فاعلمي　　بالله مجتهداً يميني
ما ان صرفت حبالكم　　فصلي حبالي أوذريني

وهكذا نجد في بعض أخبار الأغاني مايوضح لنا الشعر الذي أوحاه الحج إلى أصحابه .

---

(١) الجزء ٣ الصفحة ١٠٥

ولقد أوحي الحج إلى الحرث بن خالد أكثر من هذه الأبيات فبينا الحرث بن خالد واقف على جمرة العقبة(١) إذ رأى أم بكر وهي ترمي الجمرة فرأى أحسن الناس وجهاً وكان في خدها خال ظاهر فسأل عنها فأخبر بأسمها حتى عرف رحلها ثم أرسل إليها يسألها أن تأذن له في الحديث فأذنت له فكان يأتيها يتحدث اليها حتى انقضت أيام الحج فأرادت الخروج إلى بلدها فقال فيها :

الا قل لذات الخال ياصاح في الخد ... تدوم إذا بانت على أحسن العهد
ومنها علامات بمجرى وشاحها ... وأخرى تزين الجيد من موضع العقد
وترعى من الود الذي كان بيننا ... فما يستوي راعي الأمانة والمبدي
وقل قد وعدت اليوم وعداً فأنجزي ... ولا تخلفي لاخير في مخلف الوعد
وجودي علي اليوم منك بنائل ... ولا تبخلي قدمت قبلك في اللحد
فمن ذا الذي يبدي السرور إذا دنت ... بك الدار أو يُعْنى بنأيكم بعدي
دنوكم منا رخاء ننـاله ... ونأيكم والبعد جهد على جهد
كثيراً إذا دنوا اغتباطي فبك النوى ... ووجدي إذا ما بنتم ليس كالوجد
أقول ودمعي فوق خدي مخضل ... له وشل قد بل تهتانه خدي
لقد منح الله البخيلة ودنا ... وما منحت ودي بدعوى ولا قصد

وطافت ليلى بنت أبي مُرّة بن عُرْوة بن مسعود وأمها ميمونة بنت أبي سفيان ابن حرب بالكعبة(٢) فرآها الحرث بن خالد فقال فيها :

أطافت بنا شمس النهار ومن رأى ... من الناس شمساً بالعشاء تطوف
أبو أمّها أوفى قريش بذمة ... وأعمامها إمّا سألت ثقيف

ولكن أكثر الشعراء أخباراً في الحج إنما هو عمر بن أبي ربيعة .

حجت سُبَيْعة من ولد عبد الرحمن بن ابي بَكْرة(٣) وكانت من أجمل

---

(١) الجزء ٣ الصفحة ١٠٥

(٢) الجزء ٣ الصفحة ١٠٦

(٣) الجزء ٧ الصفحة ١٣٤

النساء فأبصرها عمر بن أبي ربيعة فلما انحدرت إلى العراق اتبعها يشيّعها حتى بلغ معها موضعاً يقال له : الخورنق فقالت له : لو بلغت إلى أهلي وخطبتني لزوجوك فقال لها : ما كنت لأخلط تشبيبي إياك بخطبة ولكن أرجع ثم آتيكم خاطباً فرجع ومرّ بالمدينة فقال فيها :

من البكرات عراقية　　　　تسمى سُبَيْعَة أطربتها

ثم أتى بيت جميلة فسألها أن تغني بهذا الشعر ففعلت فأعجبه ما سمع من حسن غنائها وجودة تأليفها لحسن موقـع ذلك منه فوجّه إلى بعض موالياته ممن كانت تطلب الغناء أن تأتي جميلة وتأخذ الصوت منها ، فطارحتها إياه أياماً حتى حذقت ومهرت به فلما رأى ذلك عمر قال : أرى أن تخرجي إلى سبيعة وتغنيها هذا الصوت وتبلغيها رسالتي ، قالت : نعم ، جعلني الله فداك ، فأتتها فرحّبت بها وأعلمتها الرسالة فحيَّت وأكرمت ثم غنتها فكادت أن تموت فرحاً وسروراً لحسن الغناء والشعر ثم عادت إلى رسول عمر فأعلمته ما كان وقالت له : انها خارجة في تلك السنة فلما كان أوان الحج استأذنت سبيعة أباها في الحج فأبى عليها وقال لها قد حججت حِجة الأسلام ، فقالت له : تلك الحجة هي التي أسهرت ليلي وأطالت نهاري وتوّقتني إلى أن أعود وأزور البيت وذلك القبر وإن أنت لم تأذن لي مت كمداً وغماً وذلك أن بقائي إنما كان لحضور الوقت فان يئست فالموت لاشكّ نازل بي فلما رأى ذلك أبوهـا رقّ لها وقال : ليس يسعني منعها مع ما أرى بها فأذن لها ووافى عمر المدينة ليعرف خبرها فلما قدمت علم بذلك وسألها أن تأتي منزل جميلة وقد سبق اليه عمر فأكرمتها جميـلة وسرّت بمكانها فقالت لها سبيعة : جعلنى الله فداك أقلقني وأسهرني صوتك بشعر عمر فيّ فأسمعيني إياه ، قالت جميلة : وعزازة لوجهك الجميل ! فغنتها الصوت فأغمي عليها ساعة حتى رُشّ على وجهها الماء وثاب إليها عقلها ثم قالت: أعيدي عليّ فأعادت الصوت مراراً في كل مرة يُغشى عليها ثم خرجت إلى مكة وخرج معها فلما رجعت مرّت بالمدينة وعمر معها فأتت جميلة فقالت لها : أعيدي عليّ الصوت ففعلت وأقامت عليها ثلاثاً تسألها أن تعيد الصوت فقالت لها جميلة : اني أريد أن

أغنيك صوتاً فاسمعيه قالت : هاتيه ياسيدتي فغنتها :

أبت المليحة أن تواصلني	وأظن أني زائر رمسي
لاخير في الدنيا وزينتها	مالم توافق نفسها نفسي
لاصبرلي عنها إذا حسرت	كالبدر أو قرن من الشمس
ورمت فوءآدك عندنظرتها	بملاحة الايثار والأنس

قالت سبيعة : لولا أن الأول شعر عمر لقدّمت هذا على كل شيء سمعته ، فقال عمر : فانه والله أحسن من ذلك ، فاما الشعر فلا ، قالت جميلة : صدقت والله .

كان عمر يقدم ويعتمر في ذي القعدة(١) ويحل ويلبس تلك الحُلل الوشي ويركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القطوع والديباج ويسبل لمته ويلقى العراقيات فيما بينه وبين ذات عرق محرمات ويتلقى المدنيات إلى مرّ ويتلقى الشاميات إلى الكيد فخرج يوماً للعراقيات فاذا قبة مكشوفة فيها جارية كأنها القمر تعادلها جارية سوداء كالسبجة فقال للسوداء : من أنت ومن أين أنت ياخالة ، فقالت لقد أطال الله تعبك إن كنت تسأل هذا العالم من هم ومن أين هم ؟ قال: فأخبريني عسى أن يكون لذلك شأن قالت : نحن من أهل العراق ، فاما الأصل والمنشأ فمكة وقد رجعنا إلى الأصل ورحلنا إلى بلدنا فضحك فلما نظرت إلى سواد ثنيتيه قالت : قد عرفناك ، قال : ومن أنا ، قالت: عمر بن أبي ربيعة قال : وبم عرفتيني، قالت: بسواد ثنيتيك وبهيئتك التي ليست الا لقريش ، فأنشأ يقول :

قلت من أنتم فصدّت وقالت	أمبد سؤالك العالمينا

وذكر الأبيات ، فلم يزل عمر بها حتى تزوجها وولدت له ، أما الأبيات فهذه هي(٢) :

نحن من ساكني العراق وكنّا	قبله قاطنين مكة حينا

---

(١) الجزء ١ الصفحة ٨٦

(٢) الجزء ١ الصفحة ٨٤

قد صدقناك إذ سألت فمن أنـ ـتَ عسى أن يجرّ شأن شؤونا
وترى أننا عرفناك بالنعـ ـت بظنٍ وما قبلنا يقينـــا
بسواد الثنيتين ونعت قد نراه لناظر مستبينا

فلهذا الشعر صلة بالحج ، قاله عمر في الجارية التي كأنها القمر وهي إمرأة من جُمَح(١) كان أبوها من أهل مكة فولدت له جارية لم يولد مثلها بالحجاز حسناً فقال أبوها كأني بها وقد كبرت فتشبب بها عمر بن أبي ربيعة وفضحها ونوّه باسمها كما فعل بنساء قريش والله لا أقمت بمكة فباع ضيعة له بالطائف ومكة ورحل بابنته إلى البصرة فأقام بها وابتاع هناك ضيعةً ونشأت ابنته من أجمل نساء زمانها ومات أبوها فلم تر أحداً من بني جمح حضر جنازته ولا وجدت لها مسعداً ولا عليها داخلا فقالت لداية لها سوداء : من نحن ومن أي البلاد نحن، فخبرتها فقالت : لا جرم والله لا أقمت في هذا البلد الذي أنا فيه غريبة فباعت الضيعة وخرجت في أيام الحج وكان من أمرها مع عمر بن أبي ربيعة ما كان مما تقدمت الاشارة اليه .

هذا شيء مما كان يجري في الحج بين بعض الشعراء وبين بعض النساء ومنه يتبين لنا ان الشعراء كانوا يجدون في الحج فرصة تمكنهم من اظهار هيئاتهم وزينتهم للتعرض للنساء والتشبيب بهن حتى كان بعض الناس يخافون الفضيحة فيهربون ببناتهم من مكة إلى البصرة أو إلى غيرها من المدن فكما أن الحج جزء من ديننا فكذلك نجده جزءاً من أدبنا تعيننا جملة من أخباره على فهم هذا الأدب .

وقد كان الخلفاء أنفسهم يخافون تعرض الشعراء لبناتهم والتشبيب بهن .

حجت بنت لعبد الملك بن مروان(٢) فكتب الحجاج إلى عمر بن أبي ربيعة يتوعده إن ذكرها في شعره بكل مكروه وكانت تحب أن يقول فيها شيئاً وتتعرض لذلك فلم يفعل خوفاً من الحجاج فلما قضت حجها خرجت فمرّ بها رجل فقالت له : من

---

(١) الجزء ١ الصفحة ٨٥
(٢) الجزء ٢ الصفحة ١٢٤

أنت قال : من أهل مكة ، قالت : عليك وعلى أهل بلدك لعنة الله، قال : ولم ذاك ، قالت : حججتُ فد خلت مكة ومعي من الجواري مالم تر الأعين مثلهن فلم يستطع الفاسق ابن أبي ربيعة أن يزودنا من شعره أبياتاً نلهو بها في الطريق في سفرنا قال: فانني لا أراه الا قد فعل قالت: فأتنا بشيء ان كان قاله ولك بكل بيت عشرة دنانير فمضى اليه فأخبره فقال : لقد فعلت ولكن أحب ان تكتم عليّ ،قال: افعل فأنشده:

راع الفؤاد تفرق الأحباب يوم الرحيل فهاج لي اطرابي

وهي طويلة وأنشده :

هاج قلبي تذكر الأحباب واعترتني نوائب الاطراب

وهي طويلة أيضاً : فعاد اليها الرجل فأنشدها هاتين القصيدتين فدفعت اليه ماوعدته به .

وكما كان الحج جزءاً من حياتنا الأدبية فكذلك كان جزءاً من حياتنا الاجتماعية حدّث بعض أهل أبي عبد الله الزبيري قال[1] :

حججنا فلما كنا بجمع سمعنا صوتاً لم نسمع أحسن منه ولا أشجى فأصغى الناس كلهم اليه تعجباً من حسنه فسألت: من هذا الرجل ، فقيل لي الغريض فتتابع جماعة من أهل مكة فقالوا مانعرف اليوم أحداً أحسن غناء من الغريض ويدلك على ذلك انه يعترض بصوته الحاج وهم في حجهم فيصغون اليه فسألوا الغريض عن ذلك فقال : نعم ، فسألوه أن يغنيهم فأجابهم وخرج فوقف حيث لا يرى ويسمع صوته فترنم ورجع صوته وغنّى في شعر عمر ابن ابي ربيعة :

أيهـــا الرائح المجد ابتكارا قد قضى من تهامة الأوطار

فما سمع السامعون شيئاً كان أحسن من ذلك الصوت وتكلم الناس فقالوا : طائفة من الجن حجّاج .

---

(١) الجزء ٢ الصفحة ١٢٥

وكان ابن سريج عند بستان ابن عامر يغني(١) :

لمن نار بأعلى الخيـ ـف دون البئر ما تخبو

أرقت لذكر موقعها فحن لذكرها القلب

إذا ما أخمدت ألقى عليها المندل الرطب

فجعل الحاج يركب بعضهم بعضا حتى جاء انسان من آخر القطرات فقال ياهذا قد قطعت على الحاج وحبستهم والوقت قد ضاق فاتق الله وقم عنهم فقام وسار الناس .

وربما غنى ابن سريج صوتاً على جمرة العقبة فقطع طريق الذاهب والجائي حتى تكسرت المحامل(٢) .

وخرج ابن جامع وعمرو بن أبي الكنات حين دفعا من عرفة حتى اذا كانا بين المأزمين جلس عمرو على طرف الجبل ثم اندفع يغني فوقف القطارات وركب الناس بعضهم بعضاً حتى صاحوا واستغاثوا: ياهذا! الله ، الله ! اسكت عنها يجز الناس فضبط إسماعيل بن جامع بيده على فيه حتى مضى الناس إلى مزدلفة(٣)

ووقف ابن عائشة في الموسم(٤) فمر به بعض أصحابه فقال له : ماتعمل، فقال : انني لأعرف رجلا لو تكلم لحبس الناس فلم يذهب أحد ولم يجيء فقال له : ومن هذا الرجل، قال : أنا، ثم اندفع يغني :

جرت سنحاً فقلت لها أجيزي نوى مشمولة فمتى اللقاء

بنفسي من تذكره سقام أعالجه ومطلبه عناء

قال : فحبس الناس واضطربت المحامل ومدت الابل أعناقها وكادت الفتنة تقع .

---

(١) الجزء ١ الصفحة ١٢٢

(٢) الجزء ١ الصفحة ١٥٧

(٣) الجزء ١٨ الصفحة ١٢٧

(٤) الجزء ١٨ الصفحة ١٢٧

غزل وغناء ، هذا بعض ما كان يجري في مواسم الحج ولولا أبو الفرج لما استطعنا أن نلم بأخبار من هذا النوع ، إنه لم يتتبع أخبار الحج من نواحي القيام بما فرضه الاسلام على الحاج لأن ذكر أشباه هذه الأخبار من بداهة الأمور فالمسلمون يأتون مكة رجالا وعلى كل ضامر من كل فج عميق فيشهدون فيها منافع لهم ويذكرون إسم الله في أيام معلومات ويقضون تفثهم ويوفون نذورهم ويطوفون بالبيت العتيق، فاذا تتبع أبو الفرج أخبار المسلمين من هذه الجهة فلا يأتي بشيء طريف ، ولكنه أراد أن يعرف ما يجري في الحج من الأمور التي لا يصل علمها إلى كل واحد ، أراد أن يصور شكلا من حياة المسلمين في الحج في غزلهم وغنائهم فذكر من هذه الحياة ما يضيء لنا بعض الظلمات ، وهكذا نجده في مجامع أخباره يهتم بما لا يمكن الوقوف عليه في كل كتاب وسواء أتكلم على الحرية والعبودية أم تكلم على لهو الخلفاء وتبذيرهم أم تكلم على شيء من الحياة الاجتماعية إنه لا يذهب إلا إلى طرائف الأمور ولا شك في أنا نرى في مذاهبه ما يتمم تاريخنا ويوضحه ويلقي ضياء عليه .

ولا بأس بعد هذا كله بأن نشهد بعض مواكب الملوك والخلفاء في الحج .

قال أبو عمرو الشيباني(١)

لما أسلم جبَلَةَ بن الأيهم الغساني وكان من ملوك جفنة كتب إلى عمر رضي الله عنه يستأذنه في القدوم عليه فأذن له فخرج اليه في خمسمائة من أهل بيته من عك وغسّان حتى إذا كان على مرحلتين كتب إلى عمر يعلمه بقدومه فسرّ عمر رضوان الله عليه وأمر الناس باستقباله وبعث اليه بأنزال وأمر جبَلَةَ مائتي رجل من أصحابه فلبسوا السلاح والحرير وركبوا الخيول معقودة أذنابها وألبسوها قلائد الذهب والفضة ولبس جبلة تاجه وفيه قُرْطا مارية وهي جدّته ودخل المدينة فلم يبق بها بكر ولا عانس إلا تبرّجت وخرجتْ تنظر اليه وإلى زيه فلما انتهى إلى

---

(١) الجزء ١٤ الصفحة ٤

عمر رحَّب به وألطفه وأدنى مجلسه ثم أراد عمر الحج فخرج معه جبلة فبينا هو يطوف بالبيت وكان مشهوداً بالموسم إذ وطئ إزاره رجلٌ من بني فزارة فانحلّ فرفع جبلة يده فهشم أنف الفزاري فاستعدى عليه عمر رضوان الله عليه فبعث إلى جبلة فأتاه فقال: ماهذا، قال: نعم ياأمير المؤمنين انه تعمد حلّ إزاري ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف، فقال له عمر: قد أقررت! فاما أن تُرضي الرجل وإما أن أقيده منك، قال جبلة: ماذا تصنع بي، قال: آمر بهشم أنفك كما فعلت قال: وكيف ذلك ياأمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك، قال: إن الاسلام جمعك وإياه فلست تفضله بشيء إلا بالتقوى والعافية، قال جبلة: قد ظننت ياأمير المؤمنين انني أكون في الاسلام أعز مني في الجاهلية، قال عمر: دع عنك هذا فانك إن لم ترضي الرجل أقدته منك، قال: إذاً أتنصر قال: إن تنصرت ضربت عنقك لانك قد أسلمت فان ارتددت قتلتك، فلما رأى جبلة الصدق من عمر قال: أنا ناظر في هذا ليلتي هذه وقد اجتمع بباب عمر من حيّ هذا وحيّ هذا خلق كثير حتى كادت تكون بينهم فتنة فلما أمسوا أذن له عمر في الانصراف حتى إذا نام الناس وهدأوا فحمل جبلة بخيله ورواحله إلى الشام فأصبحت مكة وهي منهم بلاقع فلما انتهى إلى الشام تحمل في خمسمائة رجل من قومه حتى أتى القسطنطينية فدخل إلى هرْقل فتنصر هو وقومه فسرّ هرقل بذلك جداً وظن أنه فتح من الفتوح عظيم وأقطنه حيث شاء وأجرى عليه من النزل ماشاء وجعله من محدثيه وسمّاره.

ليس في هذا الخبر مايلفت الذهن اليه إلا موكب جبلة وتظهر على هذا الموكب آثار نزعة نسميها في هذا العصر «ارستوقراطية» ولا نشك في أن هذه الآثار انتقلت إلى جبلة من الروم في دمشق فقد كانت مواكب ملوكهم فيها مشهورة ونظن أن معاوية لما كان عاملا على دمشق ثم ولي الخلافة مشى على آثار الروم في مواكبهم.

ولكن في الخبر شيئاً آخر يهمنا فان جبلة لما دخل المدينة لم يبق فيها بكر ولا عانس إلا تبرّجت وخرجت تنظر اليه وإذا عرفنا شدة عمر رضي الله عنه في خلافته

استغربنا هذا التبرج في أيامه فمعنى هذا أن التبرج ظهر على الرغم من شدته .

أما معاوية فالذي نعرفه من مواكبه أنه حج حجتين في خلافته وكانت له ثلاثون بغلة يحج عليها نساؤه وجواريه(١)

ويظهر أن بغلات معاوية الشهب اللواتي كان يحج عليهن كانت مشهورة في أيامه فان عبد الله بن الزبير(٢) لما شمّر للأمر الذي أراده ولبس المعافري وشبر بطنه وقال انما بطني شبر وما عسى أن يسع الشبر وجعل يظهر عيب بني أمية ويدعو إلى خلافهم مضى إلى صفية بنت أبي عبيد الله زوجة عبد الله بن عمر فذكر لها أن خروجه كان غضباً لله تعالى ورسوله عليه السلام والمهاجرين والأنصار من أثرة معاوية وابنه وأهله بالفيء وسألها مسئلته أن يبايعه فلما قدمت له عشاءه ذكرت له أمر ابن الزبير واجتهاده وأثنت عليه وقالت : مايدعو الا ّ إلى طاعة الله جلّ وعزّ وأ كثرت القول في ذلك فقال لها : أما رأيت بغلات معاوية اللواتي كان يحج عليهن الشهب فان ابن الزبير ماير يد غيرهن !

وهكذا نجد بغلات معاوية في الحج قد بلغت من الشهرة مبلغا جعلت ابن الزبير يشمّر للخلافة طمعاً فيها .

وحج هشام بن عبد الملك وعديله الأبرش الكلبي(٣) فوقف له حنين بظهر الكوفة معه عوده وزامر له وعليه قُلنْسية طويلة فلما مرّ به هشام عرض له فقال: من هذا، فقيل: حنين، فأمر به فحمل في محمل على جمل وعديله زامره وسير به أمامه وهو يتغنّى :

أمن سُلمى بظهر الكوفة الآيات والطللُ

يلوح كما تلوح على جفون الصيقل الخِلل

---

(١) الجزء ٣ الصفحة ١٨

(٢) الجزء ١ الصفحة ١١

(٣) الجزء ٢ الصفحة ١١١

فأمر له هشام بمائتي دينار وللزامر بمائة .

فهذا يدلنا على أن الخلفاء أنفسهم كانوا يهتمون بقطع طريق الحج بسماع الغناء ولا يرون بأساً بذلك .

ولما حج سليمان بن عبد الملك (١) سبق بين المغنين ببدرة فجاء ابن سريج وقد أغلق الباب فلم يأذن له الحاجب فأمسك حتى سكتوا وغنى :

سرى همي ، وهمُّ المرء يسري ...

أما حج الوليد بن يزيد فقد وصل الينا من مواكبه مايلي (٢) :

جلس الأبجر ومعه من المغنين في ليلة اليوم السابع من أيام الحج على قريب من التنعيم فاذا عسكر جرّار قد أقبل في آخر الليل وفيه دواب تُجنَب وفيها فرس أدهم عليه سرج حاشيته ذهب فاندفع فغنّى :

عرفت ديار الحي خالية قفرا   كأن بها لمّا توهمتها سطرا

فلما سمعه من في القباب والمحامل أمسكوا وصاح صائح : ويحك أعد الصوت فقال: لا والله إلا بالفرس الأدهم بسرجه وأربعمائة دينار فاذا الوليد بن يزيد صاحب الابل فنودي: أين منزلك ومن أنت فقال: أنا الأبجر ومنزلي على باب زقاق الخرّازين فغدا عليه رسول الوليد بذلك الفرس وأربعمائة دينار وتخت من ثياب وشي وغير ذلك ثم أتى به الوليد فأقام عنده وراح مع أصحابه عشية التروية وهو أحسنهم هيئة وخرج معه أو بعده إلى الشام .

وقد أمر هشام الوليد بالحج ليهتكه عند أهل الحرم فيجد السبيل إلى خلعه فظهر منه أكثر مما أراد به من التشاغل بالمغنين واللهو .

هذه جملة من أخبار حج بني أمية ومنها يتبين لنا أن خلفاءهم لم يقلّ اهتمامهم بالغناء في مواسم الحج .

---

(١) الجزء ١ الصفحة ١٢٢
(٢) الجزء ٣ الصفحة ١١٢

أمَّا بنو العباس فقد حدّث زحرُ بن حصن قال(١):

حج النصور فاستقبلناه بالرَضم بين زُبالة والشقوق فلما رحل من الشقوق رحل في وقت الهاجرة فلم يركب القبة وركب نجيباً فسار بيننا فجعلت الشمس تضحك بين عينيه فقال: اني قائل بيتاً فمن أجازه وهبتله جبّتي هذه، فقلنا: يقول أمير المؤمنين، فقال:

وهاجرة نصبت لها جبيني	يقطع ظهرها ظهر العظايه

فبدر بشّار الأعمى فقال:

وقفت بها القلوص ففاض دمعي	على خدي وأقصر واعظايه

فنزع الجُبَّة وهو راكب فدفعها اليه فقلت لبشار بعد ذلك: ما فعلت بالجبة، فقال بشار: بعتها والله باربعمائة دينار.

فالمنصور كان اهتمامه في الحج بالشعر بدلا من أن يكون اهتمامه بالغناء.

ولما ولي المهدي الخلافة وحج(٢) فرّق في قريش والأنصار وسائر الناس أموالا عظيمة ووصلهم صلات سنية فحسنت أحوالهم بعد جهد أصاب الناس في أيام أبيه لتسرحهم مع محمد بن عبد الله بن حسن وكانت سنة ولايته سنة خصْب ورُخص فأحبه الناس وتبركوا به وقالوا: هذا هو المهدي وهذا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسميه، فلقوه ودعوا له وأثنوا عليه ومدحته الشعراء فمدّ عينه في الناس فرأى ابن المولى فأمر بتقريبه فقرُب منه فقال له: هات يامولى الأنصار ماعندك فأنشده:

ياليل لا تبخلي، ياليلَ بالزاد	واشفي بذلك داء الحائم الصادي
وأنجزي عدةً كانت لنا أملا	قد جاء ميعادها من بعد ميعاد
ماضرّه غير أنْ أبدى مودته	إن المحب هواه ظاهر باد

---

(١) الجزء ٣ الصفحة ٣٨

(٢) الجزء ٣ الصفحة ٩١

ثم قال فيها يصف ناقته :

تطوي البلاد إلى جمّ منافعه	فعّال خير لفعل الخير عوّاد
للمهتدين إليه من منافعه	خير يروح وخير با كر غاد
أغنى قريشاً وأنصار النبي ومن	بالمسجدين باسعاد واحفاد
كانت منافعه في الأرض شائعة	تترى وسيرته كالماء للصادي
خليفة الله عبد الله والده	وأمّه حرة تنمى لأمجاد
من خير ذي يمن في خير رابية	من القبول اليها معقل النـاد

حتى أتى على آخرها فأمر له بعشرة الاف درهم وكسوة وأمر صاحب الجاري بأن يجري له ولعياله في كل سنة مايكفيهم وألحقهم في شرف العطاء .

❀❀❀

محاكمات

هذا آخر ماأحببت أن أشير اليه من موضوعات كتاب الأغاني الاجتماعية ، وأظن أنه قد رسخت في أذهاننا صورة هذا الكتاب فأدركنا بعض الادراك مايشتمل عليه من عظائم الأمور ، ولم يبق الا أن أتكلم على بعض مذاهب النقد فيه وعلى لغة صاحبه وفنه ، ولكني قبل الخوض في هذه الموضوعات الفنية أعرض لشيء من محاكمات التأريخ .

أهدى إليّ أستاذ في كلية الآداب في الجزائر أخبار الراضي بالله والمتقي بالله لمحمد بن يحيى الصولي وقد ترجمها الى اللغة الفرنسية وجعل لها مقدمة ، قال في جملة هذه المقدمة : لايهتم الصولي الا بخواص الأمور وتفاصيلها وهذا شأن المؤرخين العرب ، انه لا يُعنى بالوصول إلى الروح العميق في الحوادث وبتفسير هذا الروح بالبحث عن الأسباب والعلل .

لقد رأيت في هذا الكلام شيئاً من الصواب ويسهل علينا إثبات رأي الأستاذ « كانار » وهو صاحب الترجمة التي أشرت اليها ، فكتاب الأغاني فيه أشياء كثيرة من خواص أمور الخلفاء والأمراء والعمال ومن تفاصيلها ولكن المؤرخين إذا بحثوا عن الحوادث الجسيمة أهملوا البحث عن أسبابها وعللها وقد تكون هذه الأسباب والعلل في خواص الأمور وتفاصيلها التي أهملوها فاذا أردنا أن نبحث عن ضعف بني العباس في آخر سلطانهم وعن الأحداث التي حدثت في خلال هذا الضعف كالفتن في بغداد والسلب والنهب والقتل والحرق والجوع والغلاء واستياء الناس وثورتهم وغير ذلك ، والخلاصة إذا أردنا أن نشرح التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في آواخر بني العباس لزمنا أن نرجع الى أمورهم الخاصة وإلى تفاصيلها حتى نهتدي إلى بعض الأسباب في ضعفهم الذي أدى إلى كل هذه الأحداث .

لا أريد أن أقول ان مظاهر اللهو والتبذير التي شهدنا طائفة منها كانت السبب في الأحداث التي حدثت في بغداد في أواخر بني العباس وإنما الذي أريد أن أقوله ان هذه المظاهر كانت مقدمة لانحلال بني العباس وانقراضهم فلما ضعفوا هـذا الضعف في آخر دولتهم حدث ماحدث ، فليس من المنطق في شيء أن يسترسل الخلفاء والأمراء والعمال في هذا النحو من التبذير الذي عرض علينا أبو الفرج جملةً من مظاهره وأن يسكت الناس عنهم وإذا لم يستطيعوا أن يعلنوا غضبهم على هذا الطراز من الحياة فقد أخفوه ولكن هذا الاخفاء لابدّ له من أن ينفجر في يوم من الأيام وقد انفجر في أواخر دولة بني العباس ، ضعفت هذه الدولة فاستطال عليها من استطال ولم تبال العامة بهيبتها و حرمتها و كيف تبالي بهيبة دولة كان عظماء خلفائها يقبّلون أرجل الجواري في سكرهم فاذا اعتنينا هذا الاعتناء بأخبار الأغاني في لهو الخلفاء وتبذيرهم فانما نعتني لأنّنا نرى في هذا اللهو والتبذير سبباً قويا من أسباب زوال بني أمية وبني العباس .

وقد تجرّد ابن خلدون في مقدمته للدفاع عن الرشيد والمأمون فحكى بعض حكايات رواها المؤرخون في سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه ثم قال :

وأما ما تموه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان فحاشى لله ما علمنا عليه من سوء وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء ومحاوراته للفضيل بن عياض والسماك وابن العمري ومكاتبته سفيان الثوري وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأول وقتها ، حكى الطبري وغيره أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة وكان يغزو عاما ويحج عاماً ولقد زجر ابن أبي مريم مضحكه في سمره حين تعرض له بمثل ذلك في الصلاة لما سمعه يقرأ : وما لي لا أعبد الذي فطرني وقال : والله ما أدري لمَ ، فما تمالك الرشيد أن ضحك ثم التفت اليه مغضباً وقال : يا ابن

أبي مريم ! في الصلاة أيضاً ، إيَّاك ، إيَّاك والقرآن والدين ولك ماشئت بعدهما وأيضاً فقد كان من العلم والسذاجة بمكان لقرب عهده من سلفه المنتحلين لذلك ولم يكن بينه وبين جده أبي جعفر بعيد زمن إنما خلفه غلاماً ... ثم قال: فكيف يليق بالرشيد على قرب العهد من هذا الخليفة وأبوته وما ربي عليه من أمثال هذه السير في أهل بيته والتخلق بها أن يعاقر الخمر أو يجاهر بها وقد كانت حالة الأشراف من العرب في الجاهلية في اجتناب الخمر معلومة ولم يكن الكرم شجرتهم وكان شربها مذمة عند الكثير منهم والرشيد وآباؤه كانوا على ثبج من اجتناب المذمومات في دينهم ودنياهم والتخلق بالمحامد وأوصاف الكمال ونزعات العرب ... ثم قال : وتبين من ذلك أن حال الرشيد في اجتناب الخمر كانت معروفة عند بطانته وأهل مائدته ولقد ثبت عنه انه عهد بحبس أبي نواس لما بلغه من انهماكه في المعاقرة حتى تاب وأقلع وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق وفتاويهم فيها معروفة وأمَّا الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتهامه به ولا تقليد الأخبار الواهية فيها فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرماً من أكبر الكبائر عند أهل الملة ولقد كان اولئك القوم كلهم بمنجاة من ارتكاب السرف والترف في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم لما كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدين التي لم يفارقوها بعد فما ظنك بما يخرج عن الاباحة إلى الحظر وعن الحلة إلى الحرمة ولقد أتفق المؤرخون الطبري والمسعودي وغيرهم على أن جميع من سلف من خلفاء بني أمية وبني العباس إنما كانوا يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة في المناطق والسيوف واللجم والسروج وان أول خليفة أحدث الركوب بحلية الذهب هو المعتز بن المتوكل ثامن الخلفاء بعد الرشيد وهكذا كان حالهم أيضاً في ملابسهم فما ظنك بمشاربهم ويتبين ذلك بأتم من هذا إذا فهمت طبيعة الدولة في أولها من البداوة والغضاضة .

وبعد أن فرغ من الدفاع عن الرشيد تولّى الدفاع عن المأمون فقال :

ويناسب هذا أو قريب منه ما ينقلونه كافة عن يحيى بن أكثم قاضي المأمون

وصاحبه وانه كان يعاقر المأمون الخمر وانه سكر ليلة مع شربه فدفن في الريحان حتى أفاق وينشدون على لسانه :

ياسيدي وأمير الناس كلهم ماجار في حكمه من كان يسقيني

اني غفلت عن الساقي فصيرني كما تراني سليب العقل والدين

وحال بن أكثم والمأمون في ذلك من حال الرشيد وشرابهم إنما كان النبيذ ولم يكن محظوراً عندهم واما السكر فليس من شأنهم وصحابته للمأمون إنما كانت خلة في الدين ولقد ثبت أنه كان ينام معه في البيت ونقل من فضائل المأمون وحسن عشرته انه انتبه ذات ليلة عطشان فقام يتحسس ويتلمس الاناء مخافة ان يوقظ يحيى ابن أكثم وثبت انهما كانا يصليان الصبح جميعاً فأين هذا من المعاقرة .. ثم قال : وأين هذا كله من حال المأمون المعروفة في دينه وعلمه واقتفائه سنن الخلفاء الراشدين من أبائه وأخذه بسير الخلفاء الأربعة أركان الملة ومناظرته للعلماء وحفظه لحدود الله تعالى في صلواته وأحكامه فكيف تصح عنه أحوال الفساق المستهترين في التطواف بالليل وطروق المنازل ثم قال : وأمثال هذه الحكايات كثيرة وفي كتب المؤرخين معروفة وإنما يبعث على وضعها والحديث بها الانهماك في اللذات المحرمة وهتك قناع المروءة ويتعللون بالتأسي بالقوم فيما يأتونه من طاعة لذاتهم فلذلك تراهم كثيراً مايلهجون بأشباه هذه الأخبار وينقرون عنها عند تصفحهم لأوراق الدواوين ولو ائتسوا بهم في غير هذا من أحوالهم وصفات الكمال اللائقة بهم المشهورة عنهم لكان خيراً لهم لو كانوا يعلمون . . . .

فنجد في دفاع ابن خلدون عن الرشيد والمأمون في نفي التهمة عنهما بمعاقرة الخمر والسرف والترف ما ينافي أخبار صاحب الأغاني في هذا الباب وقبل أن نقلب النظر في هذا الدفاع لا نرى لنا بدًّا من الرجوع الى رأي ابن خلدون في كتاب الأغاني .

قال ابن خلدون : وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصبهاني وهو ما هو كتابه في الأغاني جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم وجعل مبناه

على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشيد فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه ، ولعمري انه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه وهو الغاية التي يسمو اليها الأديب ويقف عندها وأنّى له بها ...

هذا رأي ابن خلدون في كتاب الأغاني وفي صاحبه ، فليس يعرف ابن خلدون كتاباً يعادل كتاب الأغاني في موضوعه ، فامّا انه قرأ هذا الكتاب ، كله أو اكثره أو أقله واما أنه لم يقرأه ، فاذا كان قرأه فلا شك في أنه مرّ على هذه الأخبار التي صوّرت كثيراً من حياة الرشيد الخاصة ومن حياة المأمون ، لا شك في أنه مرّ على هذه الأخبار التي تصف لهو هذين الخليفتين العظيمين وترفها وتبذرها فلماذا سكت عن هذه الأخبار ولم يدحضها في خلال كلامه على كتاب الأغاني في مقدمته لماذا لم يكذب أبا الفرج تكذيبه لكثير من حكايات المؤرخين وإذا كان ابن خلدون مدح كتاب الأغاني وصاحبه هذا المدح ولم يقرأ الكتاب وهذا ما يبعد عنه فأية قيمة لآرائه في كتب لم يقرأها أو في سير لم يحققها .

لنرجع الآن الى دفاع ابن خلدون ، انه دفاع بليغ مبني على العقل يكاد الانسان لا ينجو من قوته ، ولكنه إذا تروّى قليلاً فيه استطاع ان يسلم من تأثير بلاغته .

لقد وقفنا على أشياء كثيرة من تحقيق صاحب الأغاني وأطلعنا على نزاهته وحرصه على براءة الذمة فهو لم يرو الأخبار على علاتها فقد كان يشك في بعضها ويحقق في بعضها وظهرت آثار إنصافه في مواطن من تراجمه فاذا لم يظهر كتاب آخر في عصره أو بعد عصره يكذب ما جاء في بعض أخبار الأغاني أو يبطلها بأسلوب يشبه أسلوب أبي الفرج في التحقيق فلا مفر لنا من تصديق أخبار الأغاني لقد وقفنا على آراء بعض الأئمة في هذا الكتاب الجليل فلم يلجأ أحد الى تكذيب صاحبه لا في حياته ولا بعد موته وإذا قال أحدهم فيه : انه أكذب خلق الله ، فانما قوله هذا يذهب جفاء لانه لم يأت بدليل ضعيف أو قوي على كذبه ومجرد التكذيب لا يطمس محاسن كتاب اشتغل به صاحبه خمسين سنة .

فضلاً عن أن أبا الفرج كان قريب العهد من خلفاء بني العباس الذين روى
أخبارهم فلم يكن بينه وبينهم الزمن الذي كان بين ابن خلدون وبين دولة بني العباس
فأبو الفرج صادق في أخبار الرشيد والمأمون وغيرهما من الخلفاء .
لقد حاول ابن خلدون أن يدافع عن الخليفتين دفاعا مبنيا على العقل، اننا لا نشك في
صلوات الرشيد وحجه ولا نشك في فضل المأمون وعقله ولكن الذي نعلمه أن
العقل شيء وان العاطفة شيء آخر ويجدر بنا ونحن مستقلون في تفكيرنا وبحثنا
أن ننطلق بعض الانطلاق من قدسية التاريخ وفي أكثر الأحوال لانستطيع أن
نفهم روح التاريخ إلا إذا قسنا أمور الماضي بالحاضر ، إنا نعرف كثيراً من الناس
يصلّون ويصومون ويحجون ويزكّون ولكن هذا كله لم يستطع أن يمنعهم عن
السكر وعمّا يجرّ اليه السكر من شهود مجالس تشبه المجالس التي شهدناها في
الأغاني فلا تستطيع الصلوات والزكاة والحج والصيام أن تنهى الناس كلهم عن الخمر
ونتائجها فما قاله ابن خلدون في صلاة الرشيد وحجه انما هو صحيح ولكنا نعرف
ناساً لا يصلّون ولا يحجون ولكنهم لا يسكرون ونعرف ناساً يصلّون ويحجون
ويصومون ويزكون ولكنهم لا يستطيعون الاقلاع عن الخمر فحجة ابن خلدون في
هذا الباب انما هي حجة مبنية على تصورات العقل لا على تجارب الأمور الواقعة
والعقل وحده في هذا الباب غير كاف فاذا لم يأت ابن خلدون بأخبار محققة تشبه
أخبار أبي الفرج تنفي عن الرشيد والمأمون وغيرهم من خلفاء بني العباس أو بني
أمية معاقرة الخمر واللهو والتبذير والترف وغير ذلك فلا نرى دفاعه دفاعاً أما السذاجة
التي أشار اليها وأما طبيعة الدولة في أولها من البداوة والغضاضة فما نظن انّ في هذا
كله حجة لابن خلدون تحملنا على الأخذ بدفاعه عن الرشيد والمأمون ولو جاز لنا
أن نذكر أسماء ملوك وأبناء ملوك في عصرنا الذي نعيش فيه خرجوا من بداوة
دولتهم الى حضارة لا عهد لهم بأمثالها في يوم من أيامهم ثم انهمكوا في لذات
لا يتصورها العقل لذكرناهم فان هذا النعيم الذي تقلبت فيه دولة بني أمية في أواخرها
ودولة بني العباس يكاد ينسي بعض الخلفاء بدواة أصلهم وغضاضتهم فانهم لما فتحوا

أعينهم على خيرات الدنيا في دمشق وبغداد وعلى هـذه الجواري التي جلبت إليهم من بلاد الروم وغيرها ضعفت أعصابهم واسترخت مفاصلهم فما استطاعوا أن يضبطوا من أهوائهم ولا استطاع الدين أن يردعهم عن هذه الأهواء فعاشوا العيشة التي نقل لنا أبو الفرج أخبارها ولم يبالغ في شيء من هذه الأخبار .

لقد دققت في أعمار الخلفاء واستقصيت في هذه السبيل وغايتي في هـذا كله معرفة عمر كل واحد منهم فالمسعودي يقول : مات هرون الرشيد وهو ابن أربع وأربعين سنة وكانت ولايته ثلاثاً وعشرين سنة وستة أشهر أو شهرين ومات المأمون وهو ابن تسع وأربعين سنة وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة ومات المعتصم وهو ابن ثمان وأربعين سنة .

لاشك في أن الاعمار بيد الله ، ولكن أفلا نجد في وفاة هؤلاء الخلفاء العظماء في سن مثل هذه السن مايحملنا على التفكير في أمرهم ، أفلا نجد أن هـذه العيشة التي عاشها الرشيد والمأمون وغيرهما ، عيشة اللهو والتبذير ، عيشة تقبيل أرجـل الجواري ، قد عجّلت على حياتهم فلم يبلغوا الخمسين وهذا كله ما يؤيد أخبار الأغاني فلماذا لم يرو أبو الفرج مثلا أخباراً عن المنصور في هذا المعنى ، فقد عاش المنصور خمساً وستين سنة وإذا رجعنا إلى الخلفاء الراشدين وإلى طائفة من خلفاء بني أمية وجدنا أنهم عاشوا ستين أو سبعين أو ثمانين سنة ، هؤلاء هم الذين ردعهم الدين وخشونة الدولة عن الانهاك في أمثال ما انهمك فيه من جاء بعدهم .

على أن ابن خلدون لم يستطع أن ينفي عن الرشيد شرب النبيذ وإنما نفى عنه شرب الخمر ونظن أن النبيذ لايقل عملا عن الخمور في بعض الحالات .

قال ابن قتيبة في كتاب الأشربة :

وأما النبيذ فاختلفوا في معناه فقال قوم : هو ماء الزبيب وماء التمر من قبل أن يغليا فاذا اشتد ذلك وصلب فهو خمر .

وقال ابن شبرمة :

ونبيذ الزبيب ما اشتد منه   فهو للخمر والطلاء نسيب

فالذي يتبين من هذه الأقوال ونحوها أن النبيذ في بعض الحالات يعمل عمل الخمر وذلك إذا اشتد وصلب فنحن لانبحث عن تحريمه أو تحليله وإنما نبحث عن عمله وأثره .

فما هو دليل ابن خلدون على أن الرشيد والمأمون كانا يشربان النبيذ قبل أن يشتد ويصلب أي قبل أن يصير خمراً .

❀❀❀

لم أردّ على ابن خلدون هذا الرد إرادةً مني أن أتعصب على خليفتين عظيمين وإنما تصديت لهذا الرد إثباتاً لأخبار كتاب الأغاني التي أعتقد صحتها وإذا لم يظهر كتاب آخر يبطل كل ما جاء في كتاب الأغاني أو بعضه فاني لاأنقطع عن أن أعتقد صحة هذه الأخبار فاذا أضعفت أخبار الأغاني عن الرشيد أو عن المأمون ولم يثبت عليهما ماروواه أبو الفرج عنهما فقد تضعف أخبار الكتاب كلها ويغلب علينا الشك فيها ولا يبقى حينئذ لهذا الكتاب الجليل الاّ قيمة فنية على أنا نرى فيه مصدر حياة لانراه في غيره .

هذا وقد وصل الينا من شعر العصر الذي عاش فيه أبو الفرج ما يؤيد رواياته التي لها صلة بسكر بني العباس ولهوهم بالنغم والأوتار والألحان .

قال أبو فراس في قصيدة له في أهل البيت يخاطب بني العباس :

ياباعة الخمر كفّوا عن مفاخركم	عن فتية بيعهم يوم الهياج دم
خلوا الفخار لعلامين إن سئلوا	يوم السؤال وعمالين إن علموا
لايغضبون لغير الله إن غضبوا	ولا يضيعون حكم الله إن حكموا
تبدو التلاوة من أبياتهم أبدا	وفي بيوتكم الأوتار والنغم
منكم « عليّة » أم منهم وكان لكم	شيخ المغنين « إبراهيم » أم لهم
أم من تشاد له الألحان سائرة	« عليهم » ذو المعالي أم عليكم
إذا تلوا سورة غنّى امامكم	قف بالديار التي لم يعفها القدم

مافي ديارهم للخمر معتصر ولا بيوتهم للسوء معتصم
ولا تبيت لهم خنثى تنادمهم ولا يرى لهم قرد له حشم

❀❀❀

لم يكتف أبو فراس في قصيدته بالتعريض بني العباس والاشارة إلى سكرهم ولهوهم وإنما جعلهم : باعة خمر ، فاستعان بشعره على تحقير أمرهم ولا شك في أن الشعر أقدر من النثر على مثل هذه الأغراض .

أما « عليّة » التي ذكرها في شعره فهي بنت المهدي أخت هارون الرشيد وقد مرّ بنا خبرها في بعض المواطن فقد غنّت للرشيد من وراء مجلس من مجالسه فقال أبو جعفر الذي روى خبر غنائها : فغنّت جارية ما ظننت والله أن الله خلق مثلها في حسن الغناء وجودة الضرب[1] حتى رقص الرشيد .

❀❀❀

(١) الجزء ٩ الصفحة ٨٧ .

النقد الأدبي في الأغاني

لئن إشتمل كتاب الأغاني على موضوعات تصوّر لنا نوعاً من الحياة أروع تصوير ، لقد إشتمل على آراء ومذاهب في النقد يندر الاهتداء اليها في كتاب آخر واذا جمعنا ما تشتت من هذه الآراء والمذاهب حصلنا على كتاب في النقد قائم بذاته فلم يتعقب أبو الفرج أخبار الحياة وحدها وإنما تعقب آراء الشعراء ورجال اللغة والأدب في النقد بادئاً بأبعد ما عرف من عصورنا أي من الجاهلية ، بحيث اذا أراد أحدنا أن يتتبع أطوار النقد في أدبنا لزمه الرجوع إلى كتاب الأغاني حتى يشهد مجالس النقّاد ويستأنس بخواطرهم في النقد ولقد عمدت في هذا الفصل إلى جمع يسير من هذا كله حتى تكون محتويات كتاب الأغاني ماثلة لأعيننا من مجامع نواحيها فلا ريب في أن هذا الكتاب العظيم بحر يغرف الانسان منه ماشاء من أمور الحياة والأدب في الماضي .

نقد الشعر قديم في أدبنا فكأن الشعر ظهر وظهر النقد معه فالذي تناهى الينا مما رواه أبو الفرج أن نابغة بني ذبيان كان تضرب له قبة من آدم بسوق عكاظ[1] يجتمع اليه فيها الشعراء من جملتهم حسّان بن ثابت وقد دوّن أبو القرج نمطاً من نقد النابغة لحسّان ، فقد أنشد حسّان قوله :

لنا الجفنات الغرّ يلمعن بالضحى ... وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فقال له النابغة : انك قلت: الجفنات فقللت العدد ولو قلت: الجفان لكان أكثر وقلت: يلمعن في الضحى ولو قلت : يبرقن بالدجى لكان أبلغ في المديح لأن الضيف

---

(١) الجزء ٨ الصفحة ١٨٧

أكثر طروقاً وقلت : يقطرن من نجدة دماً فدلات على قلة القتلى ولو قلت : يجرين لكان أكثر لانصباب الدم .

فهذا ضرب من النقد في الجاهلية يدلنا على سلامة الذوق من حيث صواب المعاني ومن حيث وضع اللفظ في مواضعه وليست بنا حاجة إلى الاكثار من ذكر هذه الشواهد وإنما حسبنا الاستشهاد بنمط واحدٍ حتى يكون لنا بعض الرأي في نقد الجاهلية .

وإذا إنحدرنا من الجاهلية إلى صدر الاسلام رأينا أن النقد لم ينقطع وقد يكون الخلفاء الراشدون أنفسهم أصحاب رأي فيه .

نقل أبو الفرج في كلامه على زهير ونسبه[1] رأياً لعمر بن الخطّاب في الشعر والشعراء فقد روى بيت زهير :

ولو أن حمداً يخلد الناس أخلدوا ولكن حمد الناس ليس بمخلد

فقال في زهير انه شاعر الشعراء لأنه كان لا يعاظل في الكلام وكان يتجنب وحشي الشعر ولم يمدح أحداً إلاّ بما فيه .

فهذا الرأي الوجيز يحتوي على أشياء كثيرة في النقد ، انه يصور الميل إلى نقاوة الأسلوب وصفائه كما يصوّر الميل إلى الصدق في الشعر والبعد عن الغلوّ فان عمر بن الخطّاب فضّل زهيراً على الشعراء لأنه مصقول الخيال مهذّب الفكر صافي الأسلوب .

ولم ينقد عمر زهيراً وحده وإنما نقد النابغة فقد قال لمعشر غطفان : من الذي يقول[2]:

أتيتك عارياً خلقاً ثيابي على خوف تظن بي الظنون

قالوا : النابغة ، قال : ذاك أشعر شعرائكم !

---

(١) الجزء ٩ الصفحة ١٣٩

(٢) الجزء ٩ الصفحة ١٥٥

وكذلك سأل مرّة : من أشعر الناس ، فقالوا له : أنت أعلم يا أمير المؤمنين ، قال : من الذي يقول :

الا سليمان إذ قال الاله له قم في البرية فاحددها عن الفند
وخبّر الجن أني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

قالوا : النابغة ، قال : فمن الذي يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عني جناية لمبلغك الواشي أغش وأكذب
ولست بمستبق أخاً لا تلمّه على شعث أيّ الرجال المهذب

قالوا : النابغة ، قال : فهو أشعر العرب .

وكما كان عمر بن الخطاب ينقد الشعر فكذلك كان لعلي بن أبي طالب رأي في النقد وقد يكون رأيه في بعض مجالس النقد من أجود الآراء وأصحها ، قال أبو الفرج بعد الأسانيد(١) :

كان علي صلوات الله عليه يفطر الناس في شهر رمضان فاذا فرغ من العشاء تكلم فأقلّ وأوجز فأبلغ ، فاختصم الناس ليلة حتى ارتفعت أصواتهم في أشعر الناس فقال عليّ عليه السلام لأبي الأسود الدؤلي : قل يا أبا الأسود ، فقال أبو الأسود وكان يتعصب لأبي دواد الايادي: أشعرهم الذي يقول :

ولقد اغتدي يدافع ركني أحوذي ذو ميعة إضريج
مخلط مزيل مكرّ مفرّ منفح مطرح سبوح خروج
سلهب سرحب كأنّ رماحاً حملته وفي السراة دموج

وكان لأبي الأسود رأي في أبي دواد ، فأقبل عليّ على الناس فقال : كل شعرائكم محسن ، ولو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة ومذهب واحد في القول لعلمنا أيهم أسبق إلى ذلك ، وكلهم قد أصاب الذي أراد وأحسن فيه وان يكن

---

(١) الجزء ١٥ الصفحة ٩٣

أحدهم قد فضلهم فالذي لم يقل رغبة ولا رهبة امرؤ القيس بن حجر فانه كان أصحهم بادرة وأجودهم نادرة .

فهذا رأي من أصح الآراء وأوجهها لأن من شروط الموازنة بين شاعرين أن يكونا في زمان واحد وأن يكون موضوعها واحداً ومذهبها في الشعر واحداً ، فليس يصح مثلاً أن نوازن بين زهير وابن الرومي لأن لكل واحد منها غاية في الشعر ومذهباً وقد يجوز في الموازنة أن يستغنى في بعض الأحوال عن شرط الزمن، فيجوز أن نوازن بين المتنبيء وشوقي لانهما اشتركا في بعض شعرهما في غاية واحدة ومذهب واحد ، كما انه يجوز أن نوازن بين النابغة في القديم وبين البارودي في الحديث لأن البارودي عارض النابغة في جملة من شعره، اما أن نوازن بين شعراء اختلفوا في الزمان والغاية والمذهب فالموازنة باطلة من كثير من الوجوه .

وإذا بعدنا قليلاً عن الخلفاء الراشدين وبلغنا إلى خلفاء بني أمية وجدنا طائفة منهم ينقدون الشعر ، فقد رويت لعبد الملك بن مروان قصيدة النابغة التي يعتذر فيها إلى النعمان فقال : هذا أشعر العرب .

ولم تخل دولة بني العباس من خلفاء نقدوا الشعر، فقد دخل أبو المتاهية على المأمون فانشده :(١)

ما أحسن الدنيا وإقبالها   إذا أطاع الله من نالها
من لم يواس الناس من فضلها   عرّض للادبار إقبالها

فقال له المأمون : ما أجود البيت الأول فأما الثاني فما صنعت فيه شيئاً ، الدنيا تدبر عمن واسى بها أو ضنّ بها وإنما توجب السماحة بها الأجر والضنّ بها الوزر فقال : صدقت يا أمير المؤمنين ، أهل الفضل أولى بالفضل وأهل النقص أولى بالنقص ، فقال المأمون : ادفع اليه عشرة آلاف درهم لاعترافه بالحق ، فلما كان بعد أيام عاد فأنشده :

---

(١) الجزء ٣ الصفحة ١٤٦

كم غافل أودى به الموت لم يأخذ الأهبة للفوت
من لم تزل نعمته قبله زال عن النعمة بالموت

فقال له : أحسنت الآن ، طيبت المعنى وأمر له بعشرين ألف درهم .

وقد كان الشعراء أنفسهم في كل عصورنا ينقدون الشعر .

قال عكرمة بن جرير قلت لأبي[1]: يأبت ! من أشعر النـاس ، قال أعن الجاهلية تسألني أم عن الاسلام قال : قلت ماأردت إلا الاسلام ، فاذا ذكرت الجاهلية فأخبرني عن أهلها قال : زهير أشعر أهلهـا ، قلت : فالاسلام ، قال : الفرزدق نبعة الشعر ، قلت : فالأخطل ، قال: يجيد مدح الملوك ، ويصيب وصف الخمر ، قلت : فما تركت لنفسك ، قال : نحرت الشعر نحراً .

وأمثال هـذا الشكل من النقد مبثوثة في كتاب الأغاني وما بنا حاجة إلى الاستقصاء فيها وانما غايتنا الاتيان على طائفة منها تمثّل بعض الآراء في النقـد على مختلف العصور وتسلسلها.

ولم يقتصر الخلفاء وأكابر الشعراء ورجال اللغة والأدب على النقد وانما كان لبعض النساء شأن في هذا النقد ، وقد مر بنا في الكلام على المرأة في كتاب الأغاني رأي لسكينة في شعر فحول الشعراء أمثال جرير والفرزدق وكثيّر وجميل ونصيب نكتفي بالاشارة اليه حتى نعـلم أن النساء كن يشاركن الرجال في النقد والخوض فيه .

❀❀❀

ليس المهم أن نأتي على كل ماله صلة بالنقد في كتاب الأغاني وإنما المهم أن نعرف شيئاً من أطوار النقد فيه فقد نمرّ في كتاب الأغاني على آراء مختلفة في النقد تمثّل لنا مذهبا من المذاهب فيـه، من ذلك مارواه أبو الفرج[2] فقد كان محمد بن

---

(١) الجزء ٩ الصفحة ١٤٠
(٢) الجزء ١٥ الصفحة ٧٧

موسى المنجم يعجبه التقسيم في الشعر ويشغف بجيّد الأشعار فكان مما يعجبه قول نصيب :

أيا بعل ليلى كيف تجمع سلمها   وحربي وفيما بيننا شبّت الحرب
لها مثل ذنبي اليوم إن كنت مذنباً   ولا ذنب لي إن كان ليس لها ذنب

فاذا كنا نبحث في تاريخ أدبنا عن أطوار البديع والبيان وما شاكل ذلك فان هذا الخبر القصير يعيننا على هذا البحث ، من هذا يتبين لنا فضل كتاب الأغاني في اشتماله على مادة أدبية قلمَّا يشتمل على مثلها كتاب آخر .

وكما صوّر لنا هذا الخبر رأياً في التقسيم في الشعر فقد يصوّر لنا الخبر الآتي رأي بعض الشعراء في طول الشعر وقصره وفي الزمن المناسب لقوله من ذلك مارواه أبو الفرج عن أبي العتاهية وقد بلغه خبر فتى يعرف بابن أمية يقول الشعر وأنشده شعراً أعجبه(١)، قال ابن أمية لأبي العتاهية : وأما الشعر فانما أنا شاب أعبث بالبيت والبيتين والثلاثة كما يعبث الشباب، فقال له أبو العتاهية : ذاك والله زمان الشعر وإبانه وما قيل فيه فهو غرره وعيونه وما قصر من الشعر وقيل في المعنى الذي تومئ اليه أبلغ وأملح .

فأبو العتاهية يرى أن الشباب هو زمان الشعر وإبّانه وأن ما قال فيه من الشعر انما هو هو غرر الشعر وعيونه ، وهذا رأي غير مطرد فانَّا نعرف شعراء لم يختمر شعرهم إلا بعد شبابهم وعلى رأس هؤلاء الشعراء شوقي، فقد جاءت غرر شعره وعيونه بعد شبابه .

وكما نجد لأبي العتاهية رأيا في الشعر من حيث زمانه ومن حيث قصره وطوله فقد نجد له رأيا فيه من حيث موضوعه ، قال ابن أبي الأبيض(٢) أتيت أبا العتاهية فقلت له : إني رجل أقول الشعر في الزهد ولي فيه أشعار كثيرة وهو مذهب

---

(١) الجزء ١١ الصفحة ٣٠
(٢) الجزء ٣ الصفحة ١٥٥

أستحسنه لأني أرجو أن لاآثم فيه وسمعت شعرك في هذا المعنى فأحببت أن أستزيد منه فأحب أن تنشدني من جيّد ماقلت، فقال : اعلم أن ماقلته ردئ قلت: و كيف قال : لأن الشعر ينبغي أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدمين أو مثل شعر بشار وابن هرمة فان لم يكن كذلك فالصواب لقائله أن تكون ألفاظه ممّا لاتخفى على جمهور الناس مثل شعري ولا سيما الأشعار التي في الزهد فان الزهد ليس من مذاهب الملوك ولا من مذاهب رواة الشعر ولا طلاّب الغريب وهو مذهب أشغف الناس به الزهّاد وأصحاب الحديث والفقهاء وأصحاب الرياء والعامّة وأعجب الأشياء اليهم مافهموه ، فقلت: صدقت .

فاذا أردنا أن نشرح رأي أبي العتاهية احتجنا إلى الكلام الطويل ، فحسبنا أن نعرف عنه هذه النزعة إلى فحول المتقدمين وحسبنا أن نعرف رأيه في الشعر من حيث سهولة الألفاظ ولا شك في أن الأمثال والحكم والزهد إذا لم تكن ألفاظها سهلة صعب حفظها وماشاع شعر المتنبئ في الحكم والأمثال إلا لسهولة لفظه..

وكما أطلعنا في كتاب الأغاني على آراء بعض نقّاد الشعر في التقسيم والطول والقصر والزمن والسهولة في الشعر فكذلك أطلعنا فيه على آرائهم في سرقة الشعر وتتبعهم للشعراء في مصادر شعرهم ،قال أبو الفرج(١):

أخبرني علي بن سليمان الأخفش قال : حدّثني الفضل اليزيدي أنه سمع إسحق الموصلي يوما يقول وأنشد شعراً لأبي الهندي في صفة الخمر فاستحسنه وقرّظه فذكر عنده أبو نواس فقال : ومن أين أخذ أبو نواس معانيه إلا من هذه الطبقة وأنا أوجدكم سلخه هذه المعاني كلها في شعره فجمل ينشده بيتاً من شعر أبي الهندي ثم يستخرج المعنى والموضع الذي سرقه الحسن فيه حتى أتى على الأبيات كلها واستخرجها من شعره .

---

(١) الجزء ٢١ الصفحه ١٧٧

من هذا يتبين لنا أن النقّاد في كل عصر من العصور يهتمون بمصادر الشعر وبما نسميه: السرقات في الشعر .

ولا بأس بأن ندرج على هذا النحو من الاستشهاد لأننا نجد فيه صوراً مختلفة للنقد .

أغرب هذه الصور مذهب أهل النحو في النقد .

فقد كان الفرزدق يداخل الكلام وكان ذلك يعجب رجال النحو من ذلك قوله يمدح هشام بن اسمعيل المخزومي خال هشام بن عبد الملك(١):

وأصبح مافي الناس إلا مملكا   أبو أمه حيّ أبوه يقاربه

وللفرزدق أبيات كثيرة من هذا الشكل .

وكما كان يميل بعض الشعراء إلى مداخلة الكلام فكذلك كان يميل بعضهم إلى الغريب، فقد كان الأصمعى وأبو عبيدة يقولان : عديّ بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجري معها مجراها وكذلك عندهم من الاسلاميين الكميت والطرماح ، قال العجاج : كانا يسألاني عن الغريب فأخبرهما به ثم أراه في شعرهما وقد وضعاه في غير مواضعه فقيل له : ولِمَ ذاك ، قال : لأنهما قرويان يصفان مالم يرياه فيضعانه في غير موضعه وأنا بدوي أصف مارأيت فأضعه في مواضعه وكذلك عندهم عديّ وأمية(٢) .

أفلا نشعر بقيمة هذه الآراء في النقد وبفضل أبي الفرج في تدوينها فكثير من الشعراء يصفون مالم يروا علي سبيل التقليد فتأتي صورهم وألفاظهم نابية .

ولئن كان بعض الشعراء يميلون إلى الغريب فقد كان بعضهم يفرّون منه ، كانوا كثيراً مايقولون للسيد الحميري : مالك لاتستعمل في شعرك من الغريب

---

(١) الجزء ١٩ الصفحة ١٥

(٢) الجزء ٢ الصفحة ١٧

ماتسأل عنه كما يفعل الشعراء فقال : لأن أقول شعراً قريباً من القلوب يلذه من سمعه خير من أن أقول شيئاً متعقداً تضل فيه الأوهام(١) .

وهكذا نمرُّ في كتاب الأغاني على آراء متباينة في نقد الشعر توضّح لنامبالغ الأذواق في القديم .

ومن هذاالنحو من النقد رأيهم فياستواء الشعر ، قال الزبير(٢) : من الناس من يفضّل قصيدة جميل اللامية على قصيدة عمر وأنا لا أقول هذالأن قصيدةجميل مختلفة غير مؤتلفة فيها طوالع النجد وخوالد المهد وقصيدة عمر بن أبي ربيعة ملساء المتون مستوية الأبيات أخذ بعضها بأذناب بعض ولو أن جميلاً خاطب في قصيدته مخاطبة عمر لأرتج عليه وعثر كلامه به .

وكما عرفوا في الشعر قيمة سهولته واستوائه فكذلك عرفوا قيمةالمعنى فيه فقد تذاكروا يوماً شعرأبي العتاهية بحضرة الجاحظ إلى أن جرى ذكر أرجوزته المزدوجة التي سمّاها : ذات الأمثال فأخذ بعض من حضر ينشدهاحتى أتى على قوله:

يالشباب المرح التصابي روائح الجنة في الشباب

فقال الجاحظ للمنشد : قف ، ثم قال : انظروا إلى قوله : روائح الجنة في الشباب .. فان له معنى كمعنى الطرب الذي لايقدر على معرفته إلاّ القلوب وتعجز عن ترجمته الألسنة إلاّ بعد التطويل وإدامة التفكير وخير المعاني ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه(٣) .

وعلى ذكر الجاحظ لابأس ببيان رأي له في العباس بن الأحنف فقد قال فيه: لولا أن العباس بن الأحنف أحذق الناس وأشعرهم وأوسعهم كلاماًوخاطراًماقدر أن يكثر شعره في مذهب واحد لايجاوزه لأنه لايهجو ولا يمدح ولا يتكسب

---

(١) الجزء ٧ الصفحة ١٠
(٢) الجزء ٢ الصفحة ١٢٩
(٣) الجزء ٣ الصفحة ١٣٨

ولا يتصرف وما نعلم شاعراً لزم فنا واحداً لزومه فأحسن فيه وأكثر(١) .

حقاً ان الذي يلزم فناً واحداً تضيق عليه الأفكار فيضطر الى الاعادة والتكرير.

ومهما تختلف نزعات النقّاد في النقد فقد يكون أغرب شيء في هـذه النزعات أن يجعلوا لمعتقدات الشاعر ومذاهبه تأثيراً في تقدير شعره ، قال الأصمعي في شعر السيد الحميري(٢) : قبّحه الله ما أسلكه لطريق الفحول،لولا مذهبه ولولا مافي شعره ماقدّمت عليه أحداً من طبقته .

ولسنا ندري ماصلة تشيع السيد الحميري بقيمة شعره فلماذا يقدّم عليه الشعراء إذا كان على عقيدة عن العقائد أو على مذهب من المذاهب أو على خلق من الأخلاق.

وقد أفصح أبو الفرج عن هذه النزعة في النقد في كلامـه على الأحوص ، فقد قال الزبير(٣) :

وجعل محمد بن سلام الأحوص وابن قيس الرقيات ونصيبا وجميل بن معمر طبقة سادسة من شعراء الاسلام وجعله بعد ابن قيس وبعد نصيب ، ونجد بعد هذا الكلام الكلام الآتي وأظنه لأبي الفرج : والأحوص لولا ماوضع به نفسه من دنيء الأخلاق والأفعال أشد تقدماً منهم عند جماعة أهل الحجاز وأكثر الرواة وهو أسمح طبعاً وأسهل كلاماً وأصح معنى منهم ولشعره رونق وديباجة صافية وحلاوة وعذوبة ألفاظ ليست لواحد منهم وكان قليل المروءة والدين هجّاء للناس مأبوناً فيما يروى عنه .

فأبو الفرج لم ينزع هذه النزعة في نقده على نحو ماسنذكره بعد حين ، وإنما كان في كلامه معبراً عن آراء أهل عصره في النقد من حيث صلة أخلاق الشاعر وأفعاله بتقدير شعره .

---

(١) الجزء ٨ الصفحة ١٥

(٢) الجزء ٧ الصفحة ٣

(٣) الجزء ٤ الصفحة ٤٣

ولعلّ أطرف مامررنا به من أمور النقد في كتاب الأغاني فطنـة النقّاد إلى مانسميه في عصرنا هذا : الشعر الرمزي .

كان خالد بن عتاب(٢) يقول لأعشى همدان في بعض مايمنيه إياه ويعده به : ان وليت عملاً كان لك مادون الناس جميعاً فمتى استعملت فخذ خاتمي واقض في أمور الناس كيف شئت فاستعمل خالد على اصبهان وصار معه الأعشى فلما وصل إلى عمله جفاه وتناساه ففارقه الأعشى ورجع إلى الكوفة وقال فيه :

تمنيني أمارتهـا تميم	وما أمي بأم بني تميم
وكان أبو سليمان أخاً لي	ولكن الشراك من الأديم
أتينا أصبهان فهزّلتنا	وكنا قبـل ذلك في نعيم
أتذكرنا ومُرّة إذ غزونا	وأنت على بغيلك ذي الوشوم
ويركب رأسه في كل وحل	ويعثر في الطريق المستقيم
وليس عليك الاّ طيلسان	نصيبي وإلاّ سَحْق نيم
وقد أصبحت في خزّ وقزّ	تبختر ماترى لك من حميم
وتحسب أن تُلقّاها زماناً	كذبت ورب مكة والحطيم

فبعث إليه خالد : من مُرّة هذا الذي ادعيت اني وأنت غزونا معه على بغل ذي وشوم ومتى كان ذلك أو متى رأيت عليّ الطيلسان والنيم الذين وصفتهما فأرسل اليه : هذا كلام أردت وصفك بظاهره ، فأما تفسيره فان مُرّة مرارة ثمرة ماغرست عندي من القبيح والبغل المركب الذي ارتكبته مني لايزال يعثر بك في كل وعث وجدد ووعر وسهل وأما الطيلسان فما ألبسك إياه من العار والذم وان شئت راجعت الجميل فراجعته لك فقال : لا بل أراجع الجميل وتراجعه فوصله بمال عظيم وترضاه .

---

(١) الجزء ٥ الصفحة ١٤٣

ويجدر بي قبل أن أنتقل إلى الكلام على نقد أبي الفرج نفسه أن أذكر نمطين من النقد يستفيض الهزل فيها الا انه هزل لايخلو من جد .

وجد أبو الفرج في كتاب الشاهيني بغير إسناد مايلي :(١)

أنشد أبو الحرث حميد قول العباس بن الأحنف :

قلبي الى ماضرّني داع ... الأبيات ، فبكى ثم قال : هذا شعر رجل جائع في جارية طبّاخة مليحة ، فقلت له : من أين قلت ذاك ، قال : لأنه بدأ فقال : قلبي الى ماضرّني داع وكذلك الانسان يدعوه قلبه وشهوته الى ماضرّه من الطعام والشراب فيأكله فتكثر علله وأوجاعه وهذا تعريض .

ثم صرّح فقال :

كيف احتراسي من عدوي إذا	كان عدوي بين أضلاعي

وليس للأنسان عدو بين أضلاعه إلاّ معدته فهي تتلف ماله وهي سبب أسقامه وهي مفتاح كل بلاء عليه ، ثم قال :

إن دام لي هجرك يامالكي	أوشك أن ينعاني الناعي

فعلمت أن الطبّاخة كانت صديقته وانها هجرته ففقدها وفقد الطعام فلو دام ذلك عليه لمات جوعاً ونعاه الناعي .

أما الخبر الثاني فهذا هو(٢):

كان عبد الله بن الحسن الأصبهاني يخلف عمرو بن مسعدة على ديوان الرسائل فكتب إلى خالد بن يزيد بن مزيد أن المعتصم أمير المؤمنين ينفخ منك في غير فحم ويخاطب امرءاً غير ذي فهم . فقال محمد بن عبد الملك : هذا كلام ساقط سخيف جعل أمير المؤمنين ينفخ بالزق كأنه حداد وأبطل الكتاب ثم كتب محمد بن عبدالملك

---

(١) الجزء ١ الصفحة ٢٠

(٢) الجزء ٢٠ الصفحة ٤٩

إلى عبد الله بن طاهر: وأنت تجري أمرك على الأربح فالأربح والأرجح فالأرجح لا تسعى بنقصان ولا تميل برجحان فقال عبد الله الاصبهاني: الحمد لله قد أظهر من سخافة اللفظ مادل على رجوعه إلى صناعته من التجارة بذكره ربح السلع ورجحان الميزان ونقصان الكيل والخسران من رأس المال فضحك المعتصم وقال: ما أسرع ما انتصف الأصبهاني من محمد وحقدها عليه ابن الزيات حتى نكبه.

هذا بعض ماتيسر لي التنبيه عليه من مواطن النقد في كتاب الاغاني فقد تبيّنت لنا آراء كثير من النقّاد ومذاهبهم في النقد بحيث نستطيع ان يكون لنا رأي عام في هذه النزعات المختلفة والخطرات المتباينة حتى لا يفوتنا شيء من قيمة الكتاب وما أظن أنّا نستطيع الاستغناء عن الكلام على نقد أبي الفرج نفسه فكما كان أبو الفرج كاتباً من أكابر الكتاب فى أمور الحياة فكذلك كان إماماً من أئمة النقد في الأدب، ولا أرى بأساً قبل أن أخوض في هذا الكلام بأن أشير إلى خبر يكاد يكون قاعدة عامة في النقد.

قال يونس بن حبيب[1]: ماذكر جرير والفرزدق في مجلس شهدته قط فاتفق المجلس على أحدهما.

معنى هذا أن الاذواق تختلف اختلافاً عظيماً في تقدير نتائج الخواطر وثمرات القرائح ومهما نشأ أن نضع قواعد عامة في النقد فقد تكون قاعدة هـذا الاختلاف أعمّ القواعد لأن لكل ناقد رأياً خاصاً وذوقاً خاصاً وشعوراً خاصاً ومن الصعب أن نرى إجماعاً في أمور الفن يشبه الاجماع في أمور العلم فاذا قدّمنا هذه المقدمة فما ينبغي لنا أن نلوم أبا الفرج وغيره من رجال النقد على تفضيل شاعر من الشعراء على غيره من نظرائه وقد يكون للنقد في عصر من العصور قواعد يجمعون عليها ولكن الشذوذ عن الاخذ ببعض هذه القواعد أمر لابدّ منه لاختلاف الأمزجة والطبائع والنظرات إلى الحسن والقبيح وما شاكل هذا كله.

---

(١) الجزء ١٩ الصفحة ٦

يصعب علينا أن ندخل أبا الفرج في مذهب خاص من مذاهب النقد ، ولهذا فاننا سنحاول أن نشير إلى جملة من آرائه في نقد الشعر لعلّ هذه الاشارة تصوره لنا تصوراً قريباً من الحقيقة .

نعثر في كتاب الأغاني على آراء لصاحبه في الشعر والشعراء مختلفة فقد يحكم مرةً على شعر ولا يبين في حكمه سبباً ولا وجهاً، من ذلك استحسانه لقصيدة ابن هرمة وأولها :(١)

صرمت حبائلاً من حب سلمى ... لهنـــد ماعهـدت لمستراح

فقد قال فيها : وهذه القصيدة الحائية التي مدح بها عبدالواحد من فاخر الشعر ونادر الكلام ومن جيِّد شعر ابن هرمة خاصة .

فهذا نقد مجرد لاتعليل فيه .

ومن هذا القبيل نقده لشعر الوليد بن يزيد فقد قال(٢) : وللوليد أشعـار جياد فوق هذا الشعر الذي اختاره مروان ، فمنها وهو ما برّز فيه وجوّده وتبعه الناس جميعاً فيه وأخذوه منه قوله في صفة الخمر ، أنشدنيـه الحسن بن علي قال : أنشدني أبو غسان محمد بن يحيى وغيره للوليد ، قال : وكان أبو غسان يكاد يرقص إذا أنشدهـا :

إصدع نجيّ الهموم بالطرب ... وانعم على الدهر بابنة العنب

واستقبل العيش في غضارته ... لاتقفُ منه آثار معتقب

من قهوة زانها تقادمهـا ... فهي عجوز تعلو على الحقب

أشهى إلى الشَرْب يومَ جلوتها ... من الفتاة الكريمة النسب

فقد تجلّت ورقّ جوهرها ... حتى تبدّت في منظر عجب

فهي بغير المزاج من شرر ... وهي لدى المزج سائل الذهب

---

(١) الجزء ٥ الصفحة ١٧٠ .

(٢) الجزء ٦ الصفحة ١٠٦

كأنها في زجاجها قَبَس تذكو ضياء في عين مرتقب

ولئن لم يدل أبو الفرج على جودة هذا الشعر وعلى تبريز صاحبه فيه فقد فتح فيه باباً جديداً، فقد يهمنا جداً أن نعرف من هو الشاعر الذي مشى الشعراء على آثاره في وصف الخمر حتى نتتبع أطوار هذا الوصف فاذا علمنا أن الوليد بن يزيد هو الذي تبعه الشعراء في هذا الباب وأخذوا عنه وصف الخمر استطعنا أن نصل الحلقات بعضها ببعض .

وقد فصَّل أبو الفرج رأيه في موطن آخر فقال بعد ذكر هذه القصيدة :
وللوليد في ذكر الخمر وصفتها أشعار كثيرة قد أخذها الشعراء فأدخلوها في شعرهم سلخوا معانيها وأبو نواس خاصة فانه سلخ معانيه كلها وجعلها في شعره فكررها في عدة مواضع منه ولولا كراهة التطويل لذكرتها ههنا، على أنها تنبئ عن نفسها .

هذا رأي وجيه جداً لأن المتعارف أن أبا نواس هو الذي فتح باب الخمريات في الشعر فهذا أبو الفرج يردنا إلى الصواب ويدلنا على حامل اللواء في وصف الخمر وقد كنَّا نتمنى أن يذكر المعاني التي سلخها أبو نواس وجعلها في شعره حتى يكون نقده ناطقاً ولا غضاضة عليه في التطويل في موضوعٍ جليل مثل هذا الموضوع .

ومن هذا النحو من النقد ماقاله في كلامه على حسين بن الضحَّاك (١) :
وكان أبو نواس يأخذ معانيه في الخمر فيغير عليها واذا شاع له شعر نادر في هذا المعنى نسبه الناس إلى أبي نواس وله معان في صفتها أبدع فيها وسبق إليها فاستعارها أبو نواس .

أولع أبو الفرج بتتبع الشعراء حتى يعرف مصادر شعرهم كما أولع في الحياة بتتبع الخلفاء حتى يعرف أسرارهم .
وكما تعقَّب أبا نواس فقد تعقب البحتري وأبا تمام .

---

(١) الجزء ٦ الصفحة ١٦٥

لما مات حميد الطوسي رثاه علي بن جبلة بقصيدته العينية المشهورة :(١)

أللدهر تبكي أم على الدهر تجزع　　　وما صاحب الأيام الا" مفجَّع

قال أبو الفرج : وقد أخذ البحتري أكثر معانيها فسلخه وجعله في قصيدتيه اللتين رثى بهما أبا سعيد الثغري وقد أخذ الطائي أيضاً بعض معانيها ولولا كراهة الاطالة لشرحت المواضع المأخوذة وإذا تأمل ذلك منتقد بصير عرفه .

وإذا لم يشرح أبو الفرج في هـذا المقام المواضع المأخوذة فقـد شرحها في مقـام آخر .

قال جعفر بن يحيى لابن مناذر : قل في" وفي الرشيد شعراً تصف فيه الألفة بيننا فقال :(٢)

قد تقطع الرحم القريب وتكفر　　　النعمى ولا كتقارب القلبين

يدني الهوى هذا ويدني ذا الهوى　　　فاذا هما نفس ترى نفسين

قال أبو الفرج : هذا أخذه من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم نقلاً فان ابن عيينة روى عن إبراهيم بن ميسرة عن طاوس عن ابن عبَّاس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ان الرحم تقطع وان النعم تكفر ولم تر مثل تقارب القلوب .

وكذلك شرح في المقام الآتي المواضع المأخوذة ، فقد كان علي بن ثابت صديقاً لأبي العتاهية وبينهما مجاوبات كثيرة في الزهد والحكمة فتوفي علي بن ثابت قبله ولما دفن وقف على قبره يبكي طويلاً أحر" بكاء ويرد"د هذه الأبيات:(٣)

ألا من لي بأنسك يا أخيَّا　　　ومن لي أن أبثَّك ما لديَّا

طوتك خطوب دهرك بعد نشر　　　كذاك خطوبه نشراً وطيَّا

---

(١) الجزء ١٨ الصفحة ١٠٨

(٢) الجزء ١٧ الصفحة ٢٦

(٣) الجزء ٣ الصفحة ١٤٢

فلو نشرت قواك لي المنايا   شكوت إليك ماصنعت إليّا
بكيتك ياعليّ بدمع عيني   فما أغنى البكاء عليك شيّا
وكانت في حياتك لي عظات   وأنت اليوم أوعظ منك حيّا

فقال أبو الفرج : هذه المعاني أخذها كلها أبو العتاهية من كلام الفلاسفة لما حضروا تابوت الاسكندر وقد أخرج الاسكندر ليدفن قال بعضهم : كان الملك أمس أهيب منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس وقال آخر : سكنت حركة الملك في لذّاته وقد حرّكنا اليوم في سكونه جزعاً لفقده وهذان المعنيان هما اللذان ذكرهما أبو العتاهية في هذه الأشعار .

جبل أبو الفرج على النقد ورزقه الله شيئاً غير قليل من خصائص هذا النقد فكما كان يتعقب أكابر الشعراء أمثال أبي نواس وأبي العتاهية وأبي تمام والبحتري فيشير إلى مصادر شعرهم فكذلك كان يشك في بعض الشعر فقد روى لامرئ القيس قوله :(١)

طرقتك هند بعد طول تجنّب   وهنا ولم تك قبل ذلك تطرق

فقال : وهي قصيدة طويلة وأظنها منحولة لأنها لاتشاكل كلام امرئ القيس والتوليد فيها بيّن وما دوّنها في ديوانه أحد من الثقات وأحسبها مما صنعه دارم لأنه من ولد السموأل ومما صنعه من روى عنه في ذلك فلم تكتب هنا .

ومثل هذا الشك غير قليل في أضعاف كتاب الأغاني ولكنه مرّة يكون الشك مجرّداً ومرّة يصحبه برهان على صحته .

وسواء أكان يتعقب الشعراء أم كان يشك في بعض الشعر انه يميل إلى الاعتدال في وصف الشعراء ويكره الاسراف .

---

(١) الجزء ٨ الصفحة ٧٠

حكى عبد الله بن المعتز(١) أن أبا خالد العامري قال له : من أخبرك أنه كان في الدنيا أشعر من أبي الشيص فكذّبه ، والله لكان الشعر أهون عليه من شرب الماء على العطشان وكان من أوصف الناس للشراب وأمدحهم للملوك وهكذا ذكر ابن المعتز وليس توجد هذه الصفات كما ذكر في ديوان شعره ولا هو بساقط ولكن هذا سرف شديد .

وكما كان يميل إلى الاعتدال في الحكم فكذلك كان إذا نقد شعر شاعر لا يجعل لأخلاق هذا الشاعر وأفعاله صلة بنقده وقد تبينت لنا هذه الصفة في كلامه على الأحوص وأشرت اليها في فصل : أبي الفرج الأصبهاني من هذا الكتاب، ونبّهت على نزاهة نقده وهو في مثل هذه الصفة الجيدة يختلف عن غيره من النقّاد كالأصمعي مثلاً الذين يدخلون أخلاق الشاعر وأفعاله ومذاهبه ومعتقداته في نقد شعره .

هذه جملة من نقد أبي الفرج وما أظن أن بي حاجة إلى التوسع في هذا المعنى فقد رأينا فيها خلاصة نزعاته في النقد ، وليس المقصد الاتيان على كل هذه النزعات وإنما المقصد الاطلاع على بعضها حتى تكون صورة صاحبها ماثلة لأذهاننا من أكثر الوجوه وقد تكمل هذه الصورة إذا عرفنا رأي أبي الفرج في التجديد والمحافظة .

نجد أبا الفرج في نقده الشعر يجري مجرى الزمن ولا يجمد على حال فهو يعلم أن لكل عصر أطواراً وأن الشعر ينبغي له أن يتبع هذه الأطوار ، من ذلك رأيه في شعر ابن المعتز فقد قال في هذا الشعر :(٢)

وشعره وإن كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فان فيه أشياء كثيرة تجري في أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين وأشياء ظريفة من أشعار الملوك في جنس ما هم بسبيله ، ليس عليه أن يتشبه فيها بفحول الجاهلية ، فليس يمكن واصفاً لصبوح في مجلس شكل ظريف ، بين ندامى وقيان وعلى ميادين

---

(١) الجزء ١٥ الصفحة ١٠٤

(٢) الجزء ٩ الصفحة ١٣٣

من النور والبنفسج والنرجس ومنضود من أمثال ذلك إلى غير ماذكرته من جنس المجالس وفاخر الفرش ومختار الآلات ورقة الخدم أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام السبط الرقيق الذي يفهمه كل من حضر إلى جعد الكلام ووحشيه وإلى وصف البيد والمهامه والظبي والظليم والناقة والجمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له : مسيء ولا أن يُغمط حقه كله إذا أحسن الكثير وتوسط في البعض وقصَّر في اليسير وينسب إلى التقصير في الجميع لنشر المقابح وطيّ المحاسن ، فلو شاء أن يفعل هذا كل أحد بمن تقدم لوجد مساغاً ولو أن قائلاً أراد الطعن على صدور الشعراء لقدرأى أن يطعن على الأعشى وهو أحد من يقدمه الأوائل على سائر الشعراء بقوله : فأصاب حبة قلبه وطحالها. وبقوله :

ويأمر لليحموم كل عشية بقتّ وتعليق فقد كاد يسنق

وأمثال لهذا كثيرة وإنما على الانسان أن يحفظ من الشيء أحسنه ويلغي مالم يستحسنه مأخوذاً به .

إنا نرى أبا الفرج في هذا النوع من النقد صاحب مذهب ، فهو من المجددين الذين يرون لكل عصر أحوالاً خاصة في الذوق والشعور ، ورأيه في ذلك رأي أكابر رجال الأدب واللغة أمثال ابن قتيبة وابن فارس ومن هم في طبقتهما فان رجلاً مثله يعيش في عصرٍ زهت فيه حضارة بني العباس وملئت فيه قصورهم بالندامى والقيان والنور والبنفسج والنرجس وفاخر الفرش ومختار الآلات لايمكن أن يعدل عن شعر يشتمل على هذه الصور إلى شعر يصف البيد والمهامه والظبي والظليم والناقة والجمل وأمثال هذا كله مما أشار إليه .

❀❀❀

وإذا أحببنا أن نختم هذا الفصل فخليق بنا ان نختمه بذكر نمطين من نقد أبي الفرج .

قال في كلامه على عبد الله بن العباس الربيعي(١) :

وكان شاعراً مطبوعاً ومغنياً محسناً جيد الصنعة نادرها حسن الرواية حلو الشعر ظريفه، ليس من الشعر الجيد الجزل ولا من المرذول ولكنه شعر مطبوع ظريف مليح المذهب من أشعار المترفين وأولاد النعم ومن شعر صاحب هذا المذهب :

يا شادنا رام إذ مر ... ر في السعانين قتلي

يقول لي : كيف أصبحـ ... ـت كيف يصبح مثلي

فالذي نراه أن أبا الفرج في نقده دقيق الحس يفطن إلى ما لا يفطن اليه إلا قليل من النقاد فان قوله في شعر عبد الله بن العباس الربيعي انه من أشعار المترفين وأولاد النعم يدل على إهتداء إلى أسرار الشعر لأن آثار الترف والنعمة ظاهرة على البيتين اللذين ذكرهما .

ولم يكن في كلامه على أبي العتاهية بأقل فطنة إلى خصائص شعره فقد قال فيه :(١)

وكان غزير البحر لطيف المعاني سهل الألفاظ كثير الافتنان قليل التكلف إلا أنه كثير الساقط المرذول مع ذلك وأكثر شعره في الزهد والأمثال وكان قوم من أهل عصره ينسبونه إلى القول بمذهب الفلاسفة ممن لا يؤمن بالبعث ويحتجون بأن شعره إنما هو في ذكر الموت والفناء دون ذكر النشور والمعاد وله أوزان ظريفة قالها مما لم يتقدمه الآوائل فيها .

---

(١) الجزء ١٧ الصفحة ١٢١

(٢) الجزء ٣ الصفحة ١٢٢

فكما عرف آثار الترف والنعمة في شعر عبد الله بن العباس الربيعي فكذلك عرف آثار الزهد في شعر أبي العتاهية واهتدى إلى غزارة بحره وظرافة أوزانه فان غزارة البحر في الشعر تدل على تنويع الموضوعات فلكل نوع من الموضوعات بحر خاص يصلح له ، فالوزن الذي يصلح لوصف معركة أو لرثاء رجل عظيم لا يصلح لوصف سهرة أو مجلس طرب وكشف الأسرار عن غزارة البحر وظرافة الأوزان من خصائص حذق النقّاد ومهارتهم وقد أوتي أبو الفرج كثيراً من هذا الحذق ومن هذه المهارة .

❀❀❀

لغة صاحب الأغاني وفنه

سواء أكان أبو الفرج الأصبهاني كاتباً من أكابر الكتّاب الذين وصفوا أخبار الناس أدقّ وصف أم كان ناقداً من حذّاق الناقدين الذين فطنوا إلى مواطن الحسن والقبح في كلام الشعراء انه يهمنا أن نعرف أسرار اللغة التي لجأ اليها في وصف ما وصفه من الآثار والأخبار والسير المتصلة بأيام العرب المشهورة وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الاسلام .

لا أرى من الهيّن استيعاب الكلام على لغة أبي الفرج وفنّه فقد تصدّى لموضوعات من الحياة لا يهتدي إلى ألفاظها إلا قليل من الكتّاب ولئن كان من الصعب الاتيان على خصائص لغة أبي الفرج وفنّه فليس من الصعب ذكر طائفة من خصائص هذه اللغة وهذا الفن .

من عادة أكابر الكتّاب أن يضعوا اللفظ في مواضعه ، وعلى رأس هؤلاء الكتّاب الجاحظ فانه اذا صبّ اللفظ في قالبه عسر علينا أن نجد لفظاً يقوم مقامه وقد يكون في هذا المذهب سرّ فنهم ، وأبو الفرج من هذه الطبقة من الكتّاب الذين أحاطوا بمفردات اللغة فانتخبوا منها ما يناسب غاياتهم ومذاهبهم فاذا وصفوا أمراً من الأمور إنقادت إليهم الألفاظ التي خلقت لهذا الوصف ، فقد أحكم فقه اللغة بحيث لا يكاد يستعمل اللفظ إلاّ في مواضعه وسواء أوصف الأصوات أم الطعام أم اللباس أم الأدوات انه لا يستعمل إلاّ الألفاظ التي تفصح عن هذه الموصوفات أتمّ الافصاح ولست في حاجة إلى الدلالة على هذه الخصائص في لغته فلا تخلو منها ورقة من أوراق كتاب الأغاني وإذا كان لا بد من ضرب الأمثال فاني أستغني عن الاسراف في ذلك فاذا وصف أبو الفرج أصوات بعض الحيوان وحركاتهم قال :

هدر الجمل وضبعت الناقة أو إذا وصف الشهوة إلى شرب اللبن قال : وبي من العيمة إلى اللبن ماليس بأحد أو إذا وصف بعض اللباس قال : واخصفها بهلب والخلاصة لانجد في لغته إلا قوله : نقبت راحلتي وشبر بطنه وأبق غلامان منًّا وشكوة ماء وغير ذلك من الألفاظ التي لايكاد غيرها يحل محلها فاذا كنا نجد في كتابته وضوحاً ليس وراءه وضوح فلا ريب في أن بلوغه إلى حقائق الألفاظ ومعانيها هو الذي مهد السبيل إلى هذا الوضوح .

هذا التفقه في اللغة إنما هو العنصر الأول من عناصر لغة أبي الفرج وإذا أردنا أن نبحث عن عنصر ثان من هذه العناصر فانَّا نجده في سهولة لغته فهو يستعمل من الألفاظ والتراكيب مالا يزال إستعماله شائعاً حتى في العامة ، فكثيراً مانجد في الأغاني أشباه هذه التراكيب : هجم الشتاء عليك ... لو رأيتها ماشربت من يدها الماء ... على بختي أنا . . استر علينا ... وهذه تراكيب لاتزال مستفيضة في طبقات الخاصة والعامة عصرنا هـذا ، فائن كان كتاب الأغاني خالداً على تراخي الأيام فهو خالد الجلالة قدر موضوعاته ولسهولة لغته فاذا قابلنا بين هذا الطرز من اللغـة وبين طرز آخر كالمقامات مثلاً رأينا أن المقامات عاشت في عصر خاص ثم عتق أسلوبها وقدم أما لغة الأغاني فانها خلقت لكل العصور ، من هذا يتبين لنا أن سهولة الكلام هي التي تخلد صاحبها ولكن ليس من الهيِّن الوصول إلى هذه السهولة فان بلغاء الكتّاب لايزدادون تقدماً في الكتابة إلا ازدادوا ميلاً إلى سهولة اللفظ وبعداً عن التقعر فيه .

قد نجد في بعض مواطن من الاغاني ألفاظاً لاتذكر معانيها معجمات اللغة فهذا راجع إلى أن هذه الألفاظ وضعت في عصر بني العبّاس لمعان مستحدثة لم يكن في اللغة مايدل عليها فاستعملها الكتّاب على وضعها وقد دل استحداث هذه الألفاظ على نشاط اللغة وحياتها لأن اللغة الجامدة على وضع من الأوضاع لاتصلح لكل عصر من العصور أمَّا لغة العرب فلم تجمد في زمن من الأزمان فما كاد أصحابها يخرجون من جزيرتهم ويتصلون بالأمم حتى شاع في لغتهم كثير من آثار تفكير

هذه الأمم وحسهم وشعورهم وذوقهم ولا بدّ لهذا التفكير والحس والشعور والذوق من ألفاظ حديثة تشير إلى المعاني الحديثة ، من هذا دخلت لغتنا ألفاظ لاعهد لها بها من قبلُ حتى تفرّغ بعض الافرنجة لوضع معجمات تفسّر هذه الألفاظ ومعجم «دوزي» في هذا المعنى مشهور ومقدمته التي شرحت انتقال اللغة من طور إلى طور من أبلغ ما كتب في هذا الباب فاذا مررنا في كتاب الأغاني على ألفاظ من هذا الشكل كالطارمة والشاذكونة والكرمانية والبوطقة فلا ينبغي لنا أن نجد في هذه الألفاظ غموضاً لأن معانيها في عصر أبي الفرج كانت معروفة ولست أدري أنجد لها ذكراً في معجماتنا وعلى كل حال فان «دوزي» قد اهتم بها وبأمثالها الاهتمام كله وحاول شرح معانيها على قدر الامكان .

لقد جارى أبو الفرج عصره ولم يجمد على حال من الأحوال وان كاتباً من طبقته يروي أخبار الملوك والخلفاء ويصف سير الناس لايستطيع أن يستعمل من الألفاظ الاّ ما كان واضحاً حتى ترسخ معانيه في الأذهان وقد حملته مجاراة العصر الذي عاش فيه على اشتقاق ألفاظ جزلة المعاني من ذلك استعمال العرسيات في بعض مواضع من كلامه فان هذا اللفظ يدل على حالة اجتماعية خاصة لا يعبّر عنها لفظ آخر انه يدل على الأكل الذي يقدم في الأعراس وكما استعمل العرسيات في كلامه فكذلك استعمل الدينارية والدرهمية والفلسية فقد نجد في كلامه : صنع جدك تسعمائة صوت منها دينارية ومنها درهمية ومنها فلسية ، فقد اشتقوا من كل نوع من هذه العملة المعنى الذي أرادوه وهذا دليل على مرونة اللغة وقد درج أبو الفرج على هذه المرونة في كتاباته .

هذه الحرية في الاشتقاق دفعته إلى تسمية الأشياء بأسمائها فكثر في كتاب الأغاني مانسميه في أيامنا الأدب المجرّد وقد شاع هذا النوع من الأدب في كتبنا القديمة ولم يقتصروا على تسمية الأمور بأسمائها وإنما وصفوا هذه الأمور وصفاً لانجد له مثيلاً في عصرنا هذا ولست أدري ما أقول في هذه السبيل فقد نسمع في الشوارع على ألسنة الناس ألفاظاً ننقبض عن استعمالها في كتاباتنا لبروزها عن ظل

الأدب والمسئلة في هذه الألفاظ إنما هي مسئلة ذوق ليس غير فمن الكتّاب من لايستحسن استعمالها في الكلام ومن الكتّاب من لايستقبح هذا الاستعمال وأبو الفرج عاش في عصر كثر فيه هذا النوع من الألفاظ فلم يجدوا قلة أدب فيه .

أظن أنّ في الاشارة إلى هذه الطائفة من خصائص لغة أبي الفرج مقنعاً وإذا أردنا أن نلخص هذه الخصائص وجدناها تنحصر في وضع اللفظ في مواضعه وفي سهولة هذا اللفظ ووضوحه وفي مرونة أبي الفرج ولكن كيف كان أبو الفرج يعبّر عن خواطره وأفكاره ، ماهي خصائص فن أبي الفرج .

رأس هذه الخصائص الوصف بكلمة واحدة بحيث يتم المعنى ، يستطيع أبو الفرج أن يصور حالة من حالات الإنسان بلفظ واحد فاذا قال في بعض مواضع من كتابه : وأن تكون ضحكة للناس .. استطاع ان يصف هذا الرجل بلفظ سهل بسيط خالد على الدهر ، فلا نزال في لغتنا العامة نقول : فلان أصبح ضحكة ، وأمثال هذا الوصف بلفظ واحد كثيرة في كلامه فلا يكاد هذا الكلام يخلو من الألفاظ الآتية : وكان حدثاً أي حسن الحديث أو وكان لبّاساً ، عطراً ، أو وكان رجلاً صيّتا أو وكان سؤلاً .. ولا أرى بي حاجة إلى الاكثار من الاستشهاد في هذا الباب فأكثر فن صاحب الأغاني مبني على الاقتصاد في التصوير فكما يميل أبو الفرج إلى وضع اللفظ في مواضعه بحيث لايحتاج الى شرح وبسط فكذلك يميل إلى التصوير بلفظ واحد بحيث يستغني عن كثرة الألوان والخطوط في صوره .

وإذا عمل تصوير أبي الفرج عمله في القلوب فالسرّ في ذلك يرجع إلى أنه يجعل بين الصفة وبين الموصوف صلة وثيقة فهو لايشبه الكتّاب الذين يطلقون على الموصوفات صفات عامة تطلق على كل موصوف فقد نمرّ في كتاباته بهذه الفئة من الصفات أزبّ .. أقمز .. أطيلس .. أفحج .. أمعر .. فاره .. شيخ حادر امرأة ماخض.. فهذه جملة من الصفات لاتصلح لكل موصوف وإنما تطلق على موصوف خاص فتميّزه، وكثيراً مانرى في الألفاظ التي يستعملها أبو الفرج في وصفه تناسباً قوياً بينها وبين معانيها في رواية من رواياته الرائعة وسأشير إليها بعد حين وصف حالة

من حالات أعرابي من الأعراب : فتربَّد وجهه وجحظت عيناه وهمّ بالوثوب ، ففي كل مادةٍ من هذه المواد تناسق شديد بين اللفظ والمعنى .

وسواء أوصف بلفظ واحد أم وصف بسطر واحد اننّا نجد الصلة مستحكمة بين الصفة والموصوف كما نجد الاقتصاد في الوصف فمن ذلك قوله : إن حدّثني ألهاني وإن غنّاني أشجاني وإن رجعت الى رأيه كفاني . ففي هذا السطر الواحد وصف أبو الفرج رجلاً من ثلاثة وجوه ، وصف حديثه ووصف غناءه ووصف عقله ، فوضع إلى جنب كل وجه من هذه الوجوه الثلاثة الصفة الخاصة بأقل مايكون من الألفاظ .

وهذا التدقيق في الوصف والتصوير هو الذي جعل لتراجمه شأناً عظيما وقد أشرت إلى هذا الشأن في كلامي على هذه التراجم فلست أرغب في إعادة ماذكرته فانه إذا وصف رجلاً من الرجال نطقت ألفاظه من صدق الوصف ، من هذا القبيل قوله في إسحق بن إبراهيم الموصلي : كان والله يخرس الناطق إذانطق ويحير السامع إذا تحدث لا يمل جليسه مجلسه ولا تمج الآذان حديثه ولا تنبو النفوس عن مطاولته ، إن حدّثك ألهاك وإن ناظرك أفادك وإن غنّاك أطربك .... فهذه صفات لاتنطبق على كل رجل من الرجال وانما تنطبق على اسحق وحده ..

واذا كنّا نتكلم على ميل أبي الفرج إلى التصوير بلفظ واحد أو بسطر واحد أو كنا نتكلم على صدق هذا التصوير فلا بأس بالاستمرار في الكلام على تصويره فقد برع أبو الفرج في تصوير الحركات ، من ذلك تصويره لجلسة أحد القضاة وهو الخليجي فقد كان يجلس الى اسطوانة من أساطين المسجد فيستند اليها بجميع جسده ولا يتحرك فاذا تقدّم اليه الخصمان أقبل عليهما بجميع جسده وترك الاستناد حتى يفصل بينهما ثم يعود لحاله ..[1] ولهذا القاضي قصة فيها شيء من العبث به يرجع اليها من شاء .

---

(١) الجزء ١٠ الصفحة ١١٧

فهذه جلسة وصفها أبو الفرج على طبيعتها دون زيادة ولا نقصان .

وكما مهر أبو الفرج في وصف هذه الجلسات فقد مهر في وصف الحركات فقال في بعض كتابه :(١) فجعل يحرك رأسه ويومئ بيديه ويظهر طربا وسرورا فقد وصف أبو الفرج حركة الرأس واليدين وصفاً لاتكلف فيه .

ومن هذا القبيل قوله:(٢) فرأى وجه سوار يتربد غيظاً ويسود حنقاً ويدلك إحدى يديه بالأخرى ويحرق .. ففي هذا المقام رأينا صورة مادية في أوضح ألوانها تفصح عن حالة معنوية .

ومثل هذه الصورة نجدها في المقام الآتي في أبرز خطوطها :(٣) وصفقوا بأيديهم وفحصوا بأرجلهم وحركوا رؤسهم .. فكأن القارئ يرى بعينيه صورة القوم الذين استخفهم الطرب .

وكما برع أبو الفرج في وصف الحالات المادية مثل الجلسات والحركات وما شاكلها فكذلك برع في وصف الحالات النفسية فمن قوله على لسان أعرابي مصفر شاحب ناحل الجسم: والله إنه لتأتي علي ساعات ماأدري أفي السماء أنا أم في الأرض ولا أزال ثابت العقل مالم يخامر ذكرها قلبي فاذا خامره بطلت حواسي وعزب عني لبي... وشبه هذا القول نراه على لسان شيخ وقد سمع غناء مغنية : دب شيء من قدمي إلى رأسي كدبيب النمل ونزل في رأسي مثله فلما وردا على قلبي لم أعقل ماعملت... وكذلك قول أبي الفرج على لسان فتى من الأعراب : ان لي وراء هذين الجبلين شجنا وقد حيل بيني وبين المرور به ... وهكذا نجده في بعض الأوقات يستعين على تصوير حالات نفسية بشيء من المجازات .

ولم يكن في وصف الطبيعة بأقل براعة منه في وصف ماأشرت إليه فانه يصف

---

(١) الجزء ١١ الصفحة ٤

(٢) الجزء ٧ الصفحة ١٥

(٣) الجزء ٧ الصفحة ١٢٧ .

مشهداً من مشاهد الطبيعة بأقل مايكون من الألفاظ ، وازنا ألفاظه بحيث لاتزيد ولاتنقص فيقول: وفي السماء غيم رقيق والمطر يجيء قليلا ويسكن قليلا ... فهذا هو الوصف الخالي من شطط الخيال ، هذا هو الخيال المصقول .

أما لغته الشعرية فلم يلجأ فيها إلا الى الصور التي تقع عليها العين وهذه نماذج من لغته المصورة : نخفق كما يخفق الطائر .. فاضطرب اضطراب العصفور .. تخيّل إليّ أن الشجرة تنطق .. تخيّل إليّ أن الأودية تنطق حسناً .. تخيّل إليّ والله أن الايوان يسير بنا ... تجمز في أبياتها كأنها نعامة ... والدنيا كالجنة المزخرفة ... يرفلون كأنهم الدنانير الهرقلية ... وكأنما تلعقني بحديثها الرُّبّ من حلاوته ... فهذه صور مهذبة قريبة من الحواس ، لا غلو فيها ولا اشتطاط ، صارت فيها الأمور المجرّدة إلى أمور محسوسة دون تبذل في التصوير .

هــذه جملة من فن أبي الفرج لاغنى لنا عن أن نتممها بجملة ثانية حتى نحيط من هذا الفن بكثير من نواحيه فقد وجدنا أن أبا الفرج جمع في كثير من لغته وفنه الصفات التي يجمعها أكابر الكتّاب كالتفقه في اللغــة والاقتصاد في الكلام واللجوء إلى سهولة اللفظ والاعتدال في التصوير والصدق في الوصف وما شابه ذلك وإلى جنب هذه الصفات صفات ثانية لم يدرك أسرارها إلاّ بلغاء الكتّاب ، وقد أستطيع أن ألخص هذه الصفات في عبارة واحدة ، فان أبا الفرج يجعل لكل مقام مقالاً وهذه القاعدة على ما أعتقد رأس البلاغة ، فهو لم يرو أخباره كلها على وتيرة واحدة وإنما يجعل لكل خبر مقالاً خاصاً ورواية الأخبار ليست بالأمر الهين فان الخبر إذا لم يروَ بالألفاظ المناسبة له ضاع أثره في الأذهان فاذا زيد فيه لفظ أو طرح منه لفظ ذهب رونقه .

يروي أبو الفرج مايروي فيعطي كل معنى مايستحقه من الألفاظ فاذا وصف الغناء هيأ له ألفاظه فمن ذلك قوله على لسان إبراهيم وقد سمع لحن جميلة في قصيدة قيلت في عمر بن الخطاب : والله ماسمعته قط إلاّ أبكاني لأني أجد حين أسمعه شيئاً

يضغط قلبي ويحرقه فلا أملك عيني وما رأيت أحداً قط سمعه إلاّ كانت هذه حاله.(١)

فلا شك في أن ألفاظ البكاء وضغط القلب وحرقته مناسبة للغناء وإذا انتقل أبو الفرج من رواية أخبار لها صلة بالغناء إلى رواية أخبار لها صلة بالفلسفة استعمل ألفاظ المتكلمين والفلاسفة كالطبائع والتجاذب والمجانسة والكيان والجوهر والجسم والبقاء والنفس والجدل.

إذا خرجنا من هذا الأفق من فن أبي الفرج إلى أفق أوسع وجدناه يجري على قاعدته نفسها التي أشرت إليها، فهو في قطعه التي تصح أن تكون قصصاً أو روايات يعطي هذه القصص والروايات حقوقها.

نجده في قصة عبدالله بن طاهر مع محمد بن يزيد الأموي الحصني(٢) يأخذ بيد القارئ من بدء القصة فينتقل به بين مواطنها فلا يزال به حتى ينبهه على كرم أخلاق عبد الله بن طاهر وعلى رقة شعوره وسعة حلمه وامتداد كرمه وعلى الرغم من قصر هذه القصة فانا نجدها كاملة لأن القارئ لا يتردد في موضع من مواضعها ولا يستوضح صاحبها أمراً من أمورها وهذا يرجع الى أن حوادثها قد عرضت في أوضح معرض فكل حادثة منها مربوطة بعلتها وسببها وهذا النمط من تسلسلها المنطقي قد جعل فيها وضوحا يغني عن كل استفهام واستيضاح وقد يكون نصيب هذه القصة من الوصف لا أثر له ونصيبها من الصور أوفر على أن القصة القصيرة لا تحتمل صوراً كاملة وعلى الرغم من اختصار هذه الصور نستطيع أن نستنبط صور طائفة من أبطالها من كلامهم نفسه.

رتّبت القصة ترتيباً متقناً فقد اشتمل عرضها الوجيز على ذكر أبطالها وعلى ذكر الظروف التي تمت فيها الحوادث واشتبكت حوادثها وكان في اشتباكها بدء العقدة وقد روى أبو الفرج قصته على شكل مستميل فانه لم يفاجئ القارئ

---

(١) الجزء ٧ الصفحة ١٤٠

(٢) الجزء ١١ الصفحة ١٢

مفاجأة بعفو عبد الله بن طاهر ومرؤته من أول القصة وإنما استدرجه إلى ذلك استدراجاً حتى يبقى ميله إلى معرفة الخاتمة معلقاً .

ولم يلجأ أبو الفرج في قصته إلى اللغة الشعرية وإنما لجأ إلى تقطيع عباراته، من هذا القبيل قوله: لا يفلت منه إن هرب ولا ينجو منه حيث حل .. فثبت في موضعه وأحرز حرمه ... أو قوله : أمَّن الله روعتك وحقن دمك وصان حرمك وحرس نعمتك وعفا عن ذنبك ... والأسلوب المقطع هو الذي يصلح للقصص الصغيرة أكثر من غيره إن فيه شيئاً من الخفة والسرعة لا نراه في العبارة المديدة التي يضم بعضها إلى بعض ويتصل بعضها ببعض على اننَّا نجد في هذا الأسلوب المقطع تسلسلاً في الأفكار محكماً ولا ينبغي لنا أن ننسى أن الايجاز في بعض مواضع هـذه القصة والحوار قد زادا في نفخ الروح فيها فالقصة على الاجمال منسجمة متناسقة وهـذا سرُّ محاسنها .

وقد نجد مثل هذا الانسجام والتناسق في قصة الأعرابي مع الأمير أبان بن عثمان(1) ولا أبالغ إذا قلت ان هذه الرواية آية من آيات أدبنا .

موضوع الرواية عبث الأمير أبان بأعرابي من الأعراب ، وقد ركَّز أبو الفرج أبطالها تركيزاً لا نستطيع أن نجد أشد إحكاماً منه، فالصلة بين العبث وبين الأبطال الذين انتخبهم أبو الفرج مستحكمة فلا تنافر بين موضوع الرواية وبين طبائع كل بطل من أبطالها ولم تكن براعة أبي الفرج في تدريج حوادث الرواية بأقل من براعته في تركيز أبطالها فلا يكاد القارئ يفرغ من مفاجأة المشهد الأول حتى ينتقل إلى مفاجأة أقوى وعلى هـذا الشكل يظل ذهنه متعلقاً بالرواية من أول مشاهدها إلى آخرهـا .

وقد تجلَّى فن أبي الفرج كله في هـذه الرواية فقد اجتمع له من الألفاظ

---

(1) الجزء ١٧ الصفحة ١٠٢

والتراكيب ما أعانه على تصوير أبطالها وكان تصويره لهم محسوساً إذ أنه قد لجأ إلى تشبيهات قريبة من الحسّ ليس فيها شيء من الاشتطاط فان قوله في وصف حالة من حالات الأعرابي النفسية : يتلظّى كأنه أفعى ... يشتمل على تشبيه مصقول فان الأفاعي في البادية تقع عليها العين في كل ساعة فكأن القارئ يتصور هذه الحية الخبيثة منتصبة أمامه فاغرة فاها لتغرز نابها في كل من يهجم عليها أو يريد الأذى بها واذا لم يلجأ أبو الفرج إلى شيء من التشبيه في وصف الحالات النفسية فقد يختار من الألفاظ ماينطق بنفسه دون شيء من الحاجة إلى التشبيه فان قوله : تربّد وجهه وجحظت عيناه... إنما هو صورة ناطقة فالتربد معناه التغير ، وأي تغير ، انه انتقال من حالة فيها بعض الأنس إلى حالة فيها الوحشة وكما أن السماء إذا تربدت فانها تنتقل من الصحو إلى الغيم فكذلك الوجه إذا تربّد فانه ينتقل من الانس إلى الوحشة فالصورة ناطقة بنفسها وما يقال في تربّد الوجه يقال في جحظ العين فكأنا نرى خروج مقلة العين من الغضب .

وإذا فرغ من الألفاظ الناطقة عاد إلى التشبيه فان قوله : نهض مثل المجنون لايعدله قول في القوة فاذا جمعنا الألفاظ الناطقة والتشبيهات المحسوسة في هذا المعنى وأردنا أن نصور رجلاً هاجت به أعصابه وماجت فلا نجد لفظاً أقوى من المجنون لأن الجنون آخر حالة من حالات التماسك .

والذي ندهش منه في دراسة الألفاظ التي صوّر بها أبوالفرج حالات الأعرابي في غضبه إنما هو التناسق بين مقاطع كل لفظ منها وبين الغضب الذي يدل عليه فاذا لفظنا : تربّد وجهه وجحظت عيناه وهمّ بالوثوب وهو متقلقل .. وجدنا صلة عظيمة بين شدة هذه المقاطع وبين شدة غضب الأعرابي وما نظن أننا نشعر بعبقرية الفن إلا في مثل هذا التناسق .

والشيء الغالب على الرواية كلها إنما هو روح السخرية فيها وإذا بحثنا عن شبه بين سخرية أبي الفرج وبين سخرية كاتب من أشهر كتّاب فرنسة الهزليين

فانا نجد هذا الشبه بينه وبين « موليير » في بعض أماكن من رواياته .

من روايات « موليير » رواية اسمها : دون جوان ، وهذا البطل إنما هو صورة السيد الكبير والرجل السيء فانه يستخدم ذكاء عقله ومواهبه شر استخدام ولا يتأخر عن الجناية إرضاءً لاهوائه ، استدان « دون جوان » في بعض الأيام ولما جاءه الصراف يطلب قضاء دينه حاول صرفه عن هذا الطلب بعدة أساليب فكلما فتح الصراف فمه لذكر الدين بادر « دون جوان » إلى تغيير الموضوع إمّا بطلب كرسي له وإمّا بمجاملة وغير ذلك ، من هذا قوله في وصف صحته :

ان لك شفتين نضرتين ولوناً أرجوانياً وعينين براقتين ...

ولست أجد فرقاً في السخرية بين قول « دون جوان » هذا وبين قول الأمير أبان للأعرابي : اني في طلب جمل مثل جملك هذا منذ زمان فلم أجده كما أشتهي بهذه الصفة وهذه القامة واللون والصدر والورك والأخفاف ... إلا أن «موليير» جعل صفات لموصوفاته فقوّى بذلك روح السخرية وأبو الفرج لم يجعل لقامة الجمل ولونه وصدره ووركه وأخفافه شيئاً من الصفات .

❀❀❀

هذا آخر ماتيسّر لي أن أشير اليه من خصائص لغة أبي الفرج وفنّه وقد يصعب عليّ أن أهتدي إلى صفة شاملة أصف بها هـذه اللغة وهذا الفن واذا صعب عليّ شيء من ذلك فقد يهون عليّ ان أقول ان أبرز صفة من صفات عبقرية أبي الفرج إنما هي الطبع فان هذه السنين الخمسين التي سلخها في إنشاء كتاب الأغاني قد صقلت بيانه حتى أصبح أبو الفرج مطبوعاً على الكتابة لايظهر على عبقريته أثر من آثار التكلف .

وقد يدفعه طبعه في بعض مواضع من كتابه الى الزهد في تنقيح عبارته فيكرر اللفظ الواحد في مقطع من مقاطعه خمس أو ست مرات وهذا كله دليل

على استفاضة الطبع في بيانه واذا خلد كاتب لفطنته إلى روح الألفاظ وأسرارها ولصبه هذه الألفاظ في قوالبها ولخفة لغته على القلوب والأفهام ولأرسال قلمه على سجيته وطبعه دون شيء من التصنع واصفاً مايذكره من الأشخاص والأشياء بحقائق الصفات وازناً كل صفة من هذه الصفات بموازينها دون شطط ولا سرف ، اذا خلد كاتب لهذه الخصائص كلها فأبو الفرج الأصبهاني على رأس الخالدين .

❀❀❀

الفهرس

الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥	الأخير	أند	انه
٢٣	١٦	الأطربة	الأطرية
٣٠	٧	منه	منهم
٤١	٢٠	أو يتصعب	أو يتعصب
٤٦	١٦	فينشؤها	فينشئها
٤٧	٨	ينشؤها	ينشئها
٥٥	٩	يخطّئوهم	يخطّئهم
٦٣	٦	النجاح	الجناح
٨٠	١٢	لغيرك	لغيرُك
٨٠	١٦	فتن	فتىً
٨٣	١٣	يُعص	يعصى
٨٦	الأخير	عمر الضائع	عمرو الضائع
٨٩	١٤	تُعدني	تعدني
٩٢	٤	وأوفيت	ووافيت
٩٢	٩	كلثوم ابن	كلثوم بن
١١٢	٤	الجنفة	الجفنة
١١٥	٥	والصفحة	والصحفة
١٢٤	١٤	يجتمون	يجتمعون
١٦٨	الاول	بن المعتز	ابن المعتز

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧٠	١٣	أوهبها	وهبها
٢١٢	١٢	غررت	غدرت
٢٢٢	١٣	فجلسا	فجلستا
٢٤٥	١٤	أحداها	أهداها
٢٥٠	٢٢	نعمي	نعي
٢٥٥	١٢	أغنتا	غنّتا
٢٥٩	٨	ودعّوك	ودّعوك
٢٦٠	١٠	أجمعت بنا	أجمعت بينا
٢٦٢	٤	لشادية	لشارية
٢٦٣	٧	لاناديت	إلاّ ناديت
٢٧٣	١١	الكيد	الكديد
٣٢١	١٢	قصة	رواية

هذا بعض ما اهتديت إليه من الخطأ فاذا وقع الى لقارىء الكريم خطأ آخر ولم أفطن إليه فأرجو التفضل باصلاحه .

❀❀❀

